محمد رجب البيومي

فارس القلم في وجه خصوم الإسلام

بقلم حاتم إبراهيم سلامة

محمد رجب البيومي

فارس القلم في وجه خصوم الإسلام

بقلم/ حاتم إبراهيم سلامة

اسم المؤلف: حاتم إبراهيم سلامة

إيميل: salama227@gmail.com

تدقيق لغوي: سعد السعودي.

رقم الإيداع : 19645 / 2023

الترقيم الدولي: 9789778674699

"إن الحق لا يعدم أنصاره، فإذا وُجد من يُشيد بالباطل ويعمل على رواجه، فقد وُجد من يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق".

د-محمد رجب البيومي.

"إن المستقبل للإسلام دون نزاع، فمن شاء أن يلحق بالركب المجاهد، فليحمل قلمه في سبيل العزة والحرية والإيمان، فعما قريب ستبدد الغيوم ويشرق النور".

محمد رجب البيومي

بطاقة تعريفية

الدكتور محمد رجب البيومي - رحمه الله- علم من أعلام الأدب والفكر في العصر الحديث في مصر، ومن القامات العلمية الكبيرة التي يعتز بها الأزهر الشريف بل يعد - دون مبالغة- عملاقًا من عمالقة الأدب العربي والفكر الإسلامي، بل جدير أن يلقب بعميد الأدب العربي الحديث، وتأتي هذه البطاقة التعريفية لحياته العلمية والفكرية كموجز وصورة يعكسان لمحة من هذا البناء المتكامل للشخصية الفذة، وتسليط الضوء على رحلة الكفاح والتميز لحياة مليئة بالعطاء والجد والعمل والمثابرة والإبداع لشخصية نادرة مبهرة كانت لها بصماتها المضيئة في حياتنا الثقافية والفكرية والعلمية، جعلت من صاحبها وجهًا مشرقًا مضيئًا لا يعتز به الأزهر وحده؛ بل تعتز به الأمة بأثرها.

ولد الدكتور محمد رجب البيومي في أكتوبر 1923م بقرية الكفر الجديد التابعة لمحافظة الدقهلية وتلقى تعليما دينيًا أزهريًا نبغ فيه حتى نال الشهادة العالية من كلية اللغة العربية، ثم حصل على الدكتوراه في الأدب والنقد بمرتبة الشرف الأولى.

وارتقى في وظائف هيئة التدريس حتى أصبح عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة.

وانتُخب عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية (هيئة كبار العلماء).

واختير رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر إلى يوم وفاته، فأعاد إليها كما وصف معالم الرونق والأصالة والحياة، وكان يطالعك في كل عدد -رغم تقدمه في العمر- بالجديد في كل فرع

من فروع العلوم العربية والإسلامية فتجده يحدثك حديث العالِم الذي يقف على دقيق وخبايا هذه العلوم.

كما اختير مقررًا للجنة ترقية الأساتذة بجامعة الأزهر في تخصص البلاغة.

واختير عضوًا في لجنة ترقية أساتذة الأدب والنقد، وكان في كل اللجان الأزهرية بمنزلة الحكم العادل والمرجع النهائي طيلة ثلاثة عقود من الزمان[1].

أشرف على أكثر من ثلاثين رسالة جامعية للماجستير والدكتوراه، كما شارك في مناقشة أكثر من خمسين رسالة جامعية في مصر والعالم العربي.

وعمل أستاذًا بجامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة العربية السعودية.

شارك في العديد من المجلات الفكرية والأدبية، فنشر فيها إبداعاته المتميزة، وذلك في: (الرسالة، الأديب، منار الإسلام، الثقافة، التضامن الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، الكتاب، الأقلام، الحج، الهلال، الوعي الإسلامي، المنهل، الأزهر، صوت الأزهر، المنتدى، هدى الإسلام).

- مؤلفاته وإنجازاته العلمية

أما مؤلفاته فكانت في مختلف العلوم والمعارف:

1 - من مقال للدكتور محمد الجوادي

منها في الدراسات القرآنية: (البيان القرآني، وخطوات التفسير البياني)

ومنها في دراسات السيرة والسنة: (البلاغة النبوية، في ظلال السيرة النبوية).

ومنها في التاريخ الإسلامي: (صفحات هادفة من التاريخ الإسلامي، من شرفات التاريخ، الأزهر بين السياسة وحرية الفكر).

ومنها في الكتابة عن أعلام الإسلام: (علماء في وجه الطغيان، مع الأبطال).

ومنها في الدراسات الإسلامية: (في ميزان الإسلام، من منطلق إسلامي).

ومنها في الدراسات الأدبية: (النقد الأدبي للشعر الجاهلي، قطرات المداد).

ومن مسرحياته: (انتصار، فوق الأبوة، ملك غسان).

ومن دواوينه: (صدى الأيام، من نبع القرآن).

ومن قصص الأطفال: (المغامر الشجاع، الهمة العالية).

ولعل هذه نماذج فقط من أعماله التي يضيق المقام عن ذكرها.

ويعد الدكتور البيومي الوحيد الذي فاز بخمس جوائز من مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وسادسة من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية:

1- جائزة شوقي في الشعر – من المجلس الأعلى للفنون والآداب بمصر سنة 1960م.

2- جائزة مجمع اللغة العربية في الشعر (ديوان) - سنة 1962م.

3- جائزة مجمع اللغة العربية في الدراسات الأدبية – 1963م.

4- جائزة مجمع اللغة العربية – الأولى – في المسرحية الشعرية – 1961م.

5- جائزة مجمع اللغة العربية في التراجم الأدبية سنة 1964م.

6- جائزة مجمع اللغة العربية في المسرحية – مرة ثانية – سنة 1972م.

صعدت روحه إلى بارئها في صباح يوم السبت 2 من ربيع الأول 1432هـ، الموافق 5 فبراير عام 2011م، رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له العطاء، وجزاه خيرًا عن كل ما قدم للإسلام والمسلمين.[1]

[1] - راجع كتاب أزهريون على طريق الإصلاح- إعداد د- علي عبد العظيم

قالوا عنه

نعرض هنا جانبًا من أقوال العلماء والمفكرين والمحبين للدكتور البيومي رحمه الله بما يُظهر جلال شأنه وسمو شخصه وعلو مكانته وشاهق قدره، وهي أقوال لا تندفع من العاطفة وحدها، وإنما شهد عليها الواقع بما هو أهله، فخرجت الألسنة تعبر عن حقيقة الرجل الفذ والعملاق الكبير، لتعطيه ما يستحقه من المنزلة الرفعة والتقدير الوفير والتي كان منها:

"كان الدكتور البيومي عالمًا موسوعيًا في عصر جارت فيه التخصصية على الموسوعية والموسوعيين، وكان عالمًا محققًا في عالم جار فيه الإعلام - بسطحيته - على العلم والعلماء والتحقيق والمحققين، كان راهبًا في محراب الفكر الإسلامي والأدب العربي في عصر اجتذبت فيه زخارف الدنيا كثيرين بعيدًا عن محاريب العلم ومشاق العمل الفكري الرصين، لقد رحل عن عالمنا وهو يمثل مدرسة في الفكر والأدب – فيها تلامذة ومريدون، وغادر هذه الدنيا وهو عضو مرموق في أعرق هيئات العلم الإسلامي "مجمع البحوث الإسلامية" - هيئة كبار العلماء - بالأزهر الشريف.

جمعتْ بيني وبينه روابط الفكر والعلم، إذ العلم رحم بين أهله، ومشاعر التقدير والاحترام للإخلاص في محراب الفكر، والذي كان شديد الحفاوة بما قدمته لمجلة الأزهر فهو الذي دعاني للإسهام في تحريرها؛ بالدراسات، والملاحق التي نشرتها لي- باسم "مجمع البحوث الإسلامية" الذي تزاملنا في عضويته.

لقد كان عالمًا جليلًا، وراهبًا في محراب الفكر، وأشهد أنه كان نصير الحرية الفكرية، منافحًا في مجمع البحوث الإسلامية عن حق الاختلاف، وتشهد على ذلك تقاريره عن الكتب التي فحصها للمجمع.

لقد عاش وتكوَّن في حقبة الحرية الفكرية التي ازدهرت بمصر ما بين ثورتي سنة 1919و1952م، فكانت ثمرة طيبة لحرية الفكر، كما كان نهرًا معطاء للإبداع والتجديد في كل الميادين التي شرفت بقطرات مداد قلمه، رحمه الله. وعوَّضنا فيه خيرا".

د- محمد عمارة

"إنني حريص على قراءة مقاله في المجلات التي يكتب فيها وتقع تحت يدي، وعهدي به أنه إذا كتب في موضوع استوفاه من جميع أطرافه، ويعرض لما قاله القدماء والمحدثون في الموضوع الذي تناوله ثم يبدي رأيه فيه"

العلامة الدكتور محمد أبو شهبة

"إذا صح أني مدين لأستاذ معاصر من المعاصرين بفضل كبير ومتصل في استيعاب تاريخ طائفة ممن يستحقون تأريخ حياتهم، فإني أكثر ما أكون دينًا للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي ١٩٢٣-٢٠١١ الذي أضاء لي ولغيري تاريخ أعلام النهضة الإسلامية وظل طيلة حياته علمًا معطاءً مشتعلًا متقدًا متوقدا في مجال الأدب والدراسات الأدبية والتاريخ والتحقيقات التاريخية، وإذا صح أن هناك بين المسلمين المعاصرين من أرّخ

التاريخ (ولا نقول كتب التاريخ فحسب) بذاكرته وبمكتبته وبأوراقه ونصوصه وبمعاصرته؛ فإنه هو ذلك الرجل العظيم الدكتور محمد رجب البيومي الذي عاش الحياة الفكرية والأدبية بوجدانه وعقله معًا منذ استطاع متابعتها وحتى توفي، ولست أبالغ في هذا؛ ذلك أن الدكتور محمد رجب البيومي عاش هذه الحياة بقلب محب للقيم العليا وروح مشرئبة وثابة وبذاكرة حافظة ومتميزة، وبذائقة سليمة وراقية، وبانتماء عميق ومتفتح، ولم يتوان لحظة من لحظات حياته عن أن يتقدم إلى الأمام في فكره ومنهجه ونقده".

د- محمد الجوادي

" لم يكن الرجل من العلماء التقليديين الذي يكتفي صاحبه فيما يكتب بأن يكون مجرد ناقل يردد مقالة أو مقولات هؤلاء النفر من الرعيل الأول والثقات من الأدباء والمؤرخين، وإنما كان مبدعًا بين المبدعين، وصاحب رؤية ومنهج بين السالكين على دروب علم الشعر والأدب، يضيف إلى هؤلاء الكبار ويأخذ عنهم، ويسير على نهجهم، لكن في ظل فكر ناقد وثراء بارز لا تخطئه العين، وسيرة الرجل ثرية لم تأخذ حقها، ولم تنل حظها الذي تستحقه أدبا وشعرا، لأنها لم تكن من طلاب الشهرة، ولا من بين من ملأوا الدنيا ضجيجًا بأعمال دون المستوى، بل آثر الرجل أن يبدع في صمت، وأن يعيش بين تلك الشخصيات التي تنكر ذاتها، لا تبحث عن شهرة ولا تجري وراء مغنم ممن كثروا في هذا الزمان، برغم كساد تجارتهم وبوار بضاعتهم"

د- محمد الشحات الجندي

"هذا رجل تأخر عنه التكريم كثيرًا ونسيته أمة جاهد من أجلها بقلمه ولسانه، وهو أبعد ما يكون عن الأضواء، وأزهد الناس في المدح والثناء، وكانت المجلات الأدبية في مصر والشام وغيرهما تحله محلا متميزا، ومع ذلك فهو الإنسان الزاهد في الألقاب البعيد عن المناصب، كلما جالسته يفيك علمًا، ذو ذاكرة واعية، وذو تجارب كثيرة، وإذا بمناصب الجامعة تُعطى لغيره، وهو ساكت عازف فقد آثر غيره على نفسه، فآثر على نفسه أن يدخل زميل له قسم الأدب مكانه، وانتقل هو إلى قسم النقد حبًا وتقديرًا لأخيه، فهو أبعد الناس عن الرغبة في هذا الحطام".

د- مصطفى عبد الواحد

"مؤلف نابه اطلع على كثير مما صدر من دراسات تجتهد في دراسة النظم القرآني، بالتحليل الذي يكشف عن جمال الأسلوب وروعة التصوير، مناقشًا ما يراه مستحقا للمناقشة في إخلاص بادٍ واجتهاد موفق"

د- عبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر الأسبق

"عرفت أبا حسام، فعرفت الإنسان والصديق، عرفت فيه الوفاء النادر والنابه لمن تعلم منهم أو أخذ عنهم، وعرفت فيه الأستاذ الموجه الذي لا يبخل، فهو يصادق تلاميذه ويقربهم إليه في مودة علمية، قل أن تتوفر بين كثير من كتاب وأدباء وأساتذة هذا الجيل"[1]

أحمد حسن الزيات

"أستاذنا الجليل، وعالمنا الكبير الشاعر والمفكر والأديب الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي، كان – كما نعلم جميعًا – خاتمة الشعراء المدققين، والأدباء المحققين، ومع ذلك لم ينل – للأسف الشديد – ما يستحقه خلال حياته، فنسأل الله أن يجزيه كل خير بعد وفاته، فقد كان قامة عالية، وقيمة سامقة عالمًا وأديبا، وهو جدير بحق أن تعقد ندوات وندوات، وقد ظل – رحمه الله – مجدًا مجتهدًا، لم يترك قلمه لحظة واحدة، وأنا لدي المجموعة الكاملة لمجلة الرسالة التي أحرص على مطالعتها بين الحين والآخر، والتي كان يزينها بمقالاته الرصينة في القرن الماضي."

د- أحمد الطيب شيخ الأزهر

" كان البيومي شجاع القلب، قوي النفس، بعيد الهمة، صلبًا في الحق، غيورًا على الدين، لم تثنه المكاره عن الدفاع عن الحق، ومناضلة دعاة التشكيك والبلبلة، والمبتدعين في

1 - أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبي- د. محمد رجب البيومي

الدين، بعلمه الغزير وقلمه البليغ، فكتب وألف، وروى وحدث، وكان في كل ذلك الحجة الثبت، والإمام الصدوق"[1]

الشيخ أحمد مصطفى فضلية

بكل المقاييس النقدية يلوح لنا الدكتور محمد رجب البيومي ناقدا رائع الحس، ملهم الرؤيا، مثقف الفكر، متوامض آفاق الوجدان، وبكل المقاييس الفنية يلوح لنا الدكتور محمد رجب البيومي فنانا قادر القلم، هادف الحرف، مدرب الحركة، هاطل الإبداع، وبكل المقاييس العلمية كذلك يلوح لنا الدكتور محمد رجب البيومي عالِما شمولي الثقافة، موضوعي النظرة، أصيل العطاء، إنساني المنطلق والقرار. هذه الثلاثية الرائعة هي ما تشكل في نهاية الممر حركة وجود الدكتور البيومي في عالم الخلق، أو حركة الخلق في عالم الوجود، وهو بهذه الثلاثية الرائعة، يبقى في النهاية واحدا من الذين أضافوا ويضيفون إلى ضمير العصر.[2]

د- محمد أحمد العزب

" كان عالما موسوعيًا عُرف عنه أنه شاعر وأديب، وكاتب إسلامي فذ، لكنه إلى جانب تلك المواهب المتعددة، له دراسات رصينة في السنة النبوية ورجالها من كبار المحدثين كالإمام أحمد بن حنبل والإمام البخاري وغيرهما، من

[1] - مجلة الأزهر عدد مارس 2011م
[2] - مجلة الأديب عدد 12- تاريخ 1971م

أئمة الحديث النبوي وشوامخ الفكر الإسلامي، ولأصالة فكره ورسوخ علمه حازت مؤلفاته شهرة واسعة، وسارت في العالم الإسلامي مسيرة الضوء في الآفاق، ولا غرو فهو عالم فذ، راسخ القدم، موسوعي المعرفة"

د- أحمد عمر هاشم

" مما من الله به علي أن هداني لمؤلفات العلامة الأديب العملاق محمد رجب البيومي، فوعيت وتعلمت وعرفت قدره، ورأيت فيه العظة بأجلى معانيها، مما دفعني إلى زيارته في منزله، فرأيت التواضع في أصدق معانيه، فقد كان قمة عالية وقامة شامخة، وكان أكبر من أن تحتويه هالة، أو تضمه شاشة، أو يجذبه ميكروفون، أو تستهويه صورة"[1]

د- يسري عبد الخالق خضر

"مَهْما قلَّبَتْ طَرْفَكَ في أُدباءِ العربيَّةِ في النِّصفِ الثاني من القرنِ العِشرينَ مُتَوَخِّيًا أنْ تَجِدَ له نِدًّا أو عَديلًا في تنوُّعِ مَواهبِهِ، وغزارةِ نِتاجِهِ، وامتدادِ زَمانِ إبداعِهِ؛ فَسينقلبُ إليكَ البصرُ خاسئًا وهو حَسيرٌ؛ ذلك أنَّ الرَّجُلَ من القلائلِ الذينَ اجتمعتْ لهم مَواهبُ الشِّعرِ والنثرِ والنَّقدِ جميعًا، مُلْقِيَةً إليهِ يَدَ السَّلَمِ،

[1] - مجلة الأزهر عدد مارس 2011

فأبدعَ في الشِّعرِ بضربَيْهِ الغِنائيِّ والمسرحيِّ، وكتبَ النَّثرَ بضربَيْهِ الفنِّيِّ والتَّأليفيِّ، وأسهمَ في النَّقدِ الأدبيِّ بما يَكادُ يُغطِّي عُصورَ العربيَّةِ منذُ العصرِ الجاهليِّ حتَّى العصرِ الحديثِ، بلْ يمتدُّ في فَضاءاتِ الأدبِ المقارنِ مَشْرقًا ومَغْربًا. وقدْ تفجَّرتْ يَنابيعُ تلكَ المواهبِ بسيلٍ جرَّارٍ من النِّتاجِ العِلميِّ الرَّصينِ الذي يَرْبو على سبعينَ كتابًا، وما أظنُّ مَقالاتِه إلَّا تَتجاوز الألفَ. ولم يكنِ الرَّجُلُ ممَّنْ أعطَى قَليلًا وأكْدَى، بل ظلَّ نَهرُ عَطائِهِ مُتدفِّقًا على مدارِ أكثرَ منْ سَبعةِ عُقودٍ؛ إذْ كتبَ أوَّلَ مَقالاته في مجلةِ الرِّسالَةِ عام 1940م، وهو في السَّابعةَ عشرةَ من عُمرِهِ، وظلَّ مُمْسكًا بقلمِهِ حتَّى لحقَ بربِّه عام 2011م وهو في خواتيمِ العقدِ التاسعِ من عُمُرِه، وكلُّ أولئكَ مما يعزُّ نظيرُه، ويندرُ مثيلُه، فَما أحْراه بقولِ أبي الطيِّبِ:

ذُكِرَ الأَنَامُ لَنَا، فَكَانَ قَصِيدَةً *** كُنْتَ البَدِيعَ الفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا"

د/ مصطفى السواحلي

إذا كَانَ الجَاحِظ لم يَتكَررْ في تُرَاثنا، فإن البيوميّ لنْ يتكرر في زمَانِنا، إنَّه البَحرُ الأطمُّ والعَلمُ الأشمُّ الذي ترك ميراثاً هائلاً وفكراً طائلاً من الفكر الأدبي والإبداع الشعري والمقال الإسلامِيّ، لهُ أسلوبٌ فريدٌ ونمطٌ عجيبٌ يجمع بين رصَانةِ العبارة، وجَمَالِ الإشَارَةِ، ورَوعَةِ الدِّيبَاجَة، وارتِقَاءِ الفكرةِ ونَضَارةِ الخَطرَةِ، أوْغَلَ في العلمِ والفكرِ والأدبِ حتى نَالَ منه نَصِيباً مَوْفُوراً وقِسْطاً غَزِيرَاً، وتَمَرَّسَ بفنون اللغة وأساليبها، وتَحَنَّكَ

بتُراثِ الأُمَمِ وآدابهَا، يَسِيحُ يَرَاعُهُ نَهْرَاً جَارِياً بالفكرة السَّامِيَةِ، ويتجددُ إبداعهُ نَبْعَاً مُتَدَفِقاً بالمعاني العَاليةِ، لم يقفْ عند لونٍ فني واحدٍ، وإنما تَنَقَّل بينَ فنونِ اللغَةِ والأَدَبِ، وجَمَعَ بينَ الأَخْبَارِ والنَّوَادِرِ والسِّيَرِ والتَّراجِمِ الَّتِي لا يَمتلك المُتلَقِّي حِيَالَهَا سوى المُتعةِ الفنيةِ والرَّوعةِ الإِبْدَاعِيةِ، يُحبر لفظَهُ وينتقِي كَلِمَهُ حتى يَخْرُجَ في بناءٍ فنِّي ولونٍ إبداعيٍ، كانَ رحِمَهُ الله شَوْكَةً فِي عَيْنِ كُلِّ مَارِقٍ مِنَ الدِّين حَاقدٍ على الإِسْلام والمُسلمين مِنَ المُتغَرِّبين والمُسْتَشْرِقين، فتترَّسَ بالفكرِ الإِسْلاميّ والدِّين الوسطيّ، ووقفَ سداً مَنِيعَاً يَحُولُ دُونَ مُرُوجِ مَفَاهِيْمِهِم الضَّالةِ ونَظَريّاتِهم المُنْحَرِفَةِ، ولا تَزَالُ رُدُوده القويةُ غُصَةً في صُدورِهِم ومَرارةً في نُفُوسِهم، بِمَا يَمْلِكُهُ مِنْ عُمْقِ الفَهْمِ وسَلَامَةِ الذَّوقِ وحُسْنِ الرُّؤْيَةِ وإِقَامَةِ الحُجَّة، وتفسِيرِ مَا يَطْرَحُونَه مِن آرَاء فكريةٍ وقضَايَا دينيّة، فاتَّخَذَ مَوْقِفاً وَاضِحَاً مِنْهَا فَقَدّمَ البَرَاهِينَ السَّاطِعَةَ، والدلالاتِ القَاطِعَةَ، ومَا يَمْلِكُهُ مِنْ رُقِيّ فِكْرِيٍّ وفَهْم عَقْلِيٍّ وعِلْمٍ مَوْسُوعِيّ وَإِرْثٍ ثَقَافِي يَمْنحهُ قُدرْةً حِجَاجِية ورَوعَة إقنَاعَيّة.

د/ أسامة شكري العدوي

"ومع كل هذا أشهد أنه لم يأخذ حظه بالمقارنة إلى كثيرين جدا ممن هم دونه قيمة وقامة وقدرا وعلما وعملا وفضلا، فلم يفز مثلا بجائزة الدولة التقديرية في الآداب مع إنه تجاوز بمراحل كثيرين ممن فازوا بها كما لم يحظ بعضوية مجمع اللغة العربية وهو من هو فهما لدقائق العربية وأسرارها وبلاغة وبيان كنوز تراثها من القديم والمعاصر والحديث. بل إن إدارة مجلة «الأزهر» دأبت بتعليمات مشددة منه رحمة الله عليه على رفض نشر أية مقالات

حوله أو حول أدبه وكتبه، ظنا منه أن هذا ربما يدخل تحت ف باستغلال النفوذ لكونه رئيسا هذه المجلة العريقة"

د- محمد فتحي بيومي

" شيخنا الجليل محمد رجب البيومي من الشخصيات المعاصرة كبيرة القدر التي تزخر بكثير من المعارف والفنون، فقد زخرت حياته بكثير من الأعمال الجليلة، وتنوعت ألوان المعارف في شخصيته الموسوعية المنعوتة بكثير من الألقاب الحقيقية، فهو على سبيل الحقيقة لا المجاز "أديب المؤرخين ومؤرخ الأدباء وأستاذ الأجيال وأستاذ الكل ورائد الدراسات الحديثة وأديب الأزهر ومؤرخه وعميد الأدب العربي الحديث ومنصف الحضارة الإسلامية والتاريخ العربي والأديب المحافظ". و"الأستاذ الأكبر"؛ وهو اللقب الذي أطلقتُه عليه منذ عرفته وصحبته، وإن كان هو لا يعبأ بمثل هذه الألقاب، ولا يلتفت إليها، بل لا يرتضيها، ويراها في كثير من الأحايين ضرباً من عبث الشباب المبني على العاطفة، ولا شك عند كل منصف أنه يستحق تلك الألقاب عن جدارة كاملة."

د- علي زين العابدين الحسيني

"عشت سنين طويلة مع الفقيد في كتبه ومقالاته، وكنت لا أسمع عن كتاب له، إلا سعيت لاقتنائه، ولا عن مقال له في أي مجلة أو صحيفة إلا سارعت لقراءته، لأن الرجل طراز وحده فيما يكتب... أقول رغم ذلك، لم أشرف بلقائه وجها لوجه إلا مرة واحدة، كان الدكتور البيومي زاهدا في حطام الدنيا، عازفا عن المناصب والشهرة، يجد متعته بين

كتبه، وخلوته، وكان لا يحب الأضواء، كما كان متصالحا مع نفسه يغلب عليه الهدوء والرضا، فإن من الصفات التي كانت تميزه مثل الوفاء لا يمكن أن نغفلها، كما كان لا يحب استغلال النفوذ والسلطان، فقد كان – كما عرف عنه أثناء فترة رئاسته لتحرير مجلة الأزهر – يتحاشى نشر أي دراسة عنه أو عن أدبه وفكره، وكان يحذّر من ذلك.

سبعون عاما من العطاء قضاها الدكتور البيومي، كانت الكتابة والتأليف هاجسه الأول، وكان يلتزم الحق في آرائه وكتاباته، وحتى لا يشغب البعض على ما ينتقد على الفقيد في بعض آرائه، وبعض ما كان يذهب إليه، فأنا أعرف عنه أنه هادئ الطبع، ميال للهدوء، يبرر كل خطأ لأي أحد! وهذه طباع المتصالحين مع أنفسهم، الذين يلفهم الهدوء والانسجام النفسي، وراحة البال، وأنه كان يحب الفكر الصوفي، والمتصوفة، وله ثناء على الكثير ممن له أفكار صوفية صادمة... أقول أنا أعرف عنه ذلك، ولا يدفعني ذلك لأن أترك ما عند الرجل من أدب وعلم وآراء سديدة... فإنه بحق كاتب موهوب غزير الإنتاج عميق الفكرة متين الأسلوب دقيق المعالجة، له قاعدة كبيرة من صفوة القراء والمثقفين الذين يجعلون كتاباته ومؤلفاته مراجع لبحوثهم وكتاباتهم."

الباحث- ربيع عبد الرؤوف الزواوي

"الدكتور محمد رجب البيومي من عمالقة الفكر، وسدنة الخلق، فهو الأديب المفكر، والداعية المصلح، والأزهري المجدد. ولئن اشتهر بين الناس أن الشيخ محمد الغزالي هو أديب الدعاة أو داعية الأدباء، يستحق عن جدارة أن نطلق عليه لقب: أديب المفكرين أو

مفكر الأدباء، تعددت الدراسات التي قدَّمت الدكتور البيومي باعتباره أديبًا، وشاعرًا، وناقدًا، صهر ملكاته الأدبية في خدمة قضايا الأمة، وسخَّر قلمه السيال للدفاع عن حماها، والانتصار لضعفائها، وحرَّك المشاعر الإنسانية نحو الخير والفضيلة، ونشر جهودًا لأعلام كبار كاد أن يطويهم النسيان، وتسامت كلماته لتصف الواقع دون مجاملة أو إجحاف، وصدع بكلمة الحق غير هياب لما تجر عليه من متاعب، واصطحب قارئه في رحلات متعددة إلى الماضي القريب، لا لتيئيسه من الواقع المعيش، ولكن لحثه الاعتزاز بذاته في محاولة لاسترجاع القيم النبيلة التي مالت عليها منتجات الحضارة الحديثة."[1]

د- علي عبد العظيم

"غفر الله له - كاتب مطبوع يستهويك بسحر بيانه، وحلو حديثه وغزارة لغته وخصوبتها تلك اللغة التي تتفوق بالسلاسة العذبة، مع رقة التصوير، لذا تأخذك بدون سأم ولا ملل، فإذا ما بدأت معه القراءة في الصفحة الأولى من كتاب فإنك لا تتركه حتى تنتهي معه إلى الصفحة الأخيرة دون انقطاع. إن اللغة لا تخذل أستاذنا أبدا بل تسعفه ببيانها المتجدد دوماً حتى حين يعرض المشكل والملبس من القضايا والتي تقبل الأخذ والرد ، والقبول والرفض ، إذ يعبر عنها على نحو يملأ عقلك بالتفكير الرفيع ، معتمداً على الطبع المرسل ، وتراك وأنت تبصره مثيرا مدهشاً وذلك حين يحيي جمود الفكرة بالعاطفة المتوهجة، وحين يحيي صور الحقيقة بالخيال المحلق ، وحين يسوق الأدلة والعلل لما يقتنع به

[1] - أزهريون على طريق الإصلاح- إعداد د- علي عبد العظيم.

ذلك أنه جدلي دامغ الحجة، ساطع البرهان، بحيث يجد القارى نفسه ماخوذا من هذا الأسلوب المنطقي المضيء المشرق الذي يلجم ويفحم في إقناع وإمتاع"

الدكتور الوصيف هلال الوصيف

"رحل محمد رجب البيومي إلى رحمة الله، تاركا وراءه من الآثار العلمية والأدبية ما يخدم به وطنه وأمته وهو تحت التراب، وما يثيبه الله عليه نتيجة إخلاصه ودفاعه عن الوطن والأمة والدين، وثقتنا في الله كبيرة أنه سيحصل على جائزة كبرى، أكبر من جوائز الدولة وغيره"

الدكتور حلمي محمد القاعود

مقدمة

بقلم المفكر الكبير د/ إبراهيم عوض

شمر أ. حاتم سلامة عن ساعد الجد والحب والإعجاب؛ فوضع هذا الكتاب الجميل الذى خصصه لمسيرة د. محمد رجب البيومي رحمه الله ووصف شخصيته المتواضعة المفعمة بالعلم والأدب والشعر وحب الإسلام ولغة القرآن. وقد استمتعت بالكتاب لأكثر من سبب، فأنا أحب د. البيومي حبًا شديدًا من خلال كتاباته التي قرأتها له وأسلوبه البديع، ومن خلال ما سمعته عنه من معارفه وتلاميذه وزملائه، ومن خلال ما قرأته من سيرة حياته الممتعة وما فيها من حيوية وشجن وعجائب لم أتوقع أن تكون جزءًا من حياة الأستاذ الدكتور، بالإضافة إلى أن الرجل الكريم قد ذكرني بكلمة طيبة في بعض ما كتب حين قابلت بالمصادفة المحضة منذ وقت طويل واحداً من طلابه الكبار فأعطيته بعض كتبي اتباعًا لما كنت وما زلت أسمعه من أن العلم رحم بين أهله. وها أنا ذا أزداد حبا للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي من خلال هذا الكتاب الجميل الذي وضعه الصديق أ. حاتم سلامة، فقد كتبه بروح الحب والإعجاب والإجلال، وهو ما يستأهله د. البيومي وزيادة. ويحق للأستاذ الكاتب أن ننوه هنا بما يقال في مثل هذا السياق من أنه لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

وفى الكتاب كثير من الأمور التي لا يعرفها كثيرون منا عن الأستاذ الدكتور مما نقب عنه أ. حاتم سلامة في المظان المختلفة واقتطفها وقدمها لنا كما يقدم المحب لمن يحبه طاقة

من الأزهار الزكية الناضرة البديعة. ويزيد من أهمية الكتاب الذى بين أيدينا أن الضباع اللئيمة العميلة بُعِثَتْ من مخابئها الآن لنهش الإسلام ظنًا من المعلِّمين القوادين أن هذه فرصة لا تعوض ولا تتكرر لضرب الدين العبقري العظيم الذى جاء به سيد ولد آدم وسيد الأنبياء، وهيهات.

ذلك أن د. البيومي كان أحد المنافحين الأشاوس عن هذا الدين وعن اللغة التي نزل بها الكتاب الخاص بذلك الدين. فصدور مثل هذا الكتاب من شأنه بث الرغبة في تملِّي المثل العليا لدى الشباب الكريم الذي لا يعرف الانحراف عن دينه ولا الانجراف أمام الجرافات الشيطانية التي تريد أن تدوس وتهرس كل ما يقابلها من أشياء تتعلق بالإسلام.

كما نلاحظ هذه الأيام أن كثيرا ممن يتعاملون مع (الفيس بوك) من أبناء العرب والمسلمين بما فيهم طلاب الجامعة بل وخريجوها وأساتذتها كذلك يكتبون ما يريدون بالعامية. وقد كان د. البيومي هنا أيضا ممن بذلوا قلمهم وعقلهم وعاطفتهم في سبيل الدفاع عن الإسلام وعن العربية الكريمة بكل حب وتحمس ونضال.. ولْأُعْطي القارئ واحدة مما يعج به هذا الكتاب من غرائب وعجائب في غاية اللطف والطرافة. فقد كنت قرأت في سيرة د. البيومي أنه كان بينه وهو -لا يزال في مرحلة طلب العلم- وبين فتاة من أسرة كريمة من الإسكندرية نوع من الحب تباركه الأم المتعلمة صاحبة المنصب العالي، التي كانت -حسبما أذكر- تريد أن يتوجه الزواج، لكن البيومي الشاب تقهقر ولم يتم شيء مما كان منتظرا. وقد شعرت وأنا أقرأ هذا الكلام بخيبة الأمل وعاتبته فيما بيني وبين نفسى، بعدما مات طبعا رحمه الله لأنى قرأت تلك السيرة منذ سنة أو سنتين. فوجدت في الكتاب

الحالي أيضا أنه كانت بينه وبين أميرة إيرانية مراسلات أدبية وربما غير أدبية. وذكر أ. حاتم سلامة أن بعض المجلات قد عرضت على د. البيومي مبلغًا دولاريًا خرافيا تذهل له العقول لقاء إعطائهم الرسائل بغية نشرها، لكنه رفض رفضا صارما، وأنتهز هذه الفرصة وأطلب ممن يحبون التنقيب من الكُتَّاب والصحفيين البحث عن تلك الخطابات والعمل على نشرها بعدما انتهت الحساسية التي كان من الممكن أن تثيرها في حياة بطليها. ويا ليته يكون أ. حاتم سلامة نفسه.

وفي الكتاب مواقف من حياة د. البيومي في بيته وعمله ترينا جوانب في شخصية الرجل عجيبة. من ذلك أن المسؤول الإداري في كلية اللغة العربية الأزهرية بالمنصورة وقَّع على أحد الفراشين عقوبة لتراخيه في تنظيف غرفة المحاضرة، فاستغاث العامل المعاقَب بعميد الكلية، الذى لم يكن سوى د. البيومي نفسه، فما كان منه إلا أن قال للمدير موقِّع العقوبة إن العامل ربما ترك التراب تحسبا لمن يريد من الطلاب أو الأساتذة أن يتيمم للصلاة، وانتهى أمر العقاب عند هذا الحد، أرأى أحد منا ظرفا كهذا في توجيه إهمال العامل والدفاع عنه؟

والآن وأنا أكتب هذه الكلمة السريعة قد تذكرت أنني تعرضت لبعض ما كتبه د. البيومي تعرض المخالف، إذ لما صدرت ترجمة جاك بيرك الفرنسية للقرآن في أواخر القرن المنصرم كلف الأزهر الأستاذ الدكتور بتأليف كتاب عن تلك الترجمة، وهو ما فعله ونشرته له دار الهلال بعنوان "إعادة قراءة القرآن- الدكتور محمد رجب البيومي يرد على جاك بيرك"، وخلال قراءتي ذلك الكتاب أخذت على الأستاذ الدكتور -رغم تقديري له- أنه قد

مدح ترجمة المستشرق السويسري "إدوار مونتيه القرآنية" الفرنسية قائلا إنها أحسن الترجمات الفرنسية للقرآن وأوفاها وأكثر انطباقا على الأصل، وهو ما وجدت الشيخ رشيد رضا قد قاله من قبل ذلك خلال تفسيره للقرآن مع أن ترجمة مونتيه تعج بالمصائب والأخطاء الفاحشة حسبما بينت في الفصلين اللذين خصصتهما لمونتيه من كتابي: "المستشرقون والقرآن". كما اختلفت معه، طيب الله ثراه، في ثنائه على ترجمة د. وائل غالي شكري للبحث الذى ألحقه جاك بيرك بترجمته المشار إليها بأنها واضحة ودقيقة مع أنها أبعد ما تكون عن الوضوح والدقة واستقامة العبارة، إذ الركاكة والعجز عن الإبانة فيها هي سيدة الموقف. وهذا كله مسجل في كتابي: "ترجمة جاك بيرك للقرآن الكريم بين المادحين والقادحين" لمن يبغي الاطلاع عليه.

كما اختلفت مع د. البيومي بشأن الدكاترة زكي مبارك في قوله عنه إنه صرح بأنه أخذ مالا من أحمد شوقي ليكتب عنه كلاما طيبا فيما ينشئه من موازنات أدبية. وسر اختلافي معه حول تلك النقطة أن د. البيومي لم يحاول أن يذكر لنا المرجع الذى يمكن أن نقرأ فيه تصريح زكي مبارك الغريب ولا وجدته أنا في أي من كتابات زكي مبارك مع تنقيبي طويلا عنه بل وجدت عكس هذا الاتهام، إذ ذكر الدكاترة زكي مبارك أن شوقي طلب إليه أن يكتب مقدمة لديوانه فاعتذر له عن ذلك، وهو ما أخذه عليه د. طه حسين. وثم موضوع آخر اختلفت فيه مع د. البيومي يتصل بزكي مبارك أيضا وبمستطاع القراء أن يطالعوه في كتابي: "الأسلوب هو الرجل- شخصية زكي مبارك من خلال أسلوبه". والعجيب أني لم ألحظ أن في قلب د. البيومي أي اضطغان على زكي مبارك رغم ذلك.

هذه كلمة سريعة كتبتها تحية للكتاب الذى بين أيدينا ولصاحبه أ. حاتم سلامة، الذى جعلني أزداد حبًا للدكتور محمد رجب البيومي على حبى القديم الراسخ له في قلبي لما سمعته مرارًا عن بساطة شخصيته وتواضعه الكبير وصفاء نفسه، وما خبرته من جمال أسلوبه ونقائه وسلاسته ووضوح فكره وسعة علمه وتنوع ميادين إبداعه، ما بين شعر وسِيَرٍ ونقد وأدب ودفاع عن الإسلام العبقري ونبيه العظيم وتاريخه المجيد ورجالاته النبلاء وعلماء الأزهر الشريف.

مقدمة

العلامة الجليل الأستاذ الدكتور محمد شادي
أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

سعدت جدا بما كتبه الأستاذ حاتم سلامة عن شيخي العلامة ا.د محمد رجب البيومي رحمه الله. ومن الواضح أن الأستاذ سلامة صاحب قلم سيال ورصين. وأنه من مدرسة الأسلوب الراقي التي ينتمي إليها شيخنا. هي مدرسة اين العميد وأحمد حسن الزيات والمنفلوطي ولا أقول المدرسة البيانية لما التصق ظلما بهذه المدرسة من تهمة اللفظية.

ومع أني من الذين نالوا شرف التلمذة على يد هذا الأديب الفذ (البيومي) فإني مقصر في الكتابة عنه والتنويه بما يستحقه. ويلازمني إحساس عنيف بالتقصير. وفكرت عدة مرات في هذا الأمر ولا يصرفني عنه إلا شاغل ما من الشواغل الملحة. الخاصة أو العامة. دون أن تصرفني عن الفكرة القابعة في وجداني وعقلي حتى وقعت عيني على ذلك الكتاب. (فارس القلم) للأستاذ حاتم سلامة

ورأيت أنه بارك الله فيه لم يترك لي شيئا أقوله عن شيخي رحمه الله. فلقد أماط اللثام عن كثير من الجوانب الفكرية والأدبية والإنسانية في حياة العلامة الناقد والأديب الشاعر والمثقف الملهم.

ولايفوتني التنويه بمقدمة الكتاب للدكتور إبراهيم عوض الذي لم يمنع حبه لشيحنا من مخالفته والاستدراك عليه فيما يطمئن إليه بعد البحث والتدقيق.

وهذا يذكرني بلقاءات لي مع شيخي. كان يشجعني ببشاشته وتواضعه وأنسه على إبداء بعض ما أراه في مقالاته وكتبه. وكان يستقبل ماأراه بابتسامة راضية وسرور بما يسمعه من تلميذ له. وهذا شأن الأساتذه الكبار أصحاب الرسالات. رحمه الله تعالى وأسكنه الفردوس الأعلى.

مقدمة المؤلف

في حياتنا أعلام كبار أناروا الدنيا بآرائهم وأفكارهم، فكانوا مصابيح هدى، ومشاعل نور، تجلي الحقائق، وتوعي الأفهام، وتبصر العقول، وتنصر الفضيلة، وتؤيد القيم، وتعزز الهوية، وتحمل الرسالة، وتؤكد مسار الأخلاق بوعي وفطنة وعلم وبصيرة.

وكان الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي رحمه الله، واحدًا من هؤلاء العباقرة الأفذاذ، الذين تركوا بصماتهم القوية في مسرح الحياة علمًا وتوجيها وفكرًا وثقافة وإصلاحًا، ورغم أنه كان ينأى بنفسه عن دائرة الضوء، إلا أن قلمه وفكره وعلمه ملأ الدنيا وشغل الأذهان، فتعددت كتاباته ومقالاته التي احتلت مكانتها المرموقة في أروقة الثقافة وميادين المعرفة، تعلن عن نفسها وتبرز من هويتها الدينية، والتزامها بقيم الإسلام والغيرة عليه والدفاع عنه.

تناولتْ آراء البيومي ومقالاته كثيرًا من مظاهر الحياة، ولم تترك شيئاً مما يؤرق حياة الناس ويعانيه المجتمع من المشكلات والعقبات، إلا وأعملت فيها القلم بصراحة وقوة، واضعًا يده على أسباب الداء، مشخصًا لكثير منها سبل العلاج، حتى عد قلمه من هذه الناحية من منابر الإصلاح القوية في المجتمع.

لم يكن البيومي كعالم وأديب وباحث كبير، قد شغله البحث في قضايا أمته ومحنة مجتمعه، وإنما قام بدوره المنوط به كعالم من علماء الأزهر الكبار، مسموعي الكلمة وجيهي الرأي والنظر والعقل، فكان لا بد له أن يخوض معترك الحياة على الوجوه كافة، ولعلنا

نلمس أن البيومي لم يدخل في هذا الإطار بقوة، إلا حينما توفر له باب مكين في الصحف، فصارت له مقالاته الأسبوعية في جريدة صوت الأزهر، وكذلك حينما رَأَس تحرير مجلة الأزهر، والتي كانت فترة ريادته لها من أثمر فتراتها، وأزهى مراحلها، بعد جيل السابقين من الأعلام الكبار، لقد بدأت مقالات البيومي من وجهتها الإصلاحية والفكرية تظهر بقوة، ويكون لها دويها وموضوعاتها الجريئة التي يعلنها في سطورها.

لم ينكفئ البيومي على مجاله وتخصصه كأستاذ للغة والأدب، وإنما كان صوت العالم الأزهري المدوي في ساحة الفكر، بما يملي عليه واجبه كعالم مرموق من علماء الأزهر، كانت له قدمه الراسخة في كل الفنون العلمية دينا ولغة وفكرا، ومن ثم تعددت وتنوعت النظرة إلى عقلية الدكتور البيومي وقدراته وعطائه، فإذا أردته أديبًا؛ فهو على أوفى ما يكون الأدب والشعر والنقد والإبداع، وإذا أردته مفكرًا؛ فهو الذروة في الفكر والرأي المصلح القويم، وإذا أردته عالماً دينياً فهو القمة في تناول الآراء الدينية ونظر الشريعة.

وكان البيومي وعبر قلمه المهول الكبير، يرى أن من أوجب واجباته أن يتصدى للانحراف الفكري، الذي يحارب الهوية والدين والمعتقد، تحت مسميات خادعة براقة، تنزل أصحابها في غير مواقعهم الصحيحة، وفي الوقت الذي كانوا يتلاعبون فيه بالألفاظ فينسبون أنفسهم إلى التنوير والحداثة والتقديمة، فقد وقف البيومي بقلمه ليفضح هذا الإفك ويكشف الحقيقة، ويؤكد بثقة العالم المؤمن أن التنوير الحقيقي يصدر من مشكاة القرآن، وأن هذا هو اعتقاد المصري المسلم الذي يدفع الضرائب من عرق جبينه لتكون مما يأخذه دعاة التدهور والسقوط حين يجلسون في مقاعد الوظائف، لا ليخدموا الأمة، بل ليفتحوا عليها نوافذ النيران.

قرأت له رحمه الله في كتاب قضايا إسلامية قوله: "ولعل من الواجب علينا أن نؤرخ لدعاة الفضيلة ليكونوا مجال قدوة حسنة للناشئين في وقت ظهرت فيه مئات الكتب عن أدعياء التقدم من المتسلطين".

وإذا كان هناك من نكتب عنه ونحكي سيرته ونذكر أمره، فليس أجدر من هذا الفارس المغوار بل الدرع الصلبة في الدفاع عن الإسلام والتصدي لخصومه، وكم سهرت كثيرًا مع ما تركه من كتابات مضيئة، شكلت وحدها ثروة هائلة للمكتبة الإسلامية والأدبية والعلمية، وكنت على التحديد أتحسس غيرته في مواقف الجد، وأفتش عن هباته الثائرة في وجوه الخصوم، لأجلي صورة العالم الجسور الذي لم يهادن أو يسالم أو يتخاذل عن نصرة دينه، ولم يتخل عن واجبه الذي أنيط به كعالم من علماء الأزهر الكبار، في الرد على خصوم الإسلام والكيد لأكاذيبهم وافتراءاتهم التي ألصقوها به في كل جانب، وحينما كانت هذه التهم تتقاذف الإسلام من كل الجهات، لم يعدم العلامة البيومي الذي يرقى كما قيل عنه ودون مبالغة إلى مرتبة العملاق، لم يعدم أن يرد عليها ويكشف زيفها، ويجلي عوارها، وينبئ عن غرض أصحابها، فكان حاضرا بقوة في كل ميدان علمي يرد الحجة بالحجة، ويدفع البرهان بالبرهان، منتصرا للإسلام داحرا للخصوم، ففي اللغة والأدب والدين والتاريخ والفلسفة والفقه والعلوم كافة؛ التي حاول الجاحدون المتربصون بالإسلام أن يركبوا شططها، كان يقف في وجههم كابحًا لجماحهم منتصرا لعقيدته ودينه وأزهره.

لقد كان البيومي نفسًا وروحًا رقيق الحال والوصف والذات، وكنتَ تلمس الأدب الجم والخلق الرفيع في حياته الخاصة ومن عبير قلمه وكتاباته، لكنه أمام الهدوء والأدب، كنت تجده كالعاصفة المدوية والرعد القاصف، إذا ما اضطرته الظروف إلى النزال والمعركة من أجل

الإسلام، فتراه يشتد في كثير المواقف والمعارك، ليُلهب ظهور المرقة وقرائحهم بما لم ينسوه أبدا من زلزال البيان الذي جسد سياط الحق.

ولعلي ممن لم تساعدهم الظروف أن يقتربوا أو يتعرفوا على العالم العملاق عن قرب، فلم يكن لي به علاقة أو معرفة، رغم معاصرتي له في عقوده المتأخرة، لكنني أعد نفسي من تلاميذه المقربين، الذين ارتبطوا به روحيًا وتلقوا علمهم وثقافتهم ووعيهم على كتبه ومصنفاته، بل إن مما أفتخر به ولا أنساه أبدا أن كل ما يربطني به من العلاقة الواقعية، تمثلت في مكالمة هاتفية على مدار ثلث ساعة أو أكثر، وكنت وقتها شابًا في مقتبل العمر حديث التخرج في كلية أصول الدين الأزهرية، أعمل في الصحافة والإعلام، وكلفني يوما ما رئيس التحرير أستاذي (بدر محمد بدر) بتحقيق صحفي في قضية اجتماعية كانت تشغل الرأي العام وقتها، وأعطاني هواتف بعض المتخصصين في كل مجال حتى أنقل آراءهم بعد الاتصال بهم، كان ذلك عام 2006م واتصلت بالعلامة الراحل د. محمد رجب البيومي الذي لم أكن أدرك قيمته كما أدركها اليوم، وآسف لهذا الجهل السحيق من نفسي به، فرحب بي حينما اتصلت به ترحيب قريب أو حبيب، وعرضت عليه السؤال وكان سؤالًا فقهيا، فأجاب رضي الله عنه بكل هدوء واتزان ورقة في الصوت ما أجملها، وما زال صوته ووقع كلماته يرن في أذني إلى اليوم لا أنساه، وأفتخر كثيرا أنني كلمته وهاتفته في يوم من الأيام، وكان لي معه شأن في أمر من الأمور، فرحمة الله عليه وغفر له وطيب ثراه ونفع بتراثه وعلمه.

وأنا اليوم أقدم هذا الجهد المتواضع في صفحة من صفحات هذا العملاق، بل تعد أخطر ميادينه التي كان له فيها قدم راسخة، ربما ينساها أو يتناساها كثير من تلامذته ومحبيه الذين

تتلمذوا على يديه في تخصصه الأدبي واللغوي، ومن هنا كان لا بد من إبراز جهوده وخدماته التي قدمها في دفاعه عن الإسلام ضد خصومه والحاقدين عليه.

حاتم إبراهيم سلامة
salama227@gmail.com

النشأة الدينية

ولد العلامة الراحل دكتور (محمد رجب البيومي) في أول أكتوبر سنة 1923م في الكفر الجديد مركز المنزلة من محافظة الدقهلية شمال دلتا مصر، لأسرة شديدة التمسك بالدين والأخلاق وعفة اللسان، فوالده هو الشيخ (أحمد البيومي الشهاوي) الذي عرف برجل المسجد وحب آل البيت رضي الله عنهم، والمحافظة على شعائر الدين، وكان يعمل تاجرًا للقماش بالقرية، ولكنه كان يقضي معظم أوقاته في المسجد فيأخذ منه أكثر مما يأخذ متجره وتجارته، ومن هذا الوالد جاءت النشأة الدينية للابن محمد، وأضفت عليه كثيرًا من معالم التكوين، فطالما نصحه وأرشده ووجهه الوجهة الدينية الصحيحة.

قيض الله لهذ العالم الجليل أن ينشأ في بيئة يشوبها التدين والعلم والصلاح والتقوى، في ظل والد عابد خاشع تقي عارف، يحرص على تربية ولده تربية إيمانية ربانية صالحة، وكذلك كانت الأم حافظة للقرآن الكريم، يرجع إليها الفضل في تحفيظ ولدها للقرآن كله، وكانت ترشده إلى الصواب وتبصره بالخطأ، وتعلمه ما يجب وما يجوز، وقد جاءت لمحات يسيرة عنها في ذكره لنشأته، ولكنها لم تكن بإسهاب كما كان لوالده، إلا أن تلك اللمحات اليسيرة، قد دلت بقوة على تقواها وحكمتها التربوية، وارتباطها القوي بكتاب الله سبحانه، وهو ما انعكس بقوة على طبيعة وتكوين ولدها.

وإنك لتشعر بعظم هذا الوالد، حينما يحكي عنه ولده، ويسترجع لنا ذكرياته، وانطباعه عنه ورؤيته له، بل تشعر بهذا السر الكبير الذي يزيل الغرابة أن تكون مثل هذه

البيئة نتاجها وثمرتها، عالم صالح وولد مبارك، كان له شأنه المذكور في دنيا العلم والعلماء، وعالم الكتابة والقلم ونصرة الإسلام.

إن ولده يصفه بأنه الأب الحاني والرجل المؤمن كأحسن ما يكون المؤمن، لا يبرح تفكيره أمر الله ونهيه، فهو يهتدي في كل حركة بما يعلم من قول الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يخلص إلى صورته العامة بين الناس التي أهلتها وكونتها هذه الطريقة التي سار عليها والده، والمنهج الذي ألزم به نفسه في حياته، فقد أورثه ذلك مهابة واعتزازًا لدى الناس في قريتهم، وصار موضع الأمانة، يحفظ الناس عنده حوائجهم وودائعهم، كأنه بنك رسمي (حسب وصف ولده).

كان هذا الوالد كما يصفونه بأنه رجل المسجد، وقد جاء هذا الوصف أقرب ما يعبر عنه لما كان عليه حاله من تعلق بالمسجد، فقد كان تاجرا، يعمل في دكانه، إلا أنه لم يسمح للتجارة أبدا أن تثنيه عن حبه وتعلقه بالمسجد، وفي الوقت الذي كانت التجارة تلهي أصحابها، وتغرقهم في متعلقاتها وشواغلها، إلا أن هذا التاجر اليقظ، لم يسمح للتجارة قط أن تلهيه عن محبة المسجد، الذي كان يأخذ من وقته أكثر مما كان يأخذ منه حانوته، حتى أن من كان يريد لقاءه يذهب إليه في المسجد.

وكان إذا أراد أن يختبر ولده في حفظ القرآن الكريم، يصطحبه إلى المسجد.

بل كان مما يوصي به ولده أن يقبل على القرآن وإذا أراد أن يذاكر دروسه في أي علم من العلوم فعليه أن يبدأ بقراءة سورة من القرآن الكريم، لتفتح عليه وتسهل ما صعب وتعسر من المسائل.

ومن خلال هذه الوصية، ومن خلال مبادرته بتسميع ولده أجزاء القرآن عليه في المسجد، ندرك ارتباط هذا الوالد بالقرآن الكريم كما كان يرتبط بالمسجد.

وكان من شدة تدينه وخشيته لله وتعامله التجاري بما يجب على المسلم أن يكون، التقى ولده محمد يوما بأحد الأهالي من قريته والذي كان يعمل بالحياكة وذلك بعد رحيل والده فأخبره بقوله: "كنت إذا جاءتني قطعة قماش للتفصيل، ووجدتها تزيد عن المقاس الطبيعي، أعرف أنها مشتراة من محل والدك، دون أن أسأل صاحبها، لأن أباك كان يقيس القماش ويلفه على المتر من الناحيتين، ليتأكد من استيفاء المشتري حقه دون نقص، فكانت هذه الزيادة تأتي من تتابع الطيات، وقال الرجل: لم أعهد ذلك أيضا في تاجر مثل أبيك".[1]

كان الفتى الصغير يرى هذا الوالد الرباني ينهض إلى الصلاة قبل الفجر، وتشجعه أمه الحكيمة التقية على مصاحبة أبيه للصلاة في المسجد صيفًا وشتاء، مهما تدفق المطر هاطلا، ومهما كان الظلام دامسا في الطريق، وكان هذا الوالد إذا تخلف عمه الإمام لبعض شؤونه، يحل محله والده ويؤم المصلين ويقرأ القرآن، حتى أن ولده محمد حرص على أن يصلي وراءه يوم الجمعة ليسمع سورتي السجدة والدهر بصوته المؤثر، مما دعاه لحفظهما من

1 - ظلال من حياتي د- محمد رجب البيومي

إلقاء والده وتعود سماعه له، كما كان قنوته قمة في الخشوع، يُذهب عن المرء شروده في أمر الدنيا فلا يتذكر إلا أنه بين يدي ربه (كما يصفه ولده).

كان هذا الوالد يعطي الدروس الدينية في شهر رمضان المبارك، وكان مقصد الناس في الفتاوى ومسائل العلم، وكان يحب العلم ويعظم أهله، وحينما كبر محمد وصارت له مقالات في المجلات الأدبية، كان يرسل بعضها لوالده، ليقرأ ويتابع ما كتبه ابنه، فكانت روح التدين غالبة في حكمه على ما كتبه ولده، ويناقشه فيها ويبدي عليه ملاحظاته وآراءه التي كانت تنبع من عاطفته الدينية الشديدة، ففي إحدى الجلسات الهادئة مع ولده، وبعد أن قرأ كثيرًا من مقالاته الأدبية، قال له:

-يا ولدي أنت تكتب مقالات في الغزل في شعر المرأة، وإنجلترا في مرآة حافظ، والجن في منطق الأساطير، وشعر الرصافي والزهاوي، وهذا جيد، ولكن الأجود منه أن تكتب كتابًا يفيدك في الدنيا والآخرة.

فقال محمد:

- في أي موضوع تريد أن أكتب يا أبي؟

فقال الوالد:

- بدل أن تتحدث عن الرصافي والزهاوي وحافظ وشوقي، تحدث عن الأئمة الأربعة، فتزداد علمًا وفقهًا، ويدركك ثواب من الله سبحانه.

وهنا لم ينظر الابن الذي ترقى في مراتب التعليم، ونال من شهاداته مالم ينله ولده، لم ينظر بكبر أو اعتلاء، وإنما أخذ بنصيحة والده، واهتم برأيه واعتنى بقصده، فكانت هذه الكلمات هي الباعث له فيما بعد ليؤلف كتابًا مستقلا عن الإمام أحمد بن حنبل، في نسق أدبي يزيل به جفاف التراجم الفقهية، وحينما قدم الكتاب لوالده في أوائل الستينات، فرح به فرحة عارمة، وقام بشراء عدة نسخ من السوق، وجعل يهديها لمن يزوره في منزله من أحبابه، بل اتفق مع أحد أصفيائه من محبي العلم، أن يقرآ الكتاب معًا وينعما بفصوله.

افتتح العلامة الراحل رحمه الله حياته التعليمية بحفظ القرآن الكريم في كُتاب القرية، ثم المدرسة الإلزامية قبل العاشرة، ثم التحق بالصف الابتدائي في معهد دمياط الديني وهو في الثانية عشرة من عمره، وتنقل في مراحل التعليم الأزهري حتى حصل على الثانوية الأزهرية، ويتحدث عن ذلك فيقول: "حفظت القرآن الكريم وانتهيت من المدرسة الإلزامية قبل العاشرة من عمري، ولزمت متجر القماش مع والدي عامين قبل أن ألتحق بالأزهر، وفي المعهد الثانوي كنت أكتب في مجلة الرسالة والثقافة"[1]

بعد مسيرته العلمية الأولى في كتاب القرية والتحاقه بالأزهر؛ أرسله والده إلى القاهرة ليستكمل تعليمه العالي متعمقًا في الأدب العربي والدين والفقه، فيلتحق بكلية اللغة العربية ويتخرج فيها عام 1949م.

لم تكن هذه الأوصاف التي يسردها الدكتور البيومي عن والده وصفا بعيدا عن إشارات التربية والمواقف العملية التي يُعلم فيها فتاه ويُربيه تربية راشدة نقية، فقد دخل

[1] - مدرسة المسجد د- محمد رجب البيومي

المسجد يومًا بعد الصلاة الأولى للفجر ذات يوم، وكان وقتها طالبًا بالسنة الثانية في المعهد الديني، ورأى أحد الفقهاء يؤم الناس في صلاة الركعتين، ولم ينتبه إلى أن اليوم يوم جمعة فيقرأ سورة السجدة، ويسجد كالمعتاد، وأخذ يقرأ سورة أخرى، ولاحظ ذلك شيخ مسن من القرية، فنهض يعترض الإمام ويذكره بأن اليوم يوم الجمعة، وقال له:

- انوِ الصلاة من جديد واقرأ سورة السجدة. وأدرك الطالب الأزهري أن الصلاة صحيحة، ودعوة الإمام قطعها خطأ، وظل حتى انتهى الإمام وقال له:

-كان عليك ألا تقطع الصلاة، لأن قراءة السجدة سنة، ولا يقطع الفرض من أجل السنة. ولما سمع الشيخ المسن هذا الكلام غضب وشتمه، ولكنه تحداه مستجيبًا لعناد الصغار، حتى بلغ والده ذلك الخلاف فاستدعاه وقال له:

-إنك المخطئ حينما جابهت الرجل الكبير بخطئه أمام الناس وأحرجته، ومن حسن الأدب أن تترك المسألة تمر، فالصلاة أعيدت ولم يحدث ما يوجب بطلانها. وطلب منه والده أن يذهب إلى الشيخ المسن فيقبل يده، ويبدي له اعتذاره، وقال له:

- يا أحمق ألا تعرف ما يقوله العامة: الأدب أفضل من العلم.

لم يكن هذا الموقف وحده هو الذي يرسم لنا صورة هذا الصبي العالم في يفاعته، والمتمرد في صباه، فقد حدث موقف آخر شبيه به، وضع مُحاوره في حرج شديد، واضطر الوالد مرة أخرى ليتدخل حتى ينهي هذا الجدال الذي يسببه نجله للشيوخ الكبار، كانوا

يستضيفون واعظا كبيرا إذا نزل قريتهم خطيبًا للجمعة، ويبالغون في إكرامه، وبعد الطعام يتسامرون معه، وقدمه والده إلى الواعظ بأن محمد طالب في المعهد الديني، وكان يتوقع من الواعظ أن يجامله بكلمة، أو يطري عليه بمستقبل كريم، ولكن الرجل عبس في وجهه وقال له:

- إنك من طلاب العلم، فلماذا لم تحضر معك إلى الخطبة ورقة وقلم، لتكتب ما يفيدك من كلام الواعظ، إنك مقصر جدا يا بني وإني أشكوك لوالدك.

كان هذا التأنيب مفاجأة للفتى الناشئ والذي لم يكن له أن يصمت أمامه أو يقابله بعجز وتسليم، فإذا به يحرك فوهة النقد إلى الشيخ وخطبته ويقول له: -لقد فتحت بابا من الحديث يا سيدي لم أكن أريده لأنك في منزلنا، فأنا لم أسترح لخطبتك مطلقا، لأنك شرحت مطلع سورة "المؤمنون"، فتناولت الحديث عن كل ما ذكرته الآية من خلال ومعان، وكان الأجدر أن تكون الخطبة عن موضوع واحد، حتى يخرج السامع بشيء يفيده، هذه ليست خطبة يا سيدي!

وأمام هذا النقد العاصف احمر وجه الشيخ ونظر إلى والد محمد منفعلا وقال له

- يا شيخ أحمد ابنك بيكره التفسير، أهذا يجوز؟

فرد محمد بقوله:

-للتفسير دروس يا سيدي. وأمام الموقف المحتدم اضطر الوالد إلى التدخل، فغضب في وجه ولده وأمره بالخروج ومغادرة المكان، واعتذر للشيخ.

وخرج صاحبنا إلى والدته غاضبًا ونقل إليها كل ما دار، وهي الحكيمة الواعية الحافظة لكتاب الله، فأرادت أن تعلمه درسا تربويًا مهمًا ربما ساقه التهافت على الجدال والنقاش أن يغفله، فقالت له:

- يا بني إن الرجل في منزلنا وقد أخطأت وأخطأت.

وبعد أن رحل الشيخ قابله أبوه ضاحكًا وقال له:

-يا بني أنا معك في كل ما قلت، بل أزيدك أني سمعت منه هذه الخطبة منذ عامين دون أن يلتفت إلى ذلك! وقد أخرجتك كي لا تزيد في القول مع رجل له مقامه بين الناس، فقد غضب الرجل وقال لي: ابنك يحدثني وكأنه أستاذ، بل كأنه عضو في هيئة كبار العلماء! أهذا يجوز؟

وأمام هذين المشهدين اللذيْن جسدا صورة هذا الوالد الحكيم المعلم المربي، في رد فعله التربوي الرائع، وهو الذي كان مجرد تاجر بسيط لم ينل حظًا من التعليم أو النيل من شهاداته، لكنه كان على إدراك فطري عظيم بوسائل التربية، والأسلوب الأمثل في تعليم النشء معنى الأدب والاحترام في غير تعنيف أو عقاب، فقد مزج تعليمه وتأديبه بشيء من القسوة وكثير من الحوار والنقاش القائم بينه وبين ولده، الذي يعتمد على المنطق والحكمة

والعقل والذوق والابتسامة أحيانًا، فلم يكن والده أهْوجَ يثور على ولده لخطأ فعله، كما هو فعل كثير من ضعيفي العقول، قليلي الحظ من التعليم والثقافة، فينهال عليه بالقسوة والسب والضرب، بحجة أنه يعلمه، وإنما كان الحوار الذي يعلم ويرشد برفق وأناة.

لم يكن حرمان هذا الوالد الفاضل من التعليم قد أخرجه جاهلا، فعلى العكس كان الرجل يهتم بالعلم والثقافة وكتب الدين، فقد كان يستمع لشرح البخاري ويتابع مع جلسائه الاطلاع في كتب العلم والسيرة النبوية، ولم يكن حبه للعلم قاصرًا على نفسه، بل أراد أن ينميه في ولده الناشئ، وبسبب هذا الوالد ارتبط الصبي محمد رجب بالعلم والكتب والقراءة والثقافة، وكان هذا الوالد هو السبب الأول أن يشق هذا الغلام طريقه في العلم بحب موروث نشأ وتربى عليه، وكان من أهم ملامح تربيته وبيئته.

إذا أردت لطفلك أن يتطبع على سلوك معين، أو يشغل بأية حرفة أو هواية محددة، فما عليك إلا أن تثير اهتمامه بها، وفضوله نحوها، نعم قد يحصل هذا الاهتمام لو شجعته عليها، ودفعته إلى خطواتها بالنصيحة والتلقين.

لكن الاهتمام بالرغائب والمُنى، له فنونه الاحترافية التي يجب أن يتقنها المُربي، لتؤتي أُكلها في نفوس الصغار، ولعل أهم هذه المواهب التي نشجع عليها أبناءنا، هو تحبيبهم في العلم والقراءة والرغبة في الاستماع للعلماء والفقهاء والدارسين، ونعلمهم كيف يعشقون الكتب ويهيمون بها ويشغفون بمضمونها؟

فرق كبير بين أن تنصح ولدك بالقراءة والاستماع للعلم نصيحة مجردة باللسان، وبين أن يراك أنت في خطوة عملية تقرأ وتبحث وتتعلم، وتعكف على الكتب حتى يحاكيك ويقلدك.

لكن مما لا شك فيه أن هناك صورة أخرى، ربما تكون أكثر إثارة لاهتمام الصبي وشغفه وتعلقه، وهي ما نجدها في حياة كثير من العمالقة والعظماء والأعلام، حينما كانت بيوت آبائهم تعمر بمجالس العلم والسمر في الثقافات العلمية والمعرفية المتنوعة، خاصة الدينية منها من حديث وتفسير وأدب وفقه، وقد كان العقاد والشعراوي نموذجين بينين في هذا، فلقد كان لهذه المجالس أكبر الأثر في نفس الصبي منهما، وهو يرى هذا الاهتمام البالغ، من هذا الجمع الحافل، بهذه العلوم والفنون والموضوعات.

فما أن يجلس الصبي معهما أو يشاهدهما، حتى تشرئب نفسه على ذات الطريق، فيقع فيها اهتمام وحرص بما يمارسه القوم ويقومون عليه، وتنشأ بينه وبين هذه العلوم علاقة خاصة، يشعر بها في كيانه، ويحس أنها تخصه وتنتسب إليه، وأنه منها، وأنها منه، وعليها نما وفي ظلالها تربى.

نعم كان لهذا الجمع المبارك في ترسيخ مثل هذه الغايات في نفوس الناشئة أكبر الأثر في خلق وإيجاد اهتمام عظيم، وعناية فائقة، وحرص دؤوب على التقليد والمحاكاة.

وهو نفس الحال الذي كان للدكتور البيومي مع والده منذ صغره، وفيما رأى من هيام هذا الوالد بالثقافة والعلم، فقد كان في قريتهم رجل شغوف بقراءة المجلات الدينية،

وحينما ينتهي من الصلاة في المسجد، يتوجه إلى متجر والد البيومي، فيقرأان معًا بعض المجلات، ويتناقشان في كثير من الأحاديث، كما كانا يقرأان كتاب (محمد المثل الكامل) للأستاذ جاد المولى، كان الشيخ يقرأ ووالده يسمع، ولما رأى والده حرصه على الاستماع، واهتمامه بما يدور، أراد أن يخصه ببعض العناية، فقال له:

- أنت صغير، وسأختار لك كتابًا يناسب عقلك أقرأه معك بعد انصراف الشيخ، وكان الكتاب المختار هو (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم) للشيخ الخضري، وتعايش معه الصبي، وترك في نفسه حبًا جمًا لكتب السيرة النوبية فيما بعد، حتى أنه لا يرى كتابًا في السيرة إلا ويقرؤه في شوق بالغ، وهو الذي ساقه خلفًا وكان الدافع الحثيث، ليؤلف كتابًا في سن مبكرة، تحت عنوان (السيرة النبوية في أقلام الرواد المعاصرين) العقاد وطه حسين، والحكيم وجاد المولى وهيكل وفريد وجدي، وهو الكتاب الذي استحسنه الأزهر وطبعته لجنته الدعوية.

ولكننا أمام هذا؛ لا بد أن نشكر هذا الوالد الذي نمّى في ولده حب السيرة العطرة منذ الصغر، بل حبب إليه القراءة عمومًا، والتي كانت التمهيد الأول، ليخرج هذا العلم الكبير من أعلام الأزهر وعلمائه الأفذاذ.

الاهتمام فن يجب أن تتعلمه، وتبرع فيه، حتى تعرف كيف توجه قلوب الناشئة للمعالي السامية.

كلما كبر الفتى محمد نمت وتوثقت صلته بهذا الوالد، وكان العلم والقراءة والدراسة هي سبب هذه العلاقة الوثيقة بينهما، فلما التحق بالأزهر أقبل على والده أكثر؛ لأنه كان ملمًا بقواعد النحو تماما، ودارسا لكتب الفقه الشافعي، فكان يقرأ مع ولده كتب المقررات الدراسية في العام القادم، وكان هذا الوالد مشهودًا بين أهل القرية في الفتاوى الدينية، ويقصدونه فيها ويعدونه مرجعًا يلجؤون إليه في مسائل العبادات والمواريث والطلاق وغيرها مما يهم حياة الناس وشؤونهم.

ويخبرنا ولده أنه قرأ كتبا كثيرة في التشريع الإسلامي، وكان يشهد له نقاشات دقيقة مع دارسي الشريعة، في قضايا الأحوال الشخصية والطلاق والميراث والزواج، وهو ما كان يعجز ولده أن يناقش فيها ويخوض غمارها وهو الذي درس وتعلم بالأزهر!

يخبر عنه ولده أنه حفظ كتاب (شفاء الصدور في تفسير سورة النور) للشيخ الحيالي، وجعله مادة دروسه الليلية بالمسجد في شهر رمضان، وحينما كان ولده محمد يلفت انتباهه لتفسير الشيخ محمد عبده، يرد عليه بأنه قرأه ولكن تفسير الحيالي أكثر جذبا له منه، وقد تتبع هذا الوالد كل ما كان ينشره الشيخ الحيالي من فصول التفسير في مجلات نور الإسلام والأزهر وهدي الإسلام تتبُع الحريص العاشق، ولا يمل قراءة ما كتبه من تفسير عن بعض السور القرآنية بمجلة الأزهر، وكان يقول:

-لو أتاح الله لهذا الرجل أن يفسر القرآن الكريم كله على هذا النحو لأتى بخير كثير.

هكذا كانت نشأة العلامة البيومي وهكذا كان أبوه وأمه وبيئته الإيمانية التي تربى فيها.

الكتابة والرسالة

في إطار هذه البيئة الدينية، والتي كانت ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالصلاح والتدين، كان العلم كما رأينا سمة من سماتها الواضحة وركيزة من ركائزها الأساسية، اضطلع بها هذا الوالد المحب للقراءة والشغوف بالعلم والعلماء.

وينشأ ناشئ الفتيان منا ** على ما كان عوَّدَه أبوه.

ارتسمت إذن ملامح هذا الفتى ووجهته في الحياة من أمرين:

الأول: هذا الوالد الذي حبب إليه العلم ودفعه إلى القراءة مبكرًا.

ثانيا: المعهد الديني الذي أسهم في إثراء معارفه الثقافية كطالب للعلم.

وعليه التحق الطالب محمد رجب البيومي بالمعهد الابتدائي في دمياط، وبدأ يخط رحاله في رحاب العلم والمعرفة، وكان اليوم الدراسي في المعهد يمتد إلى ما بعد العصر، وتتخلله فسحة طويلة للغداء، وفي أثنائها كانت المكتبة تفتح أبوابها لمن يريد القراءة والاطلاع، وكان بجوار هذا قد شغف طالبنا الصغير بقراءة المجلات الدينية والجرائد اليومية وخاصة صحيفة الأهرام.

فإذا فرغ منها تنقل بين الكتب التي يتعرف على أسمائها من الفهرس، وفي يوم ما تعرف على كتاب العمدة لابن رشيق فلم يمكث معه كثيرًا، مما اضطره إلى إعادته، فداعبه أمين المكتبة وقتها قائلا له:

-العمدة كبير عليك، اطلب كتابًا عن شيخ الغفر أو شيخ البلد. فابتسم له.

علم بعد ذلك أن المعهد ينظم دورسًا في أحد المساجد بعد العشاء، فلزمها رغبة في التعلم، وكانت سبيلا له أن يتعرف على أفكار جديدة تفتح مداركه ووعيه العلمي.

تعرف على أحد الشعراء، ودفعه ذلك إلى الشعر وبدأ يقرأ شعر حافظ ويحفظه حتى أتقنه كاملا، وكانت هذه بدايته مع الشعر، كما بدأ النظم بعد مرحلة الحفظ في السنة الثانية وبعد مرحلة الحفظ.

وبدأ يكتب في المجلات وهو في مرحلة الدراسة بالمعهد وعلم أساتذته وشيوخه فمنهم من امتدحه وشجعه ومنهم من حقد عليه ووبخه، وهو ما سنذكره في الحديث عن المتاعب التي واجهته.

انتقل الطالب محمد رجب البيومي من المعهد الديني بالزقازيق، إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر في القاهرة، وكان هذا التحول نقلة أخرى في حياته العلمية والثقافية، فقد شاهد الشيوخ والعلماء الكبار، وبدأ يحضر المناقشات العلمية للرسائل الجامعية التي أفادته كثيرًا، وكان يحرص على أن يحضر ما يستطيعه منها، كان الانتقال إلى

كلية اللغة العربية هو بداية التفتح العلمي، وقد انتقل إلى الدراسة فيها ومعه بعض الشهرة والصيت، فاسمه صار معروفًا في مجلة الرسالة الأدبية، كأحد كتابها الناشئين.

حتى أن بعض أساتذته وهو الأستاذ الشيخ أحمد شفيع، كان يخص مقالاته بالتنويه في محاضراته، ويدعو الطلاب إلى قراءتها ونقدها، وهذا لا شك تكريم كبير ومقام له رتبته بين الطلاب، فمعنى أن يشيد أستاذ بمقالات طالب ويتابعها ويوصي بها، فهي شهادة بهذا المقام الرفيع، والمستوى الكبير، الذي بلغه هذا الطالب وحازه.

موقف آخر تسببت الرسالة في أن ينال التقدير والرفعة من شيوخه، فقد كان عميد الكلية الشيخ إبراهيم الجبالي، لا يسمح لطالب بإجازة دون أن يراه ويسأله سؤالا علميًا إن أجابه سمح له، وإن أخطأ أعرض عنه ورفض طلبه، وقد أراد الطالب البيومي أن يأخذ إجازة ليلقى والده القادم إلى القاهرة في محطة القطار.

لكن الشيخ لا يوافق على إجازة لطالب حتى يختبره، فسأله عن إعراب بيت من الشعر، وذكر له قول الشاعر:

وكُلُّ رفيقَيْ كلِّ رحْلٍ وإِن ** هما تَعاطىَ القنا قوماَهُما أخوَانِ

فقال له الطالب رجب:

-سأعرب البيت كما تريد، ولكن سأسألك عن قائله، ومناسبته، وعمن أخطأ في إعرابه من كبار النحاة.

فابتسم الشيخ وقال: جئت بآبدة، جئت بآبدة. وكان وقتها يجلس معه الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوي أستاذ النحو، فقال للشيخ: هذا الطالب من كتاب مجلة الرسالة. فأشرق وجه الشيخ مبتسما وقال: -اذهب يا بني لوالدك، ولغير والدك، فنحن لا نتشدد في الإجازة إلا مع المتعلمين، أما العلماء أمثالك فلهم ما يشاؤون.

كان لمجلة الرسالة عليه فضل كبير في تلك الفترة، فقد صنعت له مجدًا وشهرة وصيتًا بين الطلاب وغيرهم، وأصبح اسمه يبشر بكاتب كبير، وأديب واعد له مستقبله القريب، وكان الزيات يفسح صدر مجلته لمقالات الطالب البيومي وبحوثه، وكأنه كان يتنسم في قلمه هذا الإشراق القادم، والنبوغ المبكر، فنشر له بحوثًا أدبية شتى، وقصائد شعرية اجتماعية وعاطفية، وبلغ الأمر أن بعض أساتذته كان يطلب منه مراجعة قصائده الشعرية ويصحح ما يراه فيها من تصويبات، بل كان بعضهم يدعوه أن يقول رأيه في كتبه ومؤلفاته، وهو ما يعكس ذلك الحضور العلمي والنبوغ المبكر الذي حظي به ومنحته له الرسالة، وكانت البداية مع الرسالة، حينما كان يقرؤها في مكتبة المعهد التي توفرها بانتظام في قاعة المطالعة فغرم بها، وكان يقرأ كل ما يستطيع من مقالاتها وقصائدها، وكانت بالنسبة له، أثمن زد أدبي يتغذى به.

وذات يوم قرأ في الرسالة مساجلة بين الشيخ عبد المتعال الصعيدي والشيخ محيي الدين عبد الحميد، حول شعر الأعشى، فبادر سريعًا بالرد على الشيخ الصعيدي على غير المعنى الذي قصده الشيخ، وأرسل رده للمجلة ففوجئ بنشره وسارع الشيخ الصعيدي بتوضيح فهمه الخاطئ عن قصده فيما كتب، ورغم هذا لم ينقص من مقامه أحد وإنما زاد

على قدره وزادت الحفاوة به، لأن مجرد نشره في الرسالة في حد ذاته تقدير كبير، من كل الأساتذة والشيوخ، حتى شيخ المعهد نفسه الذي طلب منه أن يعد كلمة المعهد في الاحتفال بمناسبة الهجرة النبوية، والتي لاقت استحسانًا كبيرًا لأنه أتى بمكوناتها من مقالات ومكتوبات الكتاب الكبار، حتى خرجت عن المعهود والمألوف؛ مما يتحدث فيه الأساتذة من معاني الهجرة.

عقب الانتهاء من الدراسة بكلية اللغة العربية، انتقل الطالب محمد رجب البيومي للدراسة بمعهد التربية العالي بالإسكندرية، فوجد عالمًا آخر وطبيعة مختلفة في الأساتذة والدراسة على غير ما ألف من الطبيعة الأزهرية، التي كان يجد فيها متنفسًا أفضل للطلاب من الفهم والتعلم، حيث كان شيوخ الأزهر يسمحون للنقاش والحوار أثناء الدرس، بعكس أساتذة المعهد الذين كانوا يحرمون ذلك، وهو ما وجد معه تعنتًا في فهم كثير من المواد الدراسية، ولكن هذا أيضا لم يمنعه أن يظهر تميزه ونبوغه في المواد الاجتماعية وعلم النفس، في يوم ما قرر الدكتور عزت راجح، أستاذ مادة البحث التربوي على الطلاب عدة بحوث يعدونها، وحدد لكل طالب بحثه الذي يجب أن ينتهي منه في شهرين، لترصد درجاته قبل موعد الامتحان، حيث لا يجوز لمن رسب في المادة، وكان نصيب البيومي بحث تحت عنوان (اللعب وأثره في تربية الطفل) وسارع البيومي مهتما بالبحث وتحصيل مراجعه والكتابة فيه، وقرأ كل ما وصل إلى يده مما يخص لعب الأطفال، حتى استطاع أن يكتب بحثاً مستوفيًا يشمل كل جوانب الموضوع المهمة، ولما قرأه الدكتور راجح، أحضره معه إلى قاعة الدرس، وسأل عن اسمه، فوقف البيومي بين الزملاء، فقال له الدكتور

عزت: قل الحق ولا تكذب، من أين جئت بهذا البحث؟ إنه ليس بحث طالب مبتدئ، لقد قرأت مراجع كثيرة، فلم أهتد إلى موضع بحثك هذا، وهو ليس من نتاجك بكل تأكيد.

وتحير البيومي في الرد ولكن زميلًا له كفاه ذلك حين وقف في القاعة وقال للدكتور بصوت مرتفع: إن الأستاذ البيومي من كُتاب مجلتي الرسالة والثقافة، واسمه يأتلق مع أسماء العقاد والزيات وأحمد أمين وكبار الكتاب في المجلتين، فكيف تتهمه بالسطو على بحث علمي في اللعب؟

نظر الدكتور راجح إليه، وقال بعد تفكير: إن البحث لا يكتبه غير أستاذ متخصص، وسأنشره في مجلة التربية باسم صاحبه، والمجلة تدفع خمسة جنيهات لكل بحث ينشر، وهذه هي الخمسة جنيهات. ثم أخرج من جيبه ورقة مالية بالمبلغ وأعطاه إياه، وكان في هذا الوقت عام 1949م شيئًا ذا بال.

الدكتور البيومي يعد ذلك الموقف مما يدل على فضل الدكتور وتشجيعه له، لكنه لا شك من جهة أخرى يؤكد ذلك النبوغ الذي تفرد به، مما جعل أستاذا كبيرا كالدكتور راجح لا يستوعب أن يكون مجرد طالب هو من قام بهذا المنجز العلمي، ولما بصره أحد الطلاب بمكانة البيومي؛ بدأ يستوعب ويدرك أنه أمام طالب مختلف، وحالة متفردة من النبوغ العلمي المتفرد. وهكذا صارت الرسالة والكتابة فيها بمنزلة شهادة أو إجازة علمية يعرف بها كل من حوله قدره ومكانته.

تعلم الطالب محمد رجب البيومي معنى النقد العلمي والمسارعة إليه وتحقيق معناه، من هذه الروح التي ألفها في مجلة الرسالة، فالكاتب الذي يكون لقلمه محط اهتمام، هو ذلك الذي يكون صاحبه كاتب ناقد يقدم شيئًا جديدًا، وتكون لديه وجهة نظر جديدة يتكلم عنها، ورؤية يطرحها ويبديها.. أدرك البيومي هذا مبكرًا حينما عرف مجلة الرسالة، التي أنمت فيه روح النقد، وبدأ يقرأ في سطورها، وأحب أن يسير على خطاها ونمطها منذ بدياته عهده بها، ومن ذلك كان الموقف الذي ذكرناه سابقا عن الخلاف بين الشيخين عبد المتعال الصعيدي ومحيي الدين عبد الحميد، وتدخله برد على الشيخ الصعيدي يتقد فيه بفهم آخر لما أبداه.

كما ألف أستاذه محمود رزق سليم موسوعة أدبية من ثمانية أجزاء عن العصر المملوكي، وبذل فيها جهدًا كبيرًا، وأهدى إليه الجزئيين الأول والثاني، وطلب منه أن يبدي رأيه فيما كتب على صفحات الرسالة.

وبدأ القراءة وأعد عن الكتاب بحثًا مكتوبًا نشره في الرسالة عام 1948م، وبدأ بالثناء الحافل على الكتاب، ومجهود الأستاذ فيه، ولكنه رغم هذا الإطراء قدم رؤية نقدية أعلن فيها أنه يخالف أستاذه من ناحية هامة تشيع في الكتاب، وهي حرصه على ترجمة كل مَن ولي السلطة أو ناب عن الوالي وغيرهم من القضاة، وفيهم من لا يستحق أن يترجم له، أو أن يكتب عنه سطرًا واحدا، حيث كان فردًا عاديًا لم يخلف أثرًا، فقد ولي وعزل وكأنه لم يولد، فلم إذن نتعب أنفسنا في تراجم أصنام أدبية، قذف بها الزمن في قراره السحيق؟

كما انتقد ما ذكره المؤلف من أرقام الصعود والهبوط وتواريخ الزيادة والنقص، وقال عنها:

-إنها مغالاة لا تفيد القارئ بشيء. وقرأ أستاذه النقد ولم يعقب عليه في الرسالة إلى أن لقيه وذكر له أنه لا يوافقه في رأيه، وشرح له وجهة نظر، فأعلن البيومي صواب أستاذه وعدل موقفه النقدي.

لكن هذا الإقدام الجريء على النقد ومن ثم لأستاذ من أساتذته، هو ما تعلمه من الرسالة، واهتدى إليه من سلوكها ومنهاجها، فالعلم والرأي أمانة فوق كل اعتبار، وخارج نطاق المجاملات والملاطفات، لقد منحته الرسالة مجدًا لا يتوفر لكثير من أنداده حينما كانت صفاتها تحمل اسمه ليكون ملاصقًا لأعلام الأدب وكبار المفكرين والكتاب.

وإذا كنا في هذا الميدان قد تناولنا شأنه وبدايته في دنيا الكتابة، فلا يمكن أن نغفل أن هذه الانطلاقة كانت نتاج قراءة غزيرة، واطلاع مستمر، فالبيومي كغيره من أعلام الفكر والعلم والثقافة، يؤكد لنا حاله أن الكاتب الكبير لا تنتجه إلا قراءة كبيرة، يقول عنه تلميذه الدكتور مصطفى السواحيلي: "أدمن الرجل القراءة من مهده إلى لحده، واتخذ من الكتاب خدنا لا يفارقه، واثقا أن خير جليس في الزمان كتاب، وقد عبر في إحدى قصائده عن تلك النزعة المتولية بالقراءة، وفيها يشكو من ألم مبرح بعينيه حال بينه وبين لذته، حيث يقول في مطلعها:

شكت مقلتي طول القراءة، ويحها

حرمت ملذات الحياة وليس لــي

لهذا قضيتُ العُمْرَ بين صحائفي

أما علمت وقع القراءة في نفسي؟

سواها، فإن ولت تأوهت في حبسي

فلست أُرَى إِلا مُكِبا على طرسي.

وإن أنس لا أنسى يوم سافرت معه من المنصورة إلى القاهرة في حافلة الكلية عام ١٩٩١م، وقد اصطحبت معي كتابا دراسيا؛ لأني كنت على مشارف امتحان نهاية العام، لكنني لم أفتحه، وانشغلت بالسمر مع الأصدقاء، ومتابعة ما يمر في الطريق. أما هو فقد كان على مشارف السبعين ومع ذلك اصطحب معه كتاب (الحلة السيراء) لابن الآبار وانشغل بمطالعته غير عابئ بمن، حوله كأنه ليس منهم وإن سافر معهم حتى أتى في الذهاب والإياب على الكتاب برمته، ومطالعة شعره ومتابعة مقالاته تقفك على تمثله ثقافات ضخمة، فهو مفتوح العينين على التراث الإنساني بأسره".[1]

بل كنت تلمح عنايته واهتمامه بالقراءة في تشجيع طلابه وحثهم عليها، فيحكي أحد تلاميذه أنه جمعهم يوما من الأيام ووجه سؤاله لهم جميعا، سؤال واحد للجميع:

---

1 - أصداء المعري في شعر البيومي – بحث للدكتور مصطفى السواحيلي

-ما آخر كتاب قرأته، وماذا استفدت منه، وما ملاحظاتك عليه؟ وجعل يناقش كل تلميذ فيما ذكر، كأنه قرأه لتوه.

كما تمتع رحمه الله بحافظة قوية أسهمت في استيعاب كل ما قرأ فكان كل من خالطه يقف على سعة اطلاعه، وحدة ذاكرته وسرعة بديهته وحلاوة استشهاده بالمأثور، وجمال اقتباسه وبخاصة من الشعر العربي على اختلاف عصوره وكتابه (طرائف ومسامرات) يتضمن كثيرًا من القصائد والمقطوعات والمواقف التي رواها من ذاكرته ذاكرًا أنه حفظها منذ زمن بعيد مما يجعلنا نردد مع الأستاذ- عبد الفتاح أبو مدين قوله: "إنه رجل يشبه الشجرة المثمرة، حيثما تضع يدك تجد ثمرة، حيثما تستمع إليه تجد عنده الأدب، عنده حافظة، عنده ذكريات طويلة عريضة واسعة"[1]

[1] - المصدر السابق

متاعب مبكرة

البيومي شأنه كل كاتب عاشق للقلم، حينما تجر عليه الكتابة كثيرًا من المتاعب والهموم والمشكلات، لكنها رغم آلامها وهمومها، لا يستطيع التنازل عنها أبدًا مهما كانت محنها، أو كانت تعود عليه بما يؤرق نفسه وفكره، وقد أدركته متاعبها مبكرًا، فقد تعرف إلى الأستاذ علي الغربي، الذي كان يجتمع بالطلبة ويحفزهم على الكتابة وينتقي من إنتاجهم ما يروق للنشر، وهو ما دفعه أن ينشر في عهد مبكر وتمنى وهو صغير أن يرى اسمه منشورًا، خاصة حينما رأى بعض زملائه قد نشروا بعض المقالات، فسارع إلى زميل له ليعرف من أين كتب إحدى مقالاته المنشورة، فأرشده إلى كتاب الأغاني، ولم يكن يعرفه من قبل، فسارع إلى المكتبة وأخذ يقرأ فيه، وينتقي منه فصلًا يكتبه، وعلى مدار ثلاثة أيام أخذ يحرر ما قرأ وكتب، ويلخص المكتوب ويعيد صياغته بعناية، ولقي أحد المحررين بالجريدة فدفع إليه مقالته، وفي العدد التالي وجدها منشورة تحت عنوان شهيد الحب، كانت فرحته كبيرة، وكان هذا بداية عهده بالنشر، وأول انطلاقة لاسمه الرنان فيما بعد بكبريات الصحف الدينية والأدبية.. وعلى قدر ما وجد من السعادة الغامرة من هذه المبادرة المبكرة، كانت هناك عقبة عاصفة نتيجة وشاية بعض الطلاب الحاقدين عليه إلى شيخ المعهد، الذي استدعاه وسأله مستهزئا:

-من قال لك إن من أحب فتاة عابثة يكون شهيدًا؟ هل صرت عضواً في لجنة الفتوى بالأزهر لتحكم في أمور الدين؟

أدرك الفتى وقتها أنه في أزمة عاصفة، ولا بد له من الدفاع عن نفسه حتى ينجو من العواقب الوخيمة، فقال له:

-يا مولاي أنا لم أكتب هذا العنوان، ولكني فوجئت به في أعلى المقال فهو من عمل المحرر.

فرد عليه الشيخ:

-أنت كاذب كاذب.

فقال:

-تفضل مشكوراً واسأل مدير الجريدة. فسكت ثم قال:

-هل ضاق الحديث أمامك حتى لم تجد غير سير الحب والغرام؟

لماذا لم تكتب عن الأئمة الأربعة؟ أيليق بطالب العلم في المعهد الديني أن يتحدث عن العشاق والمجانين؟

رد قائلا:

-سأكتب عن الأئمة يا سيدي. فتابعه بقوله:

-التفت إلى دروسك ودعك من الكتابة، وأنت مفصول ثلاثة أيام حتى أنتهي من رأيي فيك! كان الحكم قاسيًا والنتائج محزنة، وكفيلة أن تصيب الفتى الناشئ ذا الطموح في عالم الكتابة والنشر بعقدة عظيمة، يهجر معها الكتابة كلية، ولم يكن شيخ المعهد على القدر الذي يؤهله ليدرك أبعاد الموقف، وكيف له أن يوجه الفتى وجهة حسنة بأسلوب رفيق بَنَّاء، بدلا من هذا النقد العنيف والعقاب الصارم، لم يصمت الطالب أمام هذه العاصفة، حيث سارع إلى أحد أساتذته، وحكى له محنته مع شيخ المعهد، فطلب منه أن يقرأ له المقال، وقال له بعد القراءة:

-أنت لم تأت بشيء بعيد عن مقررات المرحلة الثانوية فلا حرج عليك فيما تحدثت عنه، ولكني سأكلم الشيخ بالطريقة التي يرتضيها، فعفا عنه وألغى عقاب الفصل، ولكنه نهاه عن الكتابة، وطلب منه ألا يعود إليها أصلا وأن يلتفت إلى دروسه.

ويبدو أن الطالب الفتى كان على موعد مع عشق القلم، حينما ذاق حلاوة الكتابة ورأى اسمه منشورًا، فلم يستطع التنازل عن هذا الغرام والهوى الذي وجد فيه سعادته وأحس بذاته، لقد كان صدى المقال قويًا في أرجاء المعهد، وعرف الأساتذة والطلبة ما كان من أمره مع شيخ المعهد، وشجعه بعض المحررين أن يستمر في الكتابة بعيدا عن العشاق والموضوعات التي تجر عليه غضب الشيخ، وتطوع أحد الأساتذة أن يشفع له عند الشيخ ليأذن له، وقد رضي وأذن.

كانت تلك بداية انطلاقة هذا الاسم الكبير في عالم الكتابة ودنيا النشر.

ثم تأتي حادثة أخرى تسببت له في مشكلة كبيرة ومتاعب مع المعهد وشيخه، فقد حدث أن توفي صاحب الأهرام جبرائيل تقلا باشا، وخرجت الأهرام مجللة بالسواد حدادًا على صاحبها الصحافي الشهير، ثم جعلت تنشر رثاء الشعراء وكلمات المواسين كبارًا وصغارًا، وكان منهم مطران والجارم والعقاد والشاعر الأسمر، وعدد كبير من الشباب المتطلع طلابا وأساتذة، ورأى صاحبنا أن يسهم كما أسهم الآخرون، ونظم قصيدة في رثائه، ونشرت بعنوان (دمعة معهد الزقازيق) عام 1943، كان هذا العنوان من اختيار الجريدة لأن إمضاءه كان (محمد رجب البيومي – معهد الزقازيق الديني) فرأت الجريدة أن تضع هذا العنوان مناسبة مع حال كاتبه، ولم يكن من اختياره كما سبق في الحادثة الماضية في دمياط، كان ذلك في الإجازة الصيفية، وما أن بدأ العام الدراسي، حتى دعاه شيخ المعهد الديني في الزقازيق، وبدأ السؤال واللوم:

-من الذي جعلك تتكلم باسم معهد الزقازيق في رثاء صاحب الأهرام؟ قال محمد:

-يا سيدي أنا لم أكتب العنوان، ولكن الجريدة هي التي اختارته ولك أن تسألها في ذلك. فقال الشيخ مستنكرا:

-أسأل الجريدة بعد مرور ثلاثة أشهر؟ ألا تعلم أن رثاء جبرائيل تقلا على لسان المعهد يثير حساسية؟ فرد محمد بقوله:

-الأهرام قد نشرت رثاء للشيخ "محمود أبو العيون" شيخ المعهد الديني بالإسكندرية، وأنت تعرف فضل زميلك الكبير، وهو لم يستشعر أي حساسية. فقال الشيخ: -قرأته ولم يصادف ارتياحي. فقال محمد:

-ومجلة الأزهر كذلك رثته بمقال كبير وأشارت إلى تأبينه وحرصه على نشر البحوث الإسلامية بروح إنسانية لا نراها عند كثيرين.

تطلع إليه الشيخ وقال:

-لا تنشر من الآن شيئا توقعه باسم المعهد لأنك غير حصيف. وأعلن انتهاء المقابلة في شبه استياء.

خرج الطالب محمد رجب متوتر الأعصاب، حائرا في موقف الشيخ، ولم تمض أسابيع حتى قامت عليه مظاهرات الطلاب تنادي بنقله أو عزله لتعسفه مع الطلبة الذين يظاهرون حزبًا سياسيًا يكرهه، فتم نقله إلى معهد آخر.. والغريب في هذا الموقف، كيف أن المقال مر عليه ثلاثة أشهر، ومع هذا بيَّت له الشيخ محاسبته والتحقيق معه، وهي مدة كانت كفيلة بنسيان الموضوع تماما، لكن الرجل يبدو أنه كان فعلًا يضع الطلاب في مرمى اضطهاده.

كان الشيخ عبد الجليل عيسى من المشايخ الذين يكن لهم البيومي حبا عظيما بل على حسب ما قال: يحمل لهذا الأستاذ دينا في عنقه لا ينساه أبدا، حينما وقف معه موقفا جريئا

وتحمل عاقبته بقلب شجاع ويقين صادق، ويؤكد البيومي أنه في ظنه لا يقوم أحد مقام هذا الأستاذ في موقفه النبيل.

فماذا هذا الموقف ياترى والذي كان من العقبات الكبيرة في حياة البيومي المبكرة؟

يقول الدكتور البيومي في ظلال من حياتي: "فقد قتل محمود فهمي النقراشي رحمه الله بيد أحد المتسرعين من الإخوان المسلمين، وقامت الدولة باعتقال كل من ينتسب إلى الإخوان بالكليات والمدارس وغيرها، وكنت ممن يكتب أسبوعياً بجريدة الإخوان، فتوقعت أن يُقبض علي، ووكنتُ أمري إلى الله، وكان توقيعي الأدبي على القصائد والمقالات باسم (محمد رجب البيومي)، وهو الاسم الذي اشتهرت به، أما اسم البطاقة المأخوذ من شهادة الميلاد والمؤرخ في كشوف كلية اللغة العربية فهو (محمد أحمد البيومي) وقد أرسلت الداخلية تسأل الكلية عن وجود محمد رجب البيومي بها، وقرأ الأستاذ عبد الجليل رسالة الداخلية، فأخذته الرحمة عليّ، دون أن يكون لي به اتصال خاص، ثم استدعاني فوراً، وقال في لهجة أليمة يا بني لقد سألت الداخلية عن محمد رجب البيومي، وليس عندنا هذا الاسم، وهو مخرج نتحلل به مؤقتاً، فقد يفيد في انصراف الطلب عنك، وأنا أعلم أنك لست قاتلاً ولا سارقاً ولا زانياً، ولو كنت كذلك لما تسترت عليك، ولكني أعرف أنك شاعر تحب الإسلام وتنطق بفضائله، وهذه رسالة الأزهر التي أؤمن بها وسأكتب بأن هذا الاسم غير موجود لدينا وعليك فوراً أن تذهب إلى قريتك فتستتر بها دون أن يعرف أحد بمقدمك إليها فيعلن وجودك، ولا تحضر إلى الكلية إلا يوم الامتحان بعد شهرين، وقد تكون الأحوال قد هدأت نوعاً ما، هذا ما أشير عليك به، والله المستعان.

كان ارتباعي من النبأ يخفف منه موقف الأستاذ، ويُشعرني بإحساس جياش نحوه كله تقدير وإجلال، وقد سارعت بالذهاب إلى القرية ودخلتها في جنح الليل كيلا يراني أحد، وأخبرت والدي بما يتهددني، فاتفقا على أن أقيم بالغرفة العليا من السطح وأن تظل الغرفة موصدة، لا يدخلها أحد غير أمي التي تعد الطعام والشراب. وأبي الذي يزورني بعد العشاء حين تسكن الشوارع في الريف بعد الصلاة، ومعي كتبي، وقد قامت والدتي من تلقاء نفسها بإحراقي مجلات دينية كثيرة كانت تخصني، ومن بينها مجلات الإخوان المسلمين، إذ علمت أن فرقاً من التفتيش تقتحم المنازل، وتبحث عن الصحف والمجلات والمنشورات، وتأخذ بأقل الشبهات، وكانت الخسارة العلمية فادحة لأني كنت أجمع أكثر ما يصدر من الصحف الأدبية والدينية، فلم تفهم الوالدة إلا أن الإبادة للأوراق إحدى سبل النجاة.

وجاء موعد الامتحان فسافرت ليلاً حيث لم يرني أحد، وأخذت مكاني في قاعة الامتحان خائفاً أترقب. ودعاني الأستاذ عبد الجليل فقال ستمر العاصفة، ويكون امتحانك الشفوي بتدبيري في أول يوم لترجع إلى القرية على وجه سريع! أليس هذا الموقف النبيل من مواقف المروءة، والتكافل الإسلامي الحبيب؟"[1]

وأنت تلحظ أن كل مرحلة من حياته كان بها موقف عصيب أو مواقف محرجة وصدامية كان يمكن لها أن تكون ذا أثر غائر في إعاقة مستقبله وعزيمته، حتى بعد تخرجه وعمله لم يسلم من هذه المواقف العاصفة التي كتب الله له النجاة منها بتوفيقه ورعايته

[1] - ظلال من حياتي -د. محمد رجب البيومي

سبحانه فكان مما تعرض له "وهو مدرس في معهد المعلمات بالإسكندرية بعد انقلاب يوليه ١٩٥٢ يكشف لنا عن طبيعته المسالمة ويوضح لنا كيف كان تعامله مع الآخرين، وخاصة السلطة، فقد كانت فسحة الغذاء في اليوم المدرسي طويلة، وكان زملاؤه المدرسون يجهزون خطبا تمتد إلى الساعة ونصف الساعة لتشغل فترة الفسحة، يلقون فيها كلمات وطنية، وكان قد تكرر حديثهم عن ثورة الجيش، ومحو الإقطاع وإلغاء الألقاب، وحرب القناة، ورأى أن الطالبات ينسحبن ولا يسمعن، فإن الحديث المكرر صباحًا ومساءً وفي الظهيرة، قد أدخل السأم علي نفوسهن، فراح البيومي يحاضر في يومه الأسبوعي عن الشهيرات من نساء الإسلام، كعائشة وخديجة والخيزران وزبيدة والخنساء، فوجد إقبالا منقطع النظير، وكأن أحد الزملاء غاظه هذا التوفيق؛ فكتب إلي المباحث خطاباً مجهول التوقيع يقول إنه معروف بميوله الخاصة للإخوان المسلمين؛ لذلك لم يتحدث عن أعمال الثورة المجيدة، وترك الخطاب أثره فإذا بزائر رسمي يأتي إلى مكتب عميدة معهد المعلمات ليسألها عن ميوله الإخوانية، فتشجعت العميدة شجاعة باسلة، وقالت: لم أعرف عنه ولم أسمع عنه إلا كل ولاء وتقدير للثورة، ولو شممت منه ما يدل علي انحرافه لكنت أول مطالبة باستبعاده! قال الزائر: ولكنه لم يتحدث إلا عن النساء المسلمات مثل عائشة وخديجة، ولم يكن كبقية الزملاء، فابتسمت وقالت في وداعة: الطالبات شكون لي أن الحديث متكرر يسمعنه في الإذاعة المدرسية والإذاعة العامة، ويقرأنه في الجرائد اليومية، وهن لا يستفدن منه، وأمام هذه الشكوى طلبت من الأستاذ أن يختار شخصيات نسائية من التاريخ لتجبر الطالبات علي الاستماع ولا يتهربن وقام بتوجيهي بالحديث عن هؤلاء فصادف حسن القبول، فإذا أردتم أن أمنعه فلكم ما تشاؤون فقد تحدث بأمري وتوجيهي، قال الزائر: حديثك معقول.

وهنا قالت: هل هناك صلة بين عائشة والخنساء، والإخوان المسلمين؟ إنني لا أجد صلة إطلاقا فخرج الزائر دون أن يستجوبه، وعلم البيومي بما كان من وكيلة الدار، فهرع إلى السيدة الفاضلة يشكرها! فقالت: لقد أطفأت النار يا رجب، وأعفيتك من المحاضرات نهائيا، حضر الطالبات أم لم يحضرن!"[1]

لفت نظري في هذا الأمر روعة المرأة وبراعته حينما تتولى القيادة، والتي كانت على مستوى الموقف أعظم وأسما من كثير من الرجال يمكن أن يكونوا بلاء على من يديرونهم، كانت المرأة شجاعة مبادرة سارعت لنفي التهمة وتبرير الموقف، لكي لا يطال مدرسها أي أذى، وهناك مدراء يعشقون أذية من يلونهم وتحت أيديهم من الموظفين.. لكن موقف شاء التاريخ أن يسجله لهذه السيدة، وتكون صاحبة جميل على أستاذنا وشيخنا البيومي رحمه الله.

[1] - أعلام في الظل -د. حلمي القاعود

أخلاقه وصفاته

كان رحمه الله موسوعة في العلم والأخلاق الحسنة، كان رجلا عف اللسان، طيب القلب، شديد الإخلاص، عمل على إبراز الوجه السمح للإسلام وكان دائم التأكيد أن الإسلام هو دين السماحة والاعتدال واليسر والمحبة الصادقة والناس جميعا.

يقول عنه الدكتور (مصطفى عبد الواحد) في حفل تكريمه بالمملكة العربية السعودية عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م: "هذا رجلٌ تأخر عنه التكريم كثيرًا ونسيته أمة، جاهد من أجلها بقلمه ولسانه، وهو أبعد ما يكون عن الأضواء، وأزهد الناس في المدح والثناء، وكانت المجلات الأدبية في مصر والشام وغيرهما تحله محلا متميزًا، ومع ذلك فهو الإنسان الزاهد في الألقاب البعيد عن المناصب، كلما جالسته يفيك علمًا، ذو ذاكرة واعية، وذو تجارب كثيرة، وإذا بمناصب الجامعة تعطى لغيره، وهو ساكت عازف، فقد آثر غيره على نفسه، فآثر على نفسه أن يدخل زميل له قسم الأدب مكانه، وانتقل هو إلى قسم النقد حبا وتقديرًا لأخيه، فهو أبعد الناس عن الرغبة في هذا الحطام."

تذكر تلميذته الدكتورة- عزة البكري في رسالتها عنه لنيل درجة الماجستير: "عاش الدكتور البيومي في بيئة تعتز بالأخلاق والصفات الحميدة، وتفرض على أبنائها أن يتحلوا بالأخلاق والصفات النبيلة من عزة نفس وكرم وإخلاص ووفاء وشرف، لقد استهل حياته بحفظ القرآن وتمثل أخلاقه، ونهل من السنة النبوية واقتدى بها في أفعاله وأقواله، فلا

بد إذن أن يكون ذا شخصية طيبة نبيلة تتحلى بصفات جليلة شهد له بها معاصروه وأصدقاؤه."[1]

كان رحمه الله كما وصف يتمتع بالتواضع الشديد، الذي يرتفع بصاحبه عن الشهرة الباطلة والمجد الزائف، فهو ينفر من الأضواء والضجيج ويزهد في الإعلان، وكان دمث الأخلاق، منكرًا لذاته، مبتعدا عن المزاحمة في الصفوف الأمامية التي يتصدر لها غلمان أغرار، وطالما أثنى الرجل على أقرانه متعاليًا على حجاب المعاصرة، بل على صغار تلاميذه، ولم يكتف بمجرد الثناء الشفوي الذي قد يحمل على المجاملة من أجل التشجيع، وإنما كتب عنهم في مقالاته، بل في كتبه السيارة.. ويعلل أحد الكتاب مفسرًا عزوفه عن الشهرة والظهور بقوله: " ربما كان ابتعاده عن الأضواء، أو بالأحرى انحسار الأضواء عنه هو التزامه للحيدة وإيثاره للحق في كل ما يكتب ويرى من آراء وابتعاده عن الزيف والمجاملات الزائفة واللهاث وراء المسؤولين على كافة المستويات، بهدف الانتفاع أو الحصول على منصب أو جاهأو حظوة أو مكسب غال أو رخيص، ومن ثم لم يؤثر عنه أنه كان من "شلة" هذا أو مجموعة ذاك، ولما أن أصبح ممن يمكن أن يكون له رجال وأتباع ومريدون، لم يسمح لنفسه أيضا بهذا"[2]

وذكر د- مصطفى عبد الواحد عن تواضعه، وبعده عن الأضواء، وزهده في المدح والثناء وإنصافه الشباب وتشجيعهم ذاكرًا أنه أثنى على تحقيقه لكتاب ذم الهوى لابن الجوزي) في مقالة له بمجلة الأزهر، وفي كلمته يوم تكريمه قال:

---
[1] - محمد رجب البيومي: حياته وشعره - رسالة ماجستير للباحثة د- عزة البكري
[2] - مجلة الأزهر عدد مارس 2011م

-إن أثقل الحديث حديث النفس كلمة (أنا) أثقل من الرصاص، وأسوأ من الحجارة. ثم ذكر أن العلامة محمد فريد وجدي قد أعطاه درسًا في التواضع، حيث كان يقف عندما يدخل الفراش عليه مكتبه فسأله:

-لماذا تقوم للفَرَّاش؟

قال:

-ولدي، أقوم للناس أمامه ولا أقوم له، أين المساواة؟!".

وإن أنس لا أنسى يوم أن ناقشني في أطروحتي لنيل درجة التخصص (الماجستير) عام ١٩٩٧م، فأثنى على بما لا أستحقه، وقال (مجاملاً يقينا): «إني تعلمت منه، ولو كنت مكانه ما وصلت إلى ما وصل إليه». وحسبك أن تقرأ قوله:

أمثلي بغزو الأحجيات محللاً ** وقد خاب قبلي تابع ولبيب"[1]

ومع مناصبه الكبيرة لم يذكر عنه مرة أنه استغل منصبه لتكريم ذاته، والترويج لنفسه، والمطالبة حتى بما يستحقه وما هو أهل له وكفء " إنه لم يأخذ حظه بالمقارنة إلى كثيرين جدًا ممن هم دونه قيمة وقامة وقدرا وعلما وعملا وفضلا، فلم يفز مثلا بجائزة الدولة التقديرية في الآداب مع إنه تجاوز بمراحل كثيرين ممن فازوا بها كما لم يحظ بعضوية مجمع اللغة العربية وهو من هو فهما لدقائق العربية وأسرارها وبلاغة وبيان كنوز تراثها من

[1] - أصداء المعري في شعر البيومي د- مصطفى السواحيلي

القديم والمعاصر والحديث. بل إن إدارة مجلة «الأزهر» دأبت بتعليمات مشددة منه رحمة الله عليه على رفض نشر أية مقالات حوله أو حول أدبه وكتبه، ظنًا منه أن هذا ربما يدخل تحت ف باستغلال النفوذ لكونه رئيسا هذه المجلة العريقة"[1]

"كما يمتاز برفاهة الحس وبراح النفس وسمو الخلق والبعد عن التصنع والتكلف والغرور"[2] ويمتاز كذلك بالوفاء والإخلاص وخاصة لأصدقائه ومحبيه، ولذا أحبه معاصروه والمقربون منه حبًا جمًا، وانعقدت بينه وبينهم الصلات الطيبة التي تقوم على الوفاء والمحبة والإخلاص.. إننا نقرأ له وهو يصف نفسه فيقول: "أنا إنسان رقيق الطبع، جياش العاطفة، دمث الحديث، وأنا إنسان أشفق من قتل البرغوث وسحق الصرصور، يسوءني أن أجد خادمًا يتألم في بيتي"[3] ويقول د- القاعود: " كان البيومي الإنسان رجلا مسالماً إلى أبعد الحدود، ومجاملا إلى أقصى مدى، ولم تعرف عنه حدة في الجدال أو الحوار؛ لذا لا تجد له خصومات شخصية في المحيط الثقافي أو الجامعي، لقد كان هادئا بطبعه، ويحاول أن ينظر إلى الأمور من جوانبها الأخرى غير التي يركز عليها الناس"[4]

ومن سماته الحميدة شدة تدينه وإيمانه بربه، فهو شديد الإيمان كثير التضرع، لاجئ إليه سبحانه في كل أموره، ويمتاز بالحلم والتسامح والود والحب والوفاء، كما أنه جبل على حب المرح والتفكُّه، فهو حلو الدعابة في مجلسه، يحب الضحك والتندر، وقد أظهر من ذلك الحال في بعض أشعاره، وهو أمين يكره الخيانة والخونة، وخاصة في الأصدقاء، فهو

[1] - من مقال الدكتور محمد فرج بيومي بمجلة الأزهر عدد مارس 2011
[2] - مجلة الأديب – يوليو 1969م بقلم نقولا يوسف
[3] - الأديب – أغسطس 1969 السنة 23 مقال إنها زوجتي
[4] - أعلام في الظل – د. حلمي القاعود

ينفر من هذه الصفة نفورا شديدا، ويبدو هذا في قصيدته السر الذائع، وهي قصيدة تمثل تجربة قاسية له يقول في مطلعها:

أئن غدر الأصحاب أودى بك الهم

أتجزع إن نالتك ألسنة الورى

تعيش لدى قوم تأصل كيدهم

حليف الحجا أين الرزانة والحزم؟

وأي سماء لا ير بها غيم

وتأمل أن يرعى مكانتك القوم؟[1]

إنه يصور غدر الأصحاب وخيانتهم للأمانة، فهو يأتمنهم على أسراره الخطيرة أملًا منه في وفائهم وإخلاصهم، ولكنه يجدهم يذيعون هذه الأسرار دون حياء.

ومن الأشياء التي كان رحمه الله ينفر منها نفورًا شديدًا سمات الزيف والرياء والتملق والوصولية والوصول إلى المجد بتزييف الحقائق، وقد تناول كثيرًا من هذه الردى في مقالاته وأشعاره، ومنها قوله: "طلب مني صديق عزيز أن أجمع له عدة قصائد تصف القمر في مختلف العصور، ثم أشفع كل قصيدة بشرح ناقد يوافق طلاب الدراسة الثانوية،

[1] - مجلة الرسالة 1951 عدد 666

وأنهي المختارات بتحليل أدبي مقارن، وكان للرجل مكانة لدي، فاستجبت سريعا لطلبه، وفي ظني أنه سيستعين بما أكتب في ميدان التدريس وحده، فلم أبخل عليه بما تضمن عشرين صفحة من الورق المدرسي، ومرت مدة فقرأت كتابًا لأحد المشهورين من المفتشين، يضم كل ما كتبت عن القمر مع فصول مماثلة على البحر والليل والطير والحيوان، فكدت أذهل، وأسرعت إلى صاحبي فأخبرني أنه كان يريد النقل من بلدة إلى بلدة، والسيد المفتش صاحب الرأي في ذلك، وقد سأله أن يكتب، فلم يجد بدًا من الاستعانة بي، كما ذكر أن المفتش الفاضل كلف لفيفًا من الزملاء، فكتبوا فصول الكتاب استجابة للمطامع الخاصة، والكتاب ينطق بالتلفيق لأن كل فصل طريقته الخاصة في الشرح والتعليق والاستنتاج، فهو نتاج أقلام تختلف ولا تأتلف، ولكن أين من يحاسب؟"[1]

ومن سماته كذلك العاطفة المتدفقة الجياشة والوفاء النادر لمن أحب، والسمو بهذا الحب وهذه العاطفة فوق المادة وفوق أي شيء، ودليلنا على هذا ما حدث بينه وبين أميرة إيرانية "قد همس الشعر بكلمات ربطت بين روحيهما، ومع الأيام زادت الهمسات والأبيات، وزاد الشوق والمحبة، وتبادلا أشواقهما شعرًا ونثرًا عبر البريد لأكثر من خمس سنوات، أثمرت هذه الرابطة عددًا كثيرا من الرسائل الوجدانية التي تذخر بألوان الشعر المختلفة.. وقد سخر القدر من هذه العلاقة فانقطعت المراسلات، وبعد مرور فترة زمنية طويلة، جاءه ناشر عربي يطلب منه الرسائل التي لديه لجمعها في كتاب مقابل مبلغ كبير من المال، لكنه رفض، ثم عاد مرة أخرى ليعرض عليه مبلغا أكبر يقدر بـ 150 ألف دولار، ولكن البيومي أصر على رفضه قائلا:

[1] - الأديب – يناير 1975 لصوص غير شرفاء بقلم محمد رجب البيومي

-إن العواطف لا تشترى بالمال.

وتبدأ تفاصيل قصة هذه الرسائل بخلاف وقع بين الشاعرة الإيرانية والدكتور البيومي عندما نشر بمجلة العربي العدد الممتاز عام 1975م بعضا من أبيات قصيدته (يقولون ماما) وفيها يرثي زوجته التي توفيت، وبعد مضي ثلاثة أشهر من النشر، تسلم خطابًا من الشاعرة الإيرانية تتهمه فيه بأن قصيدته مطابقة أو منقولة من قصيدة كتبتها ونشرتها في رثاء زوجها، فكتب إليها قائلاً:

-كيف يكون ذلك وأنا لا أعلم اللغة الفارسية؟ وضمن الخطاب القصيدة كاملة، ومنذ تلك اللحظة جمعت المحبة بينهما فاستمرا في المراسلة، حتى أصبحت ملهمته"[1] وكان مما قال فيها:

تعشقت في أفياء طهران غادة

إذا عبت أيامنا بهمومنا

ودون تلاقينا صعاب كثيرة

فإن هاج شوقي اشتفيت بدمعتي

يفيض ضياء وجهها المتهلل

[1] - جريدة الأخبار المصرية 5-12- 1984

فإن بها تحلو الحياة وتجمل

أذللها جهدي فلا تتذلل

على ما بها من لذعة حين تهمل.. ومن سماته البارزة ما ذكره فيه الأديب السعودي عبد العزيز الربيعي واصفًا إياه: "والبيومي إذا طارحك القول جاء يحاورك دون أن تفهم منه بأنه يريد أن يفرض عليك رأيه، ولكنه كان يسلك كل سبيل لبسط هذا الرأي والإقناع به، فهو إلى جانب هذا قوي الحجة، حاضر البديهة، لا يعوزه الجواب المسكت متى شاء، إذا لقيته أول ما تلقاه تصورته ممن ليس لهم أي دور في طول الحياة وعرضها؛ لأنه يعيش حياته بعيدا عن زخرف الدنيا وغرورها، ولا يميزه عن العاديين من الناس ما يميز أضرابه من العلماء والأدباء في مسكنهم وملبسهم ومأكلهم وجميع تصرفاتهم، ترى ذلك واضحا في قوله وسلوكه، في هيئته وملبسه ومأكله ومشربه، وحتى في إشاراته وهو يحدثك، وحتى في رباط عنقه، ولكنك إذا حدثته أو استمعت إليه كشف لك عن صورته الحقيقية، إذا بك أمام رائد بصير قَل نظيره في هذه العصور، إنه في جميع حالاته ومناقشاته هادئ الطبع رقيق الإشارة، ولكنه هدوء العالم الثبْت المؤمن بفكرته، لا يسأم من دعوته إلى تعزيزها كلما واتته الفرصة"[1]

ويقول عنه الأديب الكبير أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة: "عرفت أبا حسام فعرفت الإنسان والصديق، عرفت فيه الوفاء النادر والنابه لمن تعلم منهم أو أخذ عنهم،

[1] - محمد رجب البيومي: حياته وشعره - رسالة ماجستير للباحثة د- عزة البكري

وعرفت فيه الأستاذ الموجه، الذي لا يبخل، فهو يصادق تلاميذه ويقربهم إليه في مودة علمية قل أن تتوفر في كثيرين وأدباء وأساتذة هذا الجيل"[1]

ومن الصفات الجلية التي تحلت بها شخصية الدكتور البيومي الذكاء وسرعة البديهة، ومما يدل على ذلك حينما كان طالبًا بمعهد الزقازيق الديني، وكان الأديب والكاتب الكبير إسعاف النشاشيبي ينشر مقالاته وبحوثه الرائعة في نقد العقد الفريد وأمثاله، والتي كانت موضع إكبار من العلماء والأدباء، كان يخفي اسمه بتوقيع مجهول، مكتفيًا مرة بحرف نون، ومرة أخرى بكلمة قارئ، وثالثة بثلاثة أنجم، وظل على ذلك عدة سنوات، ولكن البيومي الألمعي، حرص أن يكشف النقاب عن وجه الكاتب الملثم، فلفت نظره أن المقالات التي كانت تنشر باسمه في الرسالة، قريبة الشبه في حواشيها وهوامشها بما ينشر دون توقيع، وأخذ يقارن بين الاثنين حتى ظن ظنًا يقارب اليقين أن النشاشيبي المعروف في نقل الأديب هو النشاشيبي المجهول في بحوثه النقدية واللغوية الجليلة، فتملكه شعور جارف بتقديره وإجلاله، وكان فتى ينظم الشعر بقريظه، فكتب فيه قصيدة بعث بها إلى مجلة الرسالة يقول في مطلعها:

دع اللثام فقد واليت تعذيبي

حجبت نفسك في سماء شاهقة

فكنت مثل النسيم الطلق ينعشنا

1 - أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد والأدب – بقلم د- محمد رجب البيومي

لطالما ضل في واديك تنقيبي

لكن سيمك عنها غير محجوب

ولا تراه بتحديق وتقليب.

إلى أن يقول:

أستاذي الفذ قل لي غير منتظر

قلبي يحدثني في كل آونة

من أنت واكشف قناع الشك والريب

أن اسمك الحق إسعاف النشاشيبي

وصدق حدس البيومي وتوقعه، وحازت القصيدة إعجاب النشاشيبي والزيات، وكانت له به بعد ذلك معرفة ومناقشات، غير أن القصيدة لم تنشر وقتها رغبة من النشاشيبي نفسه حتى لا يعرف.

كانت هذه بعض صفات الكاتب العملاق التي تعكس لنا بوضوح طبيعته السمحة وشخصيته الفريدة، وتكوينه النفسي السامي الذي لمسه فيه القاصي والداني.

كما كان عزوفًا عن الأضواء والبوارق، ولم يشارك في السياسة في عهد كانت فيه هذه المشاركة بابًا من أبواب الذيوع الرنان، ويقول عنه الكاتب وديع فلسطين: "اختار العيش

في المنصورة بعيدًا عن وهج العاصمة عزوفًا منه عن الحياة الاجتماعية، ونأيًا عن الانتساب إلى أية جماعة أو هيئة خاصة أو حكومية، كما أنه لم يكن خُبَّة في علم العلاقات العامة، أو حتى العلاقات الخاصة، ولا ازدهته أضواء المهرجانات والمؤتمرات والاحتفالات التي تكاثرت في حياتنا الثقافية».[1]

ويقول عنه الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الأسبق د- محمد الشحات الجندي: "وسيرة الرجل ثرية لم تأخذ حقها، ولم تنل حظها الذي تستحقه أدبا وشعرا، لأنها لم تكن من طلاب الشهرة، ولا من بين من ملأوا الدنيا ضجيجا بأعمال دون المستوى، بل آثر الرجل أن يبدع في صمت، وأن يعيش بين تلك الشخصيات التي تنكر ذاتها، لا تبحث عن شهرة ولا تجري وراء مغنم ممن كثروا في هذا الزمان برغم كساد تجارتهم وبوار بضاعتهم"[2]

ومما لفتني من صفاته حديث الدكتور القاعود معه إذ ذكر أنهما "اجتمعا سويا وكانا يتشاكان مما يفعله معهما بعض الناشرين، فأخبره البيومي أنه يقبل نشر كتبه دون عائد مادي لتكون بين يدي القراء بدلا من أن تضيع أصولها هنا أو هناك في حياته أو بعد مماتهوقد كانت نظرته صائبة في ظل الظلم الذي يمارسه بعض الناشرين الذين يدفعون للناسخ والطابع والحمال ويرون المؤلف لا يستحق شسيئا ، كما كان يقول للقاعود بأسى: إنه ينتظر ثوابه من الله"[3]

[1] - مجلة المنهل عدد 626
[2] - مجلة الأزهر عدد مارس 2011م
[3] - أعلام في الظل- د. حلمي القاعود

الأديب الإنسان

حكى لي صديقي الأستاذ سامح ماهر أن زوج خالته وكان أستاذا في كلية العلوم، وجارًا للدكتور البيومي في المسكن، وفى أحد الأيام قابل الدكتور البيومى ووجده في حالة حزن شديد بسبب قطة، نعم قطة تسلقت إلى مكان عال وعجزت عن النزول فأخذت تصرخ مستنجدة، وأراد الدكتور البيومي الاتصال بالمطافئ لإنزال القطة من مكانها.

وقصة شبيهة بها حكاها تلميذه الدكتور الوصيف فقال: "تكشفت لي جوانب العظمة في إنسانيته التي تنطق بإبهاره وإدهاشه وهو يرتجف ، ويرتعد ولا يغمض له جفن ، ولا يهنا له مرقد حين يسمع صوتا لا ينقطع من قطة وراء الجدران وهي تصرخ داخل محل مغلق وكأنها تستنجد بمن يفك أسرها ، ويحررها من سجنها ، ويطلق قيدها. إن هذا النواح الذي ينبعث مستغيثا من حنجرة هذا الحيوان الضعيف. يحرك مشاعر وعواطف هذا الإنسان الرقيق العطوف فتزداد مواجعه، وتثار دفائن الهم والحزن في صدره ويتحول عويل القطة لديه إلى شيء آخر إذ يتمثل صورة الضعيف الذي يقهر فيخضع، ويُغلب فيستدل ، ويستعبد فيستسلم ، ويُؤسر فيسترق ويبدأ أستاذنا في التقدم نحو الحل، لو أن القطة الأسيرة محبوسة في بيت الذهب إليه، وأطلق سراحها وبذلك تندمل جراحات قلب هذا الإنسان العظيم التي أحدثها هذا العويل، ولكن ماذا يفعل والمحن مغلق ولا يعرف أين يسكن صاحبه ؟ لقد توجه لاستدعاء شرطة النجدة لتحرير القطة من محبسها وجاءت وحررتها هكذا حكت إحدى بناته، وأنا أتساءل كم من أناس سمعوا بكاء القطة المتواصل ليلا وعويلها كما سمعها أستاذنا ؟ لماذا أقضت مضجعه ، وأذهبت النوم من عينه هو دون

سواه ؟ لماذا لم تثر في غيره ما أثارته فيه من مشاعر وعواطف ومواجع؟ لسبب واحد ، لأنه ليس كغيره ولأن ما يقلبه الكبير أثر من المحبة والرحمة والإنسانية تلك الرحمة التي أنصرته يوما وكنا نسير معا في الشارع وهو يرتجف ويكاد يبكي حين يرى سائق عربة يجرها حصان والعربة عليها حمل تقيل والحصان ينوء بحر العربة والضربات بالكرباج تنهال من يد السائق على الحصان بلا رحمة ولا حساب وهو ينظر إلى المشهد الأليم و يوجه حديثه إلى سائق العربة في عنف أراه منه لأول مرة من لا يرحم لا يرحم"[1]

رجل في مكانة المفكر الكبير لم يتجاهل نداء حيوان أعجم ولم يأخذه الكِبر والتيه، لكنه كان إنسانًا حقيقيًا رحمه الله.

فما أعظمه وأرقاه رحمه الله! وكم نلمس هذا كثيرًا في أقواله وأشعاره فهو يتأثر للألم يقع على كل كائن حي، إنسانًا كان أو حيوانًا أو طيرًا، ويؤلمه الأسى يحل بساحات غيره، ولو كان غيره مخالفًا له في السمات والعقيدة.

يقول تلميذه الدكتور السواحلي: "الدكتور- رجب الذي كان يتعامل بقلبه في كثير من المسائل العلمية والإدارية، وربما جرته عاطفته الرهيفة إلى شيء من التهاون، فقد أراد مدير كلية اللغة العربية بالمنصورة الدكتور- فيما بعد عبد الحميد الطنطاوي - رحمه الله - أن يوقع جزاء ماليا بأحد العمال لتقصيره في النظافة، فذهب العامل يشكو إلى العميد فرق لحاله، ولم يوقع استمارة الجزاء، واستدعى المدير، وقال له: يا عبد الحميد، لقد ترك التراب لمن شاء أن يتيمم، وأمارات هذا الإحساس البالغ الرهافة كثيرة في دواوينه، فدمعه

[1] -من حديث الذكريات عن الجانب الإنساني في حياة فارس القلم د محمد رجب البيومي ، للدكتور الوصيف هلال الوصيف

السكوب في رثاء زوجه الرؤوم في ديوان كامل هو (حصاد الدمع) دليل على رقة شعوره وحنوه على الغصن الذي هصرته يد قاسية في قصيدته: (إحساس النبات)، وأساه للأسد الأسير في حديقة الحيوان في قصيدته (الأسد الباكي)، بل تعاطفه مع فأر مريض)، ومع (القط الأعمى) وغير ذلك من المواقف والقصائد يدل دلالة واضحة على هذه النزعة الإنسانية".[1]

أما عن صفة الوفاء، فقد حاز فيها قصب السبق، ولعل أبرعها وأبرزها فيه ما كان من وفائه لزوجته التي توفيت وتركته وأبناءه الصغار فحزن عليها حزنًا كبيرًا مما دعاه أن يلجأ إلى الشعر ليعبر عن أساه، ولكنه قبل ذلك عبر عن صفة الوفاء العظيمة التي تميز بها رحمه الله، فكتب ديوانه (حصاد الدمع) في رثائها. يحكي أحد تلامذته في المملكة العربية السعودية فيقول لنا: في كلية اللغة العربية، يدرسنا مادة الأدب، وكان هو أديباً شاعراً رقيق الإحساس لطيف المعشر، وتوفيت زوجته – رحمها الله – في الرياض أثناء الولادة، فأصابه حزن شديد جداً، ولازمه زمناً طويلاً، ونشأت بيني وبينه صداقة أعتز بها بعد أن أصبحت معيداً في الكلية، وكنت أمرُّ عليه أحيانًا في شقته بسيارتي لنخرج معاً نروّح عن النفس، وزرته لهذا الغرض مرة، فدعتني طفلته للدخول، فوجدته يمشِّط شعر طفلته الأخرى الأصغر بنفسه فأخذتني رحمة شديدة وتقدير جديد له فهو قد وهب وقته ونفسه لصغاره.

ومما قال في زوجته الراحلة في قصيدته أكباد أطفالي:

أكبادَ أطفالي دَهَتكِ النارُ

---

1 - أصداء المعري في شعر البيومي د- مصطفى السواحيلي

أكبادَ أطفالي كففتُ مدامعي

إني لأَحذَرُ من دخولي منزلي

أتمثَّلُ الأطفالَ في حسراتِهم

وتجيءُ "غادةُ" وهي ذاتُ ثلاثةِ

فتقولُ: أمي يا أبي قد أبطأتْ

حَلّ المساءُ ومرقدي بجوارها

لم تَدرِ ما حَجمُ المصيبةِ ويحها

أيعيشُ في لهب الجحيمِ صغارُ؟

ورأيتكُنَّ فهاجني استعبارُ

هَلَعاً وما يغني لديَّ حذارُ

كمداً ولا يَخفى عليَّ سرارُ

ولها كرَبَّاتِ الحِجا استفسارُ

باللهِ أينَ مكانُها فتُزارُ؟؛

أأبيت وحدي ما لديَّ جوارُ؟

وأنا بها أدرَى فكلي نارُ".

ويحكي الأستاذ (محمد فؤاد علي) فيقول:

"في صيف 1990م- زرت الدكتور البيومي في منزله مع أصدقاء لي فاستقبلنا الرجل أحسن استقبال وبعد الترحيب ولوازم الضيافة أخذنا أطراف الحديث في الأدب والثقافة، وكان الرجل ينساب انسياباً عذباً فتنبع منه الذكريات حلوة مشوقة وقد تكرم علينا بعد أن طوفنا في مكتبته التي تشغل جلّ المنزل الواسع وأعطى كل واحد منا نسخة من أعماله الشعرية وكانت وقتها (حصاد الدمع)، (من نبع القران)، (حنين الليالي) وحين قدم لنا ديوان (حصاد الدمع) تطرق في الحديث إلى ذكرياته مع زوجته وكيف عرفها وكيف اختارها من بين تلميذاته في الثانوية الأزهرية من أحد مراكز صعيد مصر ثم ذكر رحلتها معه في الزواج وبعض طبائعها وأخلاقها ثم دخل في سرد الذكريات المؤلمة ورحلتها مع المرض في السعودية ثم كيف رجع من دونها ثم أنشد يقول هذه الأبيات:

يقولون (ماما) كلما عنّ مشكل وأولى بهم أن يسكتوا لو تعقلوا

يقولون (ماما) ما الذى أنا صانع؟ ومن دون (ماماهم) تراب وجندل

يصيحون هلا قد ذهبت تعيدها! كأني برد الراحلين موكل

شديد على نفس الأب البر موقف يهيب به أطفاله ثم ينكل

يعذبه إحساسهم برحيلها وإحساسه الدامي أشد وأهول

يقولون (ماما) من يلوم مقالهم وقد غاب عنهم وجهها المتهلل

تربو فراخا في العشاش تزقهم حمامة أيك بالأهازيج تهدل.[1]

وكان الرجل يستشهد بالأبيات بطريقة مؤثرة، وإذ بالدموع تترقرق في عيني.

ودعنا الرجل رغم ما أكنه من حزن شفيف لذكرياته"[2]

وأمام هذا المشهد نتلمس فيه الحب الكبير والوفاء الشديد للفقيدة الراحلة.

يقول تلميذه الوفي الدكتور الوصيف هلال الوصيف: " إن الإنسانية بكل ما فيها من المعاني النبيلة تتجسد في شخصه، فهو حان عطوف لا يعرف القسوة تؤلمه القطيعة ، متسامح إلى أبعد ما يمكن أن ينصور وفي لمن يعرفهم ولدى في هذا قصص وحكايات تعصف بقلبه أوجاع الأرامل واليتامى والمساكين يحب معالي الأمور ومن إنسانياته أنه لا يمنع توجيهه عن أحد فهو بأخذ بيد الأدنى ليعلو ويرتفع ويثبت قدم الأعلى ليستمسك وليبقى ويستمر.. لقد كان رحمه الله نسيما رخيا يهب على أرواح من يطلب المعونة وكان يضعضعه الألم ويرفض عنه الصبر ، ويتملكه الجزع حين تتناهى إلى مسامعه أحاديث البؤس وحوادث أهله خصوصا من كان يعرف أسرار بيوتهم ممن ركبهم الهم ، وأقعدهم المرض وتفجرت عليهم المصائب إذ يكاد يبكي لأناتهم ووجائعهم وأذكر في هذا قصصا وحكايات تنبئ عن قلبه الرحيم إذ تراه يتخذ من علاقته بذوي الشأن سبيلا إلى فتح أبواب

1 - المصدر السابق
2 - من مقال قراءة في ديوان(حصاد الدمع) د/ محمد رجب البيومي- بموقع القصيدة العربية

الرزق المغلقة في وجوه الضعفاء المسحوقين الذين هدهم المرض وذلك بمحاولة تعيين أرملة فقدت عائلها وخلف لها صبية صغارا أو زوجة زوجها مقعد مصاب بالشلل وعن هذا الطريق يسر باب الرزق لعدد من العاملات في المعاهد الابتدائية الأزهرية . هذا وإن عينه لتفيض بالدمع حين يجد من يشكو الفاقة ولذا كان يسعى ما وسعه السعي لدى ذوي المروءة من أهل الخير ممن يطمئن إلى نيلهم يطلب معونتهم لوضعها في يد هؤلاء الفقراء من طالبي الإسعاف والعون."[1]

[1] - من حديث الذكريات عن الجانب الإنساني في حياة فارس القلم د- محمد رجب البيومي

فارس القلم

ما أجمل ما وَصف به شيخنا الدكتور البيومي إمام العربية الأكبر (مصطفى صادق الرافعي) في كتابه عنه تحت عنوان (فارس القلم تحت راية القرآن) والحق أن هذا المعنى عندي لا ينفك أن يوصف به البيومي نفسه، فقد كان بحق فارسًا من فرسان الإسلام الأماجد، الذين كانت لهم صولاتهم وجولاتهم التي تشهد عليها ما خلفه من آثار وتراث وعلم وأدب، وإذا كان قد منح الرافعي هذا الوصف، فمن باب أولى أن يوصف به أستاذنا الدكتور البيومي، فلا يكتب عن الفارس إلا فارس مثله، شهد له محراب القلم حينما أمسك به هذا الكاتب العملاق.

كان رحمه الله "شخصية متعددة المواهب والجوانب فهو الشاعر الفحل والأديب المبدع والناقد المنصف القصاص الشائق والمؤرخ الموسوعي الذي تميز بموسوعية العالم وموضوعية الباحث وعمق المحلل مع رشاقة الأسلوب وجمال البيان والبراعة في التحليل الإبداع والتميز في تناول المشكلات وحلولها"[1]

لقد عاش البيومي راهبا في محراب الفكر والعلم، وما أجمل ما قاله عنه أحد تلاميذه وهو يصفه لي بقوله:

-ما رأيته إلا كاتبا أو قارئا.

[1] - موقع إسلام أون لاين

"كان رحمه الله متواضعًا زاهدًا في حطام الدنيا، عازفًا عن المناصب والشهرة، يجد متعته بين كتبه، أبعد ما يكون عن الأضواء، وأزهد الناس في المدح والثناء عف اللسان، طيب القلب، شديد الإخلاص.. سبعون عامًا من العطاء قدَّم فيها الدكتور البيومي إنتاجًا أدبيًّا وعلميًّا غزيرًا في مختلف فروع اللغة العربيَّة والدراسات الإسلاميَّة، وكان حريصًا على نشر ما يكتبه بأيَّة صورة، وفي أي مكان، ولو لم يكن هناك عائد مادي من وراء نشره، ذلك لخدمة القراء والدين واللغة والأدب."[1]

ويقول فيه تلميذه المقرب المرحوم الدكتور الوصيف هلال الوصيف: " من أي النواحي طالعته بمرك وأدهشك، وأخذك إلى عالم كانت العظمة أصلا في طبعه. وكان الوقت بالنسبة له هو مجال استثماره؛ إذ ما ذهبت إليه مرة إلا وجدته في تواضعه الجليل، ووقاره المهيب يقرأ أو يكتب. فهو على قمة أصحاب المواهب الخارقة التي لا تتوفر كثيرا لغيره. وقد رزق ذاكرة فولاذية هذه الذاكرة الحديدية تتميز بالتألق ، والقوة والسعة فأستاذنا – غفر الله له – يقرأ فيعي ويحفظ ثم لا ينسى مما وعى حرفا ، ولا كلمة، فإذا ما سُئل عن نادرة ، أو مسألة ، أو بيت شعر إلا انطلق في سرعة ضوء البرق مجيبا وكأنه فرغ من دراسته للحظة واحدة ويجيب في إفاضة ، وتدفق ، وإبهار ويفتح مجالات للقول بينها وبين السؤال أدنى ملابة ويزاوج في حديثه بين البلاغة والشعر ، ويعاقب بين الإقناع والإمناع ويتنقل بمخاطبه في أجواء متعددة مما يجعله يشعر أنه أمام بحر يأخذ حسه بروعة المجهول ، ويعلمه ما لم يكن يعلم، مما يدرك معه أن نبوغه ليس قوة في ملكة على حساب ملكات وإنما النبوغ قائم على أنه موسوعة ثقافية وأن صاحبها لو أراد أن يتخصص في فن

[1] - المصدر السابق

واحد لما استطاع فهو مؤرخ ، مفكر عالم ، راوية، ناقد ، أديب فيلسوف ، حكيم ، وهو شاعر يملك من رقة الشعور، ومن رهافة الحس، ومن بلاغة الكلمة ما يحفظ للبيان العربي قدره المأثور الذي يتطاول به على القرون، ويزهو به على الزمن ومن المثير للدهش أنك حين تبصره وهو يتحدث تراه مزيجا عجيبا من الجاذبية التي تبعث السحر الذي يشيع في العين، ويشع في النفس والرجل على بساطته، وبراعة فكرته وسلامة نقده ، وملاحة نكتته، وطلاوة خبره ، فتنة الفنان ، وجنة المفكر"[1]

ويقول الدكتور القاعود في معرض وصفه له في كتابه أعلام في الظل: " وقد عرفت البيومي منذ صباي – أي قبل خمسين سنة تقريبا – قارنا لكتبه، ومتابعا لمقالاته في الرسالة والثقافة والأديب، ورابطة العالم الإسلامي، والتضامن الإسلامي والمنهل ومجلة الأزهر على عهد الزيات، وغيرها من المجلات، كما عرفته شخصيا بعد حين، وزرته في بيته ومكتبه أكثر من مرة بالمنصورة، وساعدني في بحوثي ودراساتي ورأيت فيه نموذجا للأديب الجاد المخلص لرسالته القائمة على التصور الإسلامي، وقد بهرني بقدرته على الحفظ، وهيمنته على الكتابة، وقدرته على الصياغة الجميلة التلقائية بطريقة لا تتوفر لكثيرين، لدرجة أنه يكتب دون مسودة، ودون أن يترك مجالاً لتصحيح ما يكتبه، فهو يملك ناصية التعبير والنحو والبلاغة كأنها سليقة فيه، وطبع أصيل غير مكتسب، بل إنه حين يقتبس عبارات أو فقرات يكتبها من ذاكرته ويتبعها برقم الصفحة في الكتاب، والجزء إن وجد.. وقد رأيته يشير إلى قصائد الشعراء مختلفين في مجلدات الرسالة والثقافة ونور الإسلام، وغيرها، ويذكر رقم الصفحة ورقم الجزء، وكنت أفتح الجزء على الصفحة التي ذكرها فأجد ما

[1] - من حديث الذكريات عن الجانب الإنساني في حياة فارس القلم د- محمد رجب البيومي

ذكره صحيحا.. وقد ساعدته هذه الخاصية على إقامة الحجة على كثير من الكتاب الذين يخاصمون الإسلام، أو يعادونه بسرعة فائقة."[1]

لعل قطاعات عريضة من المثقفين اليوم يجهلون اسم الدكتور محمد رجب البيومي، وبعض المتدينين للأسف لا يعرفونه حق المعرفة، التي تعبر عن فضله ومقامه، وذلك يرجع في رأيي أن يكون عليه ابتداء قبل أن نلومهم، فقد كان زاهدًا عزوفًا عن وسائل الإعلام، وهو من هو علمًا وقدرًا ومكانة، بعكس الدكتور محمد عمارة، الذي كان يجوب كل وسائل الإعلام، فلمع اسمه وبرق شخصه، وانعكس هذا الظهور على فكره ورسالته، والبيومي رحمه الله قد خاض أغلب القضايا والمعارك التي خاضها الدكتور عمارة ضد خصوم الإسلام، وربما بعمق ودقة أكثر، ولكن المتابعين لا يعرفون غير عمارة، لتوثبه الإعلامي، بينما قبع شيخنا البيومي خلف القلم، وكان نافذته الوحيدة التي أطل منها على قرائه.

ولكن ذلك لا ينفي ما قدمه هذا القلم من بسالة ساطعة في ميدان الانتصار للإسلام.

وإذا كان لنا أن نتكلم عن العالم المفكر؛ فإننا نتكلم من بأب أولى عن الغيرة التي اقترنت بها صفته العلمية، فكان الكاتب والمفكر الغيور الذي تصدى للمرجفين بعلمه الوفير وأدبه المتميز، فرد كيدهم في نحورهم وألزمهم حدودهم، وعرى حقائقهم الواهية أمام الناظرين.. ولعل لفظة الغيرة من أهم اللفظات أو السمات التي نُلصقها بالدكتور البيومي رحمه الله، لأنه لم يكن مجرد كاتب أو مفكر يناقش بعض الآراء والنظريات، من

1 ـ أعلام في الظل د حلمي القاعود

وجهة علمية أو منطقية، وإنما كان قلبه يغلي من افتراء الجاحدين على الإسلام، مما كان يدفعه كثيرًا أن يعبر عن شعوره بالأسف والضيق والتحسر والحزن.. وهي المشاعر التي كانت تؤجج لهيب قلمه، لينطلق كالسيف الحاد، والحربة القارعة، التي ترد الكيد وتفضح الكذب.

وفي أكثر من موطن من مقالاته وكتبه يلوح بهذه الألفاظ أو المشاعر التي تعكس الغيرة العظيمة على الإسلام ورموزه وشريعته وتعالميه، فكانت أحيانًا تبلغ قسوتها العارمة لتعبر عن مدى الأثر السيئ الذي تركته في نفسه، وكانت تتنوع ما بين التعجب والاستنكار والحزن والضيق والأسى، والشدة والقسوة في التعبير، والدهشة والسخرية أحيانا، فنراه تارة يقول عمن يثيرون الشبهات ضد الإسلام:

"إن خوضهم في الباطل يدفعنا إلى أن نفضح من مغالطاتهم العجيبة ليهلك من هلك عن بينيه، ويحيا من حيَّ عن بينة"

وفي موطن غيره يقول: "ونقرأ تهجمًا على المقررات المدروسة، والحقائق الثابتة، فتشتعل نيران الحقيقة في صدرك".

يشاع عنه رحمه الله كما أوردنا في الحديث عن صفاته، أنه لين الجانب رقيق الشعور هادئ الطباع ظريف طريف محبوب، لا يحارب أحدًا ولا يحب أن يُحزن أحدًا، ولا تسمع منه كلمة قاسية أو ترى منه حالًا عنيفًا، وهذا فعلا صدق وواقع أمام كل من عاشر الدكتور وصحبه و عمل معه، لكن هذه الحقيقة يجدها القارئ تتبدل في بعض المواطن

والأحايين، خاصة في نقاشاته وردوده الفكرية، واعتراضاته على المغرضين من أعداء الإسلام، فإنه يتحول إلى مقاتل جسور يودع الرقة ويخاصم الوداعة ويهجر اللطف ليشن غارة كاسحة، يسحق بها أهل الزيف والإفك، ومع كل هذا تقوم في ظلال من الأدب وسياج من الاحترام، الذي كان شعاره وسمته طول حياته.. فتراه يرد على أي خصم من الخصوم مهما كان حاله وموقعه، ومهما حتى بلغت وقاحته وعدوانه، فإذا به يقدره ويمنحه لقبه الذي عرف وقدم به، كالأستاذ أو الدكتور أو الباحث أو المحقق، وقد يكون الرجل من هؤلاء موغلا في التجني على الإسلام بالكذب والافتراء، ومع هذا يحرص على مناداته وحواره بلقبه العلمي، ولا ينزلق أبدًا إلى خصومة تتجرد من الحياء والمروءة والاحترام والشرف، ليعطي نموذجًا عظيمًا لسمو الفارس المسلم ومثالية الكاتب الراقي الذي يمثل الإسلام ويعبر أو يدافع عنه.

يقول القاعود: "انعكست طبيعته المسالمة على علاقاته بالسياسة، فلم يأخذ موقفا حادا من السلطة، وإن كان يعارض المواقف التي تخالف الإسلام والحرية من خلال مواقف بعض الكتاب والمثقفين، سواء كانت تتعلق بالشريعة أو العقيدة أو التعليم أو الثقافة أو غيرها، بل إنه في حواره مع أصحاب هذه المواقف يفضل في الغالب ألا يذكر أسماءهم، اللهم إلا إذا كانوا من الأجانب أو من الراحلين، فهو في كل الأحيان يريد أن يعيش في سلام لا يترك في نفس خصومه أثرًا من انفعال أو غضب. وقد يرى البعض هذه

سلبية، ولكنه كان مقتنعا بها، وكان يرى أن اللدد في الخصومة يشغله عن القراءة والكتابة، وهو ما لا يستطيع تحمله."[1]

لقد كان الدكتور البيومي على علاقة بالأستاذ خالد محمد خالد قبل أن يصدر كتابه من هنا نبدأ، والذي أثار ضجة هائلة، وكان رد الشيخ الغزالي عليه عنيفًا في كتابه (من هنا نعلم)، وقد تألم منه خالد أشد الإيلام كما ذكر في مذكراته.

وسارع شيخنا الدكتور البيومي يتصل بالشيخ الغزالي ويقول له:

- الأستاذ خالد عزيز علينا، وهو منا ونحن منه، فلا بد أن ترفق به.

فابتسم الغزالي وقال له:

-وهو ما تقول يا رجب، ولكن المسألة قد خرجت عن نطاق الأستاذ خالد، حيث تلقفها خصوم الإسلام مضخمين، فنحن نريهم وجه الحق، والحق أحق أن يتبع.[2]

وتذكر البيومي كيف كان أحباء خالد وهو منهم، يأسفون على شططه في كتابه، وكانوا يتلمسون له الرُجعى لثقتهم في عقله اللامع وبصره الثاقب، حتى طلعت جريدة الأخبار يوم 9 رمضان 1397- 23 أغسطس 1977 بمقاله الرائع، (دين ودولة وعبادة وخلافة) فكانت رجعته فاجعة، في قلب أنصاره من اليساريين والشيوعيين حتى أنه شفى مما ذكر صدور قوم مؤمنين، وكان شجاعًا في رجوعه إلى الحق.

1 - أعلام في الظل د- حلمي القاعود
2 - راجع كتاب قضايا إسلامية ج2 د- محمد رجب البيومي

ولعل الدكتور البيومي وفي لفتة دقيقة يفرق بين أصحاب الرأي المخطئ وبين من بنيت حياتهم كلها على الخطأ، فهو يدعو للرد على صاحب الرأي المخطئ بالتريث والهدوء والحكمة والموعظة الحسنة والرفق، لأنه قد يفيء إلى الحق ويدرك الصواب، كما عاب رحمه الله على المتهورين في الردود دون أن يدركوا أن صاحب الرأي المخطئ يحمل نفس الإيمان الذي يحملونه، فيضطرونه بالهجوم عليه أن يوغل في الخطأ ويتمسك به.[1] ضرب العلامة البيومي بفكره الواسع وعلمه المتنوع في كل كثير من ألوان العلوم وفنونها، فلم يقف عند تخصصه الأدبي واللغوي، وإنما توسع في ميادين شتى شهدت بتبحره العلمي الفريد، لقد كان نابغة في النقد الأدبي يقول عنه الدكتور محمد الجوادي: "كان ناقدًا أدبيًا من طراز رفيع قادر على التمييز وكأنه العالم المحلل في معمله، وكان على سبيل المثال قادرًا على الفصل الحق في مدى حاجة الإبداع الفني والأدبي إلى التشبيه والمجاز والاستعارة، وبين إقحام صور مفتعلة من هذه التقنيات الفنية على النصوص ابتغاء تحوير طابع الأدب إلى شيء بعيد عن الأدب، وكذلك كان الدكتور محمد رجب البيومي أستاذًا للدراسات الأدبية مستوعبًا لمناهج التفكير والنقد والكتابة، وكان رحمه الله واعيًا للعوامل المؤثرة في صنع المدارس الجديدة، وفي استمرار المدارس القديمة، وكان قادرًا على أن يميز بين المعقول والمنقول، وعلى التمييز بين المعقول وغير المعقول، وعلى التمييز بين المنقول عن نص موجود أو فعل موجود وبين الانتحال والاصطناع.

وكما كان الدكتور محمد رجب البيومي ناقدًا أدبيًّا لا يشق له غبار وأستاذًا فذًا للدراسات الأدبية فقد كان بتعبير القدامى ناقدًا بلاغيًا من طراز رفيع يعرف موضع

1 - راجع المصدر السابق

الكلمة في الجملة، ومكان الجملة في النص، ومدى ما يمكن لموقف أن يحقق من تغيير في المعنى" أما عن أسلوبه فيقول الجوادي كذلك "تميز بأسلوبه الفذ الذي ينم عن شخصيته وكان في كتابته كما هو في الحياة إنساناً راقياً مستنيرًا، واسع الأفق، خفيف الروح، مهذب اللفظ، قادرًا على استكناه الحقيقة، وفهم الدوافع."[1] والبيومي مدرسة أدبية متميزة، فقلمه كما وصفه بعض المحللين يمتاز بسمات فنية عديدة أبرزها:

- جودة عرض المادة العلمية.

- عمق الفكرة.

- جدة الموضوعات.

- الإبداع والتميز في تناول المشكلات وحلولها.

- الدقة في الاستدلال

- المهارة في الاستنباط.

- البراعة في التحليل.

- الأسلوب الجذاب الشائق.

[1] - من مقال للدكتور محمد الجوادي بموقع أبو التاريخ

وفوق هذا كله كان له نبوغه وتميزه في ميدان التاريخ والرصد الزمني يقول تلميذه الدكتور علي زين العابدين الحسيني: "في كثير من تراجمه التي خطها بيمينه لم يكن هناك ذلك النتاج الذي يلزم ويكفي في الكتابة عن الأشخاص مما يدل على عظم ما أنتجه في هذا الجانب، كما انفرد في كثير من مقالاته بالحديث عن شخصيات لم يجر لها ذكر من قبل، وتخصص في نقل روايات عزيزة عن كثير من الأعلام كانت في طي النسيان لولا أنه كتبها، فحفظها لنا في كتبه، ولذلك كانت خطوته في الكتابة عن بعض الشخصيات بمنزلة المغامرة الكبيرة، أو الوثبة في المجهول، وأظن أن أستاذنا لم يكن ليفكر بخوض غمار هذا المشروع الكبير في هذا الطريق المجهول في كثير من جوانبه إلا وهو متأكد أولاً من أهميته العظمى في إعادة بناء الثقة بين الناشئة وبين عظمائهم من ناحية، ومن ناحية أخرى قدرته على الابتكار والتجديد في الدراسات التاريخية، فقد سجل لنا جنساً جديداً من الدراسات التاريخية الأدبية له الحق في الوجود والتواجد، ولو قدر لعبقريّ العربية وعميد الأدب العربي الحديث "محمد رجب البيومي" أن يواصل الكتابة عن كلّ أعلام عصره ومن عرفهم أو لقيهم لأسدى لنا مادة فريدة وعملًا متقناً؛ لانفراده بتقبل الآخرين واتساع آفاق البحث لديه، فهو يختلف عن غيره كثيراً، ومن أوجه الاختلاف طريقته في التأليف، فلا يودع في مؤلفاته معلومات أمدته بها المطالعة في المصادر، ولكن يكتب فيها ما حصله ذهنه من هذه الكتب بعد قراءة واعية، ومطالعة وإدراك وإضافة".

ثم يقول: "ويلوح لنا بكل المقاييس التاريخية مؤرخاً راوية صاحب بعث حركة تاريخية أدبية بمفهوم وبأسلوب جديد لم نألفه من قبل في كتب المؤرخين، يستنطق الأحداث والروايات بمنهجية تحليلية، وبكلّ مقاييس علم الرواية والتلقي"[1]

ولعلك هنا تلمح في تقريظ الجوادي له ومعه تلميذه الحسيني، وكيف تركز حديثهما عند التخصص في النقد والبلاغة والأدب واللغة، وامتد إلى براعته في الترجمة والتأريخ ووعيه الثقافي والمعرفي، ولم من حضوره الفكري، إلا أن عالمنا الكبير، كان له ميدانه الفكري الفسيح، الذي استطاع من خلاله أن يكون من أكبر المنافحين عن الإسلام في العصر الحديث، وما شهدته الأيام من ملاحمه وخصومته الفكرية التي كان فيها الحارس الأمين وحامل لواء الدفاع عن الإسلام في وجه خصومه والجاحدين لنوره وهديه، والذي يعد من أكبر الميادين التي كان له فيها وجود قوي ملموس، حيث استطاع بما قدم من حجج العقل والعلم والمنطق والحوار، أن يقهر خصوم الإسلام، ويبدد شبهاتهم، ويمثل في حلوقهم شوكة قوية عصية على الكسر والالتهام.

وتلامذة الدكتور البيومي وممن تتلمذوا على يديه في ميدان اللغة والأدب، قد تجرفهم براعته ونبوغه في ميدانه عن جسارته الفكرية، وتصديه الجسور لأعداء الإسلام، فأغفلوا فيه هذا الجانب العظيم الذي كان فيه من أهم ميزاته التي جعلت منه حارسًا من حراس العقيدة الشوامخ، وفارسا شجاعا طالما شمر عن ساعده ينافح عن حوض الإسلام،وتضح بجلاء أن مواقف الدكتور البيومي في الانتصار للإسلام هي التي حجبته

[1] - من مقال للدكتور علي الحسيني تحت عنوان خماسية محمد رجب البيومي مجلة النيل والفرات العد 36

عن منصات التكريم ونيل الاعتبار الذي يستحقه علما وأدبا يقول الدكتور القاعود: " في غمرة الأحداث الكبرى التي شهدتها مصر بعد تفجر ثورة الشعب الفريدة في التاريخ (يناير (٢٠١١م) ، فلم يلتفت إلى وفاة الرجل أحد من أهل الإعلام أو الأخبار؛ غير نعي قصير مدفوع الأجر، نشرته مشيخة الأزهر في صفحة الوفيات بالأهرام، ومقال نشره أحد تلاميذه في صحيفة أسبوعية.. ولا أظن أن الأمر كان سيختلف كثيرًا لو توفي البيومي في الأيام العادية، فالرجل بما يمثله من دفاع عن الإسلام وحرص على قيمه وفكره، لا يعجب القائمين على الصحافة والإعلام في بلدنا، فمعظمهم موال لقيم وأفكار أخرى غير التي يؤمن بها البيومي وأهل الثقافة الإسلامية العربية ومع أن الرجل أحرز كثيرًا من الجوائز الأدبية في شبابه، وخاصة جوائز مجمع اللغة العربية بالقاهرة، لدرجة أن لجنة الجوائز وضعت شروطا لتتيح لغيره من المتقدمين فرصة الفوز، وتحدّ من فوزه؛ فإن الجوائز التي تمنحها، وزارة الثقافة المصرية لم تعرف طريقها إليه، بسبب دفاعه عن الإسلام، بل أنها عرفت طريقها إلى من لا يحسنون الإملاء ولا النحو ولا يملكون البلاغة ولا الفكر، وكان يقول لمن حوله حين يسألونه عن عدم فوزه بجوائز الدولة : إنني أبحث عن جائزة من الله."[1]

ولا يفوتني هنا ما ذكره فضيلة الشيخ أحمد مصطفى فضلية من انتصاره للحق ودفاعه عن الإسلام حيث قال: " كان البيومي شجاع القلب، قوي النفس، بعيد الهمة،

[1] - أعلام في الظل - د. محمود حلمي القاعود

صلبًا في الحق، غيورا على الدين، لم تثنه المكاره عن الدفاع عن الحق، ومناضلة دعاة التشكيك والبلبلة، والمبتدعين في الدين، بعلمه الغزير وقلمه البليغ، فكتب وألف، وروى وحدث، وكان في كل ذلك الحجة الثبت، والإمام الصدوق"[1]

ولعلي في هذه السطور أسلط الضوء على بعض جهوده في هذا الميدان، ليبرز لنا حجم الخسارة الكبيرة التي فقدناها برحيل هذا المفكر العملاق، وفارس القلم المغوار الذي كانت له صولاته وجولاته التي أعيت خصوم دينه وأعداء ملته.

كان البيومي يحترم قلمه فلا يفتي في أمر أو يخوض معركة أو نقاشاً دون علم وفهم، بل كان في ردوده وحواره ذلك الكاتب الحاذق الملم بكل الجوانب والأبعاد التي تخص القضية التي يتحدث فيها، ولعل هذا من ما عابه على كثير من الكتاب الذين يتناولون أمورًا هم بها جهلاء، وليست في مرمى تخصصهم، ففي كتاب (أيام لها تاريخ) للأستاذ أحمد بهاء الدين؛ ذكر فيه حديثاً عن كتاب الإسلام وأصول الحكم، مليئا بالخيالات الواهية الكاذبة التي لا تمت للحقيقة التاريخية بصلة، ضارباً بكل ما وُجه من ردود عرض الحائط، وأعاد الكرة وردد الشبهات التي دوى بها الكتاب، ونشط أنصار الحقيقة للرد على كل ما كتبه أحمد بهاء الدين، بحيث غدا قارئ هذه الردود يتساءل: لماذا تحدث الأستاذ بهاء الدين في أمر يجهل كل شيء فيه، وليت الأمر وقف عند بهاء الدين، بل كان "العجب العجاب أن يتبنى الدكتور جابر عصفور مقدم الكتاب كل ما قاله الأستاذ أحمد بهاء الدين من أباطيل

[1] - مجلة الأزهر عدد مارس 2011م

ثبت زيفها الصارخ، وأن يتعجل الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي فينقل إلى قراء الأهرام ما ذكره الدكتور عصفور مؤيدا مزكيًا!"[1]

وهنا يأتي رد الدكتور البيومي العاصف، الذي نال به من عدوان الكاتبين على الحقيقة ومجافاتهما للإنصاف، وعدم اعترافهما بالردود العميقة التي محقت أفكار الكتاب وترهاته، وكان لابد لهذا الرد أن يكون مُفيقا لهما حتى يلزم كل فرد حدوده، ويقبع في ظل إمكاناته، أما أن يتخطى هذه الحدود ويتجرأ على ما ليس في حدود طاقته، فهذا مما يعيبه ولا يقبل منه.

يقول الدكتور البيومي:

"والدكتور جابر كالأستاذ حجازي قد سمحا لأنفسهما أن يتجاهلا الردود الساحقة التي عصفت بآراء الأستاذ أحمد بهاء الدين، فإذا لم يكونا يعرفان شيئًا عن موضوعهما، فلماذا يسمح الأول لنفسه أن يقدم كتابا فقهيًا لا يدري من أمره شيئًا؟!وكان المنتظر منه أن يرصد الحركة الفكرية نحو كتاب يخصه بتقديره، فيقف موقف المدافع عنه إزاء ما تستف به من اعتراضات لو كان يطلب الحق لوجه الحق بل كان المنتظر ممن يحمل أمانة القلم أن يشير إلى الاعتراضات التي وجهت إلى قواعد الكتاب حتى أتت على كيانه المنهار!

أما الأستاذ حجازي فهو التابع الثاني للتابع الأول، قرأ المقدمة ونقل ملخصها في مقال نشره بالأهرام في ٢٦/ ٥/ ١٣٩٣هـ، وكان على من بلغ هذا المبلغ من عمره الممتد في

[1] - الإسلام وأصول الحكم في الميزان. د- محمد رجب البيومي هدية مجلة الأزهر بتاريخ صفر 1414هـ

دنيا القلم أن يعرف أن الكتاب قد لاقى معارضة عاصفة، فينقل إلى قرائه ما وُوجه به من أعلام الفقه في العالم العربي قبل أن يصفق تصفيقًا متواصلاً لكتاب لا يمت إلى اختصاصه الأدبي بسبب".[1]

[1] - المصدر السابق

الدفاع عن العربية والقرآن

كان العلامة البيومي رحمه الله من علماء اللغة ابتداء، ومن حُماتها ورجالها الكبار، وكان يدرك ما في اللغة العربية من مقياس يزن ويرصد به حالة الانتماء من قوة وضعف.

وكان يدرك كذلك أثر اللغة في تعزيز الهوية والحفاظ على الإسلام ونمو جذوره، وما يدور حولها من مؤامرات تحاك ضدها لهذا الغرض، من أناس ينفسون عن أحقادهم تحت دعاوى كاذبة، ونداءات خادعة، تتستر بالدعوة إلى إحياء اللهجات الإقليمية في كل دولة عربية، لتتمزق عرى اللغة العربية.

يقول رحمه الله: "تعاوى العاوون في كل مكان بالدعوة إلى لغة محلية تجعل العامية مصدر التفكير والتعبير الغث الممسوخ، وما أسرع ما نشط أدعياء وهتف وصوليون وتزعم أغرار، ولكن سحر القرآن لا يقاوم، فقد ارتدَّت كل السهام إلى صدور أصحابها، ووضحت الأغراض الدخيلة وضوحاً كشف عوارها وهتك أستارها، وشاء الله للعربية أن تنتصر، لأنه شاء للقرآن أن يخلد تصديقاً لقوله عز وجل : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1]"[2]

القرآن الكريم إذن هو السر الذي يدعم العربية ويحميها ويجملها في ألسنة المتحدثين من أدبائها وطلابها وأبنائها، فقد جعل المتأدبون وجهتهم إلى القرآن الكريم يحفظونه

[1] - سورة الحجر : 9
[2] - في ميزان الإسلام ج2 د- محمد رجب البيومي

ويتدارسون روائعه؛ ليعصمهم من إسفاف القول وركاكة التعبير، وحينما جاءت النهضة الأدبية المعاصرة تزعم كتابتها الإمام محمد عبده، فكان القرآن الكريم موئله ومعتمده البياني، ونشأ جيل كبير في مدرسته يُحاكيه ويتعلم منه، فعادت البلاغة العربية مرة أخرى إلى سابق عهدها وازدهارها، تذكر بالعصور السالفة، وجدد كثير من الأدباء المحدثين سيرة الأدباء القدامى.

ولم يفت هؤلاء المبغضون للقرآن الكريم ما يتسترون به من نقد اللغة العربية الفصيحة التي تستقي مشاربها من آياته البينات أن يتعرضوا بالنقد للأستاذ الرافعي ذي الصبغة الإسلامية، والذي يعد بيانه استنطاقًا حيًا من وحي القرآن الكريم، حينما كان يستشهد بها في كل مجال من كتاباته، فقالوا عنه غامزون في مجلة مشبوهة: لو ترك الرافعي التزامه بالجملة القرآنية، لكان ذلك أجدى وأنفع. فلمّا علم الرافعي نهض للرد عليهم ردًا قويًا كاشفًا لأغراضهم ونياتهم، ببصيرة واعية، لافتًا إلى كيد المستعمر وأذنابه للنيل من لغة القرآن الكريم، فقال في صراحة آخذة: "على أني لا أعرف من السبب في ضعف الأساليب الكتابية، والنزول باللغة دون منزلها إلا واحداً من ثلاثة، فإما مستعمرون يهدمون الأمة في لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها الذي هي أمة به، ولن تكون إلا به، وإما النشأة في الأدب على مثل الترجمة في الجملة القرآنية، والانطباع عليها وتعويج اللسان بها، وإما الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف، فإنه ليس كل كاتب ببليغ، ولا كل من ارتهن نفسه بصناعة نبغ فيها وإن نسب إليها وعُد من أهلها، والكتابة صناعة لها أدواتها."[1]

[1] - المصدر السابق

وفي ساحة المواجهة وبمنهجية الأديب الأصيل، وجه البيومي نقده الجسور لأعداء العربية والقرآن فقال:

"إن هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الإسلامية، وتريد أن تتبدل بها كلام الجاهلية وكلام فصحاء العربية، حتى من المخضرمين والمولدين، وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية، وهذه الفئة قد تعددت غايتها واتفقت في الوسائل، فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته وكونه من العربية بمنزلة القطب من الرحى، ولكنه يدس الدسائس من طرف خفي لإقصائه عن دائرة الأدب، حتى إذا تم لهم ما يبتغون من غض مكانة القرآن في صدور الناس؛ يكونون قد طعنوا الإسلام طعنة سياسية في أحشائه، على حين يزعمون أن الموضوع موضوع أدب لغوي لا مدخل للسياسة فيه"[1]

ويستدعي رحمه الله من الحياة ما يشهد به على فترتين زمنيتين، كانت الأولى ما بين الحربين العالميتين، وهي فترة ازدهار لغوي وإبداعي وأدبي، والفترة الثانية وهي ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهي فترة تدهور أدبي تضطرب فيه القيم الفنية، وتضمحل المعطيات الفكرية، ضحْل تورث العقم والتردي حتى وصلت بنا إلى وقتنا الراهن، وذكر أن المحللين مهما اختلفوا في تعليل ازدهار الفترة الأولى والجدب في الفترة الثانية، فإنهم لن يهملوا جانب الثقافة الإسلامية، فقد "كان أمثال طه حسين ومحمد حسين هيكل وعباس العقاد وإبراهيم المازني ومصطفى الرافعي وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات وعبد العزيز البشري، كان هؤلاء جميعاً يحفظون كتاب الله، ويرون في أسلوب القرآن نمطاً رائعاً للتعبير

[1] - المصدر السابق

الممتاز، مع ما أضافوا إليه من ثقافة معاصرة تلاقت مع الثقافة الإسلامية، لا لتطغى عليها، بل لتزيد في إثرائها وتضاعف من إنمائها، فكان القراء يجدون من ثمارهم الرائعة ما يرفدهم بالغذاء الجيد والصحة الفتية، وكان من الرائع أن تظهر لهؤلاء الكبار مؤلفات بارعة تدور حول الإسلام مثل : (وحي القلم، وضحى الإسلام وفجره، وحياة محمد، وعبقريات محمد وصحابته، وعلى هامش السيرة، و علي وبنوه، والشيخان، والوعد الحق) إلى ما لا أعد من الآثار التي تزدحم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية."[1]

وبعد زوال هذا الرعيل العملاق، احتل القيادة خلف لا يقرأ القرآن ولا يرد موارد الأصالة الأدبية تفكيرًا وتعبيرًا، فأصبحت مقالاته شبيهة بأحاديث العامة، "وانخدع فريق منهم بهذه الأقوال المدخولة، ووجدت لهم بعض الصدى ورأوا مترجمات الأدب الإفرنجي (والهابطة منها بالذات) ما يوافق أهواءهم العليلة، ثم تصدروا الكتابة في الصحف فكانوا مثالا للركاكة المُسفة والانحدار المخجل، ومنهم المسلمون الذين رانت فوق أعينهم الأغشية"[2]

وهناك من المنصفين ممن ليسوا من المسلمين من العرب المسيحيين الذين كانوا يحفظون القرآن ويستظهرون آياته، وكانوا وقتها من أدباء عصرهم وشعراء أزمانهم ومنهم: خليل مطران وشبلي الملاط وأمين نخلة وأمين الريحاني، حتى المحامين من نصارى مصر إلى عهد قريب من ذوي البلاغة العالية، إذ قرأوا القرآن ودرسوا روائعه، واعترفوا بذلك مباهين، كمكرم عبيد ووهيب دوس وويصا واصف، ممن كان لهم باع كبير في بلاغة الدفاع

1 - المصدر السابق
2 - المرجع السابق

وقوة الحجاج؛ شأن كبير وذكر مرموق، وهو تنويه يُبطل مزاعم المغرضين ليكون من قبيل وشهد شاهد من أهلها، ليُبطل دعواهم ويفسد أغراضهم.

زعم أحد المرجفين يومًا أن أسلوب القرآن الكريم في مكة يختلف عن أسلوبه في المدينة المنورة ويرجع هذا لصلة الرسول صلى الله عليه وسلم باليهود في المدينة، وردد هذه الأكذوبة، لأن اليهود في رأيه أكثر ثقافة ونبوغًا وارتقاء فكريًا، ظهر بوضوح في كتاب الله سبحانه.

وانبرى شيخنا البيومي يرد هذا الافتراء، هادمًا مبطلا كل مزاعمه، فكيف يكون لليهود أثر وهم موضع النقيصة والاتهام من الرسول الكريم؛ لما ارتكبوه من فظائع وجرائم وانحدارات ومصائب، لا تدل على أي ارتقاء فكري وسلوك معتدل؟!

كما أنهم لم يحترموا تلك المعاهدة التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم ونصت على الاحترام المتبادل، وكان الظن بذوي السلوك الإنساني والرقي الثقافي أن يحترموها، ولكنهم كانوا قمة الانحدار والإسفاف، وقد ذمهم القرآن الكريم وكشفهم وفضحهم، لقد كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه، أكّالون للسحت، ينكرون حكم التوراة ويتبعون أهواءهم، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلا، فكيف يكون هذا رأي القرآن الكريم فيهم، ثم يرتقون بالمسلمين حضارة وسلوكًا، ويكونون مددًا ثقافيا للقرآن؟!

ثم يأتي بنقطة دقيقة ومهمة، حينما ذكر بأن من العجب أن يغفل صاحب هذا الكلام أمر البلاغة، فأي الفريقين أقوم لسانا ولغة وفصاحة، أأهل مكة الذين نزل فيهم القرآن

الكريم، وطالت شهرتهم في البيان، أم يهود المدينة، الذين ما عرف لهم خطيب أو شاعر طارت بذكره الركبان، أو حكيم تدفق بالحكم والمواعظ؟ إنهم أبعد ما يكونون عن بلاغة القرآن فكيف يكون لهم فيه تأثير؟!

إن المشركين أنفسهم حينما اتهموا القرآن بأنه أساطير الأولين اكتتبها، أخذوا يهرفون بأسماء من الشرق والغرب، ولم يتجه أو يجل بخاطر أحدهم أن يذكر أحدًا من اليهود، ليكون له تأثير وأثر، ويذكر البيومي أن هذه الأقاويل قال بها متخرص موتور من المبشرين، ونقلها الناقلون في غفلة دون تمحيص.[1]

أما شبهة هروب النسق القرآني المكي من المناقشة ودحض الحجة بالحجة، خلافا للقرآن المدني الذي يأتي بالحجج والبراهين وعروجه إلى غايات اجتماعية وتشريعية، بينما المكي يخاطب المشركين في مكة بقوله: (لكم دينكم ولي دين)، ذكر الدكتور البيومي أن هذه الدعاوى مهاترات جوفاء، لأن كتاب الله نسق واحد يتعذر للقارئ تمييز المكي من المدني، إذا خلت أحداث تشير إلى ذلك، فقد بسط القرآن المكي الحديث في آياته فيما ينكره المشركون من البعث والوحدانية وثبوت النبوة، ولم يستطع المشركون مواجهة القرآن فيما جاء به من حجج وأدلة وشواهد، ولم يسعهم أن يقولوا عنه إلا: إنه سحر يؤثر، كما أن طول السورة وقصرها ليس دليلاً ولا معياراً؛ لأن طبيعة التشريع في العهد المدني قد اقتضت بسط القول وامتداده، وهو غير موضوع القرآن المكي الذي يخاطب قوما يرفضون الإيمان

[1] - راجع قضايا إسلامية ج2 – د. محمد رجب البيومي

والوحدانية، فلهم موضوع وحديث آخر، وليس من المعقول أن يواجه القرآن قومًا بالتشريع والحدود والمعاملات وهم أصلا يرفضون الإيمان.[1]

وفي هذا المقام، لا يفوتنا أن نذكر نظرة الأزهر الشريف بجلاله وسموه اعتبر البيومي هو المدافع الأكبر عن القرآن الكريم ضد مطاعن المفترين، وذلك حينما أحال إليه وكلفه بالرد على ترجمة معاني القرآن الكريم التي كتبها المستشرق الفرنسي جان بيرك، تحت عنوان (إعادة قراءة القرآن الكريم) التي أثارت ضجة كبيرة، لكن المثير أن الانطباع القائم حول هذا المستشرق كان يغط باللغط والخداع، حيث كثر فيه المادحون والمطرون والزاعمون أنه كفء نزيه صادق الحوار مخلص للعلم وحرمته، بل زعموا أنه محب للإسلام بشدة، وهو الحب الذي ساقه ليقوم بهذا العمل، وبعضهم كتب مقالات يبرز فيها انبهاره بترجمة بيرك، ووصفها بأنها حدث مذهل عظيم.

ولما همَّ شيخنا بتكليف الأزهر الشريف في قراءة الترجمة والرد على ما فيها، وجد الباحث قد تورط في أمور مخيفة خطيرة، وحرف الكلم عن مواضعه، وافترى على الحقيقة أكبر افتراء، وساءه أن يذاع عن الجل هذا الثناء الحافل، ويروجه أنه خدم الحقائق القرآنية، وأنه ترجم معانيه ترجمة صادقة، فلما قرأ واكتشف حقيقتها وغرض صاحبها، وأغاليطه الفادحة؛ شرع في كتابة رد علمي في كتاب تحت عنوان (إعادة قراءة القرآن – الدكتور محمد رجب البيومي يرد على جان بيرك) وطبعته دار الهلال عام 2001م، والذي إذا عاينه القارئ لدله بوضوح على مكانة العلامة البيومي وموسوعيته التي أدركها الأزهر حين

[1] - راجع المصدر السابق

رشحه لهذه المهمة قبل أن يعهد بها للمتخصصين في التفسير وعلومه، وقد تذكرت في هذا الموطن قولة تلميذه النجيب د- مصطفى السواحيلي: "أتحف المكتبة العربية بعديد من الدراسات القرآنية التي تجعل أهل التفسير كلا عليه"[1] فشيخنا الجليل فوق علمه الفسيح، ماهر خبير بمكايد المستشرقين وطعونهم في الرسالة والرسول والكتاب العظيم، فبين ما انطوت عليه غاية الرجل الذي ثبت لديه جهله باللغة، وعدم فهمه للنص، وانعدام الأمانة العلمية، بتشويه النقل واستخفافه بالقرآن الكريم، والتجني على الذات الإلهية، واتهامه للقرآن بالتحريف، وأنه ذو طابع بشري، وانتقاده للحديث والسنة وعلماء الإسلام، ونفيه لوجود شريعة بالقرآن، وفصل الدين عن الدنيا، وغير ذلك من الأضاليل المفتراة الكاذبة.

وقاله عنه: "لقد بث الرجل أراجيف وحاول أن يحوطها بسياج من التعالم المحيط، تشرد عن الحقيقة بأمور يصعب الارتياح إليها، وقد يحسب القارئ أن أشتد في محاسبة الرجل حمية وعقيدة، لا استجابة لصوت النقد النزيه، ولكني أعرض أمامه نقاطاً صارخة ارتطم الباحث في أخطائها، وأغلب الظن أنه قرأ السموم المنكرة، والردود الحاسمة عليها، وعلم منزلتها العلمية الهابطة، فاحتضن أفكارها ليحيي مواتها ويجبر عثراتها، وهيهات."[2]

[1] - أصداء المعري في شعر البيومي – بحث للدكتور مصطفى السواحيلي- جامعة الأزهر
[2] - إعادة قراءة القرآن.. الدكتور محمد رجب البيومي يرد على جان بيرك ط دار الهلال

دعاة التدهور والسقوط

لا يهدأ قلم البيومي في ثورته على المنحرفين فكريًا ممن يلقبون أنفسهم بالمثقفين، وينسبون إلى أنفسهم من ألقاب الفكر والثقافة ما يشاؤون زيفًا وزورًا، فها هو ينكل بسدنة الانحراف من الكُتاب والصحفيين الذين أخذوا يدافعون عن أصحاب القصص الماجنة والانحلال الأدبي ويصفونهم بالمثقفين، ويغمزون المعارضين لهم من المؤيدين للفضيلة والاحتشام بأنهم المتطرفون.

سَخِر قلم الدكتور البيومي من هذه العناوين التي خرجت بها الصحف بعد أن أثيرت في مجلس الشعب قضية القصص الماجنة، والتي خرج بعضها وهو يحمل عنوان "ثورة المثقفين" و"احتجاج المثقفين" و"دعوة المثقفين إلى اجتماع عاجل" وتعجب من هجوم هذه المقالات والكتابات على المحافظين وكأنهم إرهابيون يحملون أدوات التدمير! لتسمى الأسماء بغير أسمائها، لتوضع الألفاظ في غير موضعها الصحيح، فتقلب الباطل ليصير حقا، والحق إلى باطل!

وعرج في هجومه وتصديه لهذه الثلة المضللة بما كان من ذكرى وحال زعماء الثقافة في مصر من أساتذة كلية الآداب بالذات قبل أن تقوم ثورة يوليو، وكيف كانوا من ذوي الأخلاق الرفيعة ويمثلون الأخلاق والثقافة بمعناها العلمي المعروف، ولم تعرف عنهم أي دعوة إلى قصص المجون أو تحبيذ أدوار الخلاعة والسقوط، بدعوى أن الفن للفن؛ بل عرف عنهم ما يجعل المثقف في مصر رجل أخلاق قبل أن يكون صاحب قلم، وهو عكس ما يُرى اليوم ممن يصفون أنفسهم بالمثقفين فليس فيهم إلا كل مدافع عن الرذيلة، يتهمون كل من يخالفهم الرأي بالتطرف، لأنهم يدافعون عن حرمات الخلق، ويأتمرون بأوامر الدين، حتى أصبح لديهم كل من يذكر وجود الله أو يهاجم رسول الله أو يلحد في كتاب الله مثقفاً يجب الدفاع عن سقوطه وانهياره تارة،

وعن كفره وإلحاده تارة أخرى، أما من يقوم بوضع الأمر في نصابه فيجابه هذا الشر الضال، فقد أصبح متطرفاً خطيراً!

ولفت إلى أن نظرة هؤلاء المنحرفين بمسار الثقافة بما كان عليه الأدباء السابقين كالعقاد وفريد وجدي وهيكل هي ذات النظرة التي يقومون بها اليوم، فهم كذلك في نظرهم متطرفون لأن مؤلفاتهم تعطر بتاريخ الإسلام، ومن الهزل أن يكون المثقف اليوم في نظرهم هم أولئك الذين يسهل عليهم الحصول على صفتها "حين يشترك أحدهم في ناد، أو يقدم استمارة لاتحاد الكتاب أو يخط سطوراً سوداء في صحيفة غير بيضاء، وله أن يسب الله ويتهكم برسوله ويعرض من مشاهد السقوط ما نتحرج أن تعرضه (المومس) في مخدعها الآثم، فإذا نهض أولو الغيرة بمقاومة هذا العبث، فما أسرع أن يجتمع المثقفون الأدعياء، وما أسرع أن يجدوا من يشد أزرهم بكتابة كلها زيف وبهتان، ليقال إنه رائد طليعي يتقدم ركب الثقافة، وتظهر الإعلانات الصحفية تتحدث عن ثورة المثقفين واجتماع المثقفين واحتجاج المثقفين، وكأن الثقافة أصبحت محصورة في التحلل والإلحاد والتطاول على المقدسات، ثم لا بد أن يثور ذوو الغيرة على هؤلاء الشواذ، وهنا تتردد كلمات التطرف والجمود والإرهاب وسيطرة الكهنوت وهؤلاء الأبطال المغاوير الذين يتحمسون لمن يكفر بالله وبرسوله لا يجرؤون أن يكتبوا حرفاً واحداً عن رئيس يمتلك زمام الحكم، بل يضعوا الأقفال على أفواههم حتى إذا غربت شمسه سلقوه بألسنة من نار، وقد أمنوا عاقبة الهجوم فأين كنتم أيها الأبطال؟."[1]

لقد تابعَ القضية التي نشرت في الجمهورية بتاريخ 16/1/2001م تحت عنوان "صوت العقل يطالب المثقفين بالتزام الهدوء" نشرت ما خلاصته أن المثقفين هؤلاء توجهوا إلى الدكتور

[1] - من مقال المثقفون أم الإباحيون والمتطرفون أم المؤمنون بصوت الأزهر بتاريخ الجمعة 8 ذي القعدة 1421 هـ 2 فبراير 2001م د- محمد رجب البيومي

القط يطالبونه بالاستقالة تضامناً مع أصحاب القصص الماجنة، فنصحهم بالتريث والهدوء، ولم يستجب لما يرونه، وكان تهكمه الصارخ فيما نُشر ما جاء في العنوان "صوت العقل يُطالب المثقفين" وأكد رحمه الله بكل وضوح وصراحة لا مواربة فيها: "أن الذين افتعلوا هذه الضجة، لا يعرفون معنى الثقافة حين يرونها نصيرة للإباحية والخلاعة والإلحاد، وبيّن بكل شجاعة مواجهة هذا المذهب المنفلت، مؤكدا أن المثقف الجديد بهذا الوصف هو صاحب الخُلق الرصين الذي يقود مجتمعه إلى آفاق النور والطهارة، فهو رائد بخلقه وقلمه معاً، أما الذي يدافع عن الرذيلة بحجة حرية القلم؛ فهو لا يعرف معنى الحرية، ولا يفرق بينهما وبين الانحلال والسقوط، وهو يعد مثقفًا وقد يكون مُدرساً في جامعة، ولكنه مريض بالنرجسية يبحث عن الاشتهار بمؤازرة الانحراف.

وشدد رحمه الله النكير على التجارة بالألفاظ ودعا إلى ضرورة تحديد معناها ووجهتها، " فليس المثقف هو الداعي إلى الانحراف، وليس المتطرف هو الداعي إلى الفضيلة، أما الاعتصام بالكلمات العائمة مثل "التنوير، والتقدمية" فقد كشف أمره، لأن التنوير الحقيقي يصدر من مشكاة القرآن، هذا هو اعتقاد المصري المسلم الذي يدفع الضرائب من عرق جبينه لتكون مما يأخذه دعاة التدهور والسقوط حين يجلسون في مقاعد الوظائف، لا ليخدموا الأمة، بل ليفتحوا عليها نوافذ النيران".[1]

إنها الفكرة المعوجة والشعر المنحرف الذي نطق به أمل دنقل في قصيدته مقابلة خاصة مع ابن نوح.

[1] - المصدر السابق

وخرج لويس عوض في صحيفة الأهرام يمتدح قصيدة أمل دنقل عن مقابلة خاصة مع ابن نوح، بمقدمة يبارك فيها توجهها ويشيد بصاحبها، ويزعم أنها تضيف مفهوما جديدا للوطنية، ويرى أن في القصة إشارات جديدة تدل عليها يجب أن تتطور على مر الزمان.

والقصيدة حولت الابن الفاجر الكافر إلى بطل مقدام ووطني كبير، ويتحول نوح ومن معه إلى جبناء باعوا الأرض وفرطوا في العرض.

بل تتحول امرأته كذلك إلى سيدة بطلة صامدة قدرت معنى الوطن في الوقت الذي جحده نوح وفرط في بلاده ووطنه. ويقرأ المسلمون مثل هذا الهراء فيصفقون ويبتهجون لإبداع أمل، وبيان أمل، وروعة أمل، وما هو إلا ناطق بلسان الشيطان، أما قضية التوحيد والدعوة إلى الإسلام؛ فإنها كانت دعوة مجحفة ضد الوطن وضد من أحبوا الوطن وعشقوا ترابه بصدق ووفاء.

ولقد رصد العلامة البيومي هذا الهراء، ووصف مقدمة لويس عوض بأنها متهافتة، وكان رده من جهتين، أولاهما جهة تخصصه المكين في اللغة والأدب والنقد والشعر، والثانية من كونه العالم المفكر الغيور على دينه ومقدساته ووحي ربه، وذكر أن قائل هذا العبث الكريه يتوهم أن القصة المذكورة في القرآن الكريم (باعتبارها حقيقة واقعة لأناس عرفوا بأشخاصهم في الحياة) يجوز أن تستغل في الفن الشعري والروائي، كما تستغل في

الأسطورة الخرافية في آداب اليونان والرومان، حيث يتناولها الروائيون على مر الزمان، ليصلوا منها إلى مفاهيم مختلفة لا تزال تتبدد في أيدي الكاتبين.

كيف يجوز أن يؤتى إلى تاريخ ثابت حكاه القرآن واقعا ملموسا مميز المعالم، ثم نجعله كأسطورة تتبدل وتتغير، بحيث يكون الكافر العاصي بطلًا مدافعًا والنبي الداعية هاربًا فارًا؟!

ثم نجد من ينشر هذا الهراء في صحيفة يومية يقرؤها آلاف المسلمين، كما نجد من يتطوع مبتهجا لتقديم هذا العبث المنكر، وتزكيته وتقريظه، تقديما يوحي بالأغرار من ناقصي الثقافة بمحاكاة هذا الهراء السفيه!".

ثم يتساءل ليضع يده وقلمه على أصل الداء" ألا يكون هذا الهراء مقصودًا لذاته، حيث يفعل بحقائق القرآن ما يفعل بأساطير هوميروس ومن حاذاه"

إن نوحا لم يكن مستعمرًا بغيضًا حيث يقف ولده أمامه متحديًا ومدافعا عن الوطن؛ بل كان نبيًا كريمًا أتى قومه برسالة السماء ليمثل الحقيقة الساطعة، حيث هتف بإنقاذ المستضعفين، ورعاية مكانهم في الحياة.

لقد دافع البيومي عن الحقيقة التي نطق بها القرآن الكريم أمام هلوسات الشيوعيين الذين يقلبون الحقائق تحت مسمى الإبداع، وكشف حقيقة الدعوة، وكان كلامه مركزا على مناط الزيف، فقال : "ليت شعري أين هي الوطنية القومية؟ وأين التمسك بالأرض في

عناد ولد عاق نشز عن دعوة العقل والمساواة والكرامة، حتى يكون مثلا للنضال القيمي، والجهاد الوطني، وحتى يبدل كلام الله، فيحرف عن وجهته، ثم يقول القائل: إنه رمز الفداء والاستبسال! وهل هان كتاب الله عز وجل على المسلمين حتى يروا مَن يجعل حقائقه كالأساطير ذاهبًا في تفسيرها من النقيض إلى النقيض؟

رفض رحمه الله هذه الوجهة الإبداعية التي تقوم على مخالفة الدين والحق والصواب والوحي، حين لم يقف أصحاب هذه الدعاوى عند نوح وحده، وإنما جنح بعضهم إلى تشويه قصص الأنبياء والمرسلين، وتعرض بعضهم إلى قصة آدم وحواء، ليجعل من عصيانهم لله تعالى حين أكلا من الشجرة المحرمة نزوعا إلى المعرفة الكاملة، والاستطلاع المتيقظ الحريص، فها هما قد أدركا كل سر، وحطما كل حجاب يقوم حائلا دون اكتناه المجهول.

وأشار البيومي إلى خداع هذا الكاذب وخبثه ومكره، حينما تجاوز نصوص القرآن الكريم، وأخذ ينقل من نصوص التوراة، ووجه الخداع كما أشار البيومي أن هذا الكاتب مسلم، واسمه محمود، وعرف القصة وما أحاط بها من اليقين في القرآن الكريم، وهو اليقين الذي لا يتطرق إليه الشك، القرآن مهيمن على التوراة، وما دام القرآن لم يذكر ما يدل على أن الشجرة شجرة المعرفة؛ فليس له أن يتمسك بما تقوله التوراة المحرفة، ولكنه يتجاهل ذلك ليوهم الناس أن آدم كان محجوبًا عن المعرفة، وكأن الله تعالى أراد له أن ينعم

بجهله في الجنة لا بعلمه، مع أنه علَّمه الأسماء كلها وأجاب عما جهلته الملائكة، ومن يفضل الملائكة بعلمه لن يكون محجوبًا عن الإدراك"[1]

وتلك الفتنة الغائرة العميقة في التحليل من الدكتور البيومي، تعكس بعمق إلى وقوفه على نيات هؤلاء الكتاب الشاردين من أصحاب الأغراض والتوجهات التي تقف موقفًا معاديًا من حقائق القرآن، وتريد تشكيك الناس في منطوقه وصدقه الذي لا يقبل فيه الريب.

ما أروعه رحمه الله وهو من حماة التراث والمدافعين عنه أمام هجمات المعادين! فكتب التراث التي تمتلئ بالحكمة والجمال والإبداع والعلم والأصالة، هي التي تعكس عظمة هذه الحضارة ورقي عصورها وعهودها السالفة، قد ناصبها العداء كل حاقد على الإسلام من العلمانيين واليساريين.

بل شهدت الحقبة الأخيرة تنمرًا واضحًا على التراث وفرائده، فظهر مجموعة من الغثاء، يتعقبون بعض الجمل في بطون الكتب التراثية، ويقيمون حولها المصائب والمآتم، وليظهروا للناس معايب التراث وكتبه ومن ثم الدعوة إلى هجره والبعد عنه وطمس وجوده، والمأرب لا شك واضح وهو محو أي دليل يقوم في نفوس الناس على عظمة حضارتهم الماضية ورقي علمائها وارتفاع آدابها وثقافاتها.

[1] - في ميزان الإسلام ج1- د. محمد رجب البيومي

وسبحان الله فنفس الموقف من التراث، يتغير بقدرة قادر إذا كان الحديث عن الفتوحات المكية لابن عربي، أو كتاب الأغاني للأصفهاني أو كتاب ألف ليلة وليلة.

فترى قطاعات من التنويريين يهبون هبة الأسود ليدافعوا عن التراث وكتبه، ويطالبون المعادين لهذه الكتب بحرية الفكر وعدم وأد الآراء.

ومن المذهل والمحير ما كان من أمرهم قديمًا فيما سجله العلامة البيومي في كتابه الفذ (من منطلق إسلامي) من واقعة منكرة، رد عليها وعلى أصحابها وأظهر تناقضهم وأغراضهم التي لا تنم عن حق وخير، حينما هبوا على قلب رجل واحد وثاروا ثورة عنيفة، ولجؤوا إلى المسؤولين وهم يضجون فزعين، يوم صادرت النيابة في مصر طبعة من طبعات كتاب (ألف ليلة وليلة) قد كثر فيها البذاء الوقح، وحشيت بعض أوراقها بألفاظ وتعابير (المومسات) والزناة والسواقط، وقرار النيابة محترم سليم ينقذ المجتمع من التبذل والانحدار الأخلاقي، وكان الظن بمن يزعمون أنفسهم مثقفين وقادة الرأي في البلاد أن يباركوا القرار.

لكن أعداء التراث بالأمس صاروا بين عشية وضحاها من حماته ودعاته والمنافحين عنه، تحت دعوى حرية الإبداع والرأي ووجوب نشر التراث.

دفاع عن الأزهر وشيوخه

كان العلامة البيومي يشتد أحيانًا بالكلمات العنيفة والتعبيرات القوية أمام الكذبة المتعنتين على دين الله وهم يروجون الباطل ويحرفون الحق قاصدين متعمدين، وكان يصف جرائمهم بالشنيعة البلقاء، وساق نموذجًا من هؤلاء الكتاب والباحثين الذين فقدوا الخلق والضمير حينما روجوا الباطل عامدين إلى طمس معالم الحق. يقول البيومي:

"فهذا كاتب لا يعرف من أمر الشريعة شيئا، فيبرز المعاني ويبدل الألفاظ، ويحور السياق، فهذا كله تدليس على الحق وافتراء على الله، ثم نقول إن الكاتب المدلس مجتهد، فنضع اللفظ في غير موضعه، بل نضعه نقيض موضعه، ونبالغ فنصفه بالمفكر الإسلامي"[1]

ولم يفته أن يغمز الأقلام التي تنافح عن الباطل، والأبواق الآثمة التي تدافع دومًا عن الكذب، والتي تحركت غير عابئة تناصر هذا الإفك، حينما تحرك شيخ الأزهر ووصف صنيع الكاتب وعمله بأنه منكر وتهجم وافتراء، فصرخوا في تبجح واضح ووصفوا رد الإمام الأكبر بأنه كهنوت، وأنه حرب على الحرية الفكرية، ثم شدد البيومي باللائمة على جريدة الأهرام حينما نشرت هذا الكلام وقبلت مثل هذه الوقاحة وهي أكبر جرائد الشرق سعة وانتشارًا، ليكون إمام المسلمين في نظرها كهنوتا حين دافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن عالمية الإسلام بالرأي الفاضل، والدليل القاطع، وإذا كان من الواجب

1 - المصدر السابق

عليه أن يصمت ويسكت على هدم الشريعة تحريف القرآن حتى لا يكون كهنوتيا يضيق على الحريات ويحارب العقل ويقف في طريق المجتهدين الكبار"[1]

لقد دافع عن الأزهر وشيخه أمام هؤلاء العاوين، وكانت غيرته شديدة على هذا الوضع المقلوب، والحقيقة التي تهان، ثم إذا به يوجه نقده الشديد للباحث الذي لم يذكر اسمه، لكن الجميع يعرفه، فيذكره بتاريخه في التدليس وتحريفه للقرآن وافترائه عليه بما ليس فيه، ليكون ناطقا بالباطل فقال عنه: "إذا جاز له أن يتكلم في تفسير القرآن الكريم وآياته، وهو لا يعرف عنها شيئا، فلماذا إذن لا يجوز له أن يمسك المبضع ويقوم بالعمليات الجراحية في المستشفيات، ومعرفة الطب تساوي معرفته بالدين، ولعل ضرره الطبي يقف عند عدد محدد من الأبرياء، أما افتراؤه على القرآن بتبديل معانيه ونشر ذلك في جريدة يومية تصفه بالمفكر الإسلامي، فلا يقاس به أي ضرر آخر عند من يقدرون تبعة الكلمة المسموعة، ويعرفون عاقبة التفسير المغرض، ويرى العالم قد انقلب وجهه فأصبح الجاهل عالما والذيل رأسا، وأصبحنا نتحدى ممثل الإسلام الأول في مصر، حين يجهر بكلمة الله، فنقول: إنه يعيد عهد الكنيسة حين حاربت الفكر وكممت الأفواه".[2]

ثم يتهكم رحمه الله فيقول: "ولك أن تقلب كفًا على كف، حين تُعطي حرية الفكر من يكذب على آيات الله، ثم تضن بها على من يصحح الأخطاء ويمحو الأكاذيب، وتقليب كف على كف لا يكفي حين تعلم أن القائل بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم قومي أرسل إلى العرب وحدهم دون العالمين ماركسي شيوعي، ومن نشر مقاله ماركسي شيوعي،

[1] - المصدر السابق
[2] - في ميزان الإسلام ج2 د. محمد رجب البيومي

والماركسي والشيوعي يحارب القومية ويدعو إلى العالمية في خداعه الزائف" ويتساءل رحمه الله في استفهام محير: "لماذا دعا إلى القومية بالذات وهو ينكرها أشد الإنكار؟ إن الجواب واضح، فهو ينكر القومية، ولكنه يمجدها الآن ليطعن في نبي الإسلام، إذا علم أن دينه العالمي هو عدو الشيوعية، وأمثاله من الذين ستسود وجوههم عند الله يوم القيامة، لأنهم كذبوا على آياته الكريمة تصديقا لقوله سبحانه: "وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ "[1]

وقام رحمه الله برحلة يسيرة مع الزمن إلى الوراء، حين تقدم هذا الدعي برسالة علمية إلى جامعة القاهرة تعج بالتحريف، ومجردة من الأمانة العلمية عن الفن القصصي في القرآن الكريم، ولعلنا الآن عرفنا من هو ذلك الدعي الشيوعي الذي يتكلم عنه البيومي! إنه الدكتور محمد أحمد خلف الله الذي ينعت بغير اسمه ويسمى بغير لقبه، لقد لاقت رسالته يومها وتحديدًا عام 1947م سخط الناقدين وغضب الله سبحانه، ورفضها الأئمة والمفكرون، فإذا به كما ذكر سيدنا البيومي: يمتشق القلم ليجاحش بالباطل ويناقش بالسفه ويشكو بالإرهاب الفكري، ويطعن في أستاذيه الفاحصين لرسالته، وشاء الغرور لهذا الأفَّاك أن يُرفع أمره إلى الأزهر وشيخه الكبير محمود شلتوت، فدمغ رسالته بالكذب والبهتان وذكر الأدلة الكاشفة، فلم يجد صاحبنا سبيلًا في اللجج إلا أن يعلن أنه مضطهد، وأنه شهيد الرأي وضحية الإرهاب الفكري".[2]

[1] - الزمر : 60
[2] - المصدر السابق

ولعل هذه مقالة من المقالات التي إن تابعنا فيها رد العلامة البيومي وأسلوبه فيها نجدها مطلية بالحدة والقوة والشدة التي تعبر عن غضب موار، تقلبت به نفسه أمام هذا الإفك، وهو في ذات الوقت يسوق الشواهد والأدلة على بطلان أقواله، بل يسوق الأحداث والوقائع بدقة ليبصر القارئ بما كان من أمر هذه الأحداث، وموقف كل الأطراف منها المؤيدة والمعارضة، فكأن مقالاته في هذه الباب تأريخ للفكر ومعاركه ووقائعه قبل أن تكون دفاعا عن الحق والدين ضد أعدائه والمجترئين عليه.

لقد كان الدكتور إدريس ممن قاموا بمهاجمة الشيخ الشعراوي، وكانت له معه معركة، ولكنها كانت من طرف واحد، ويبدو أن الغلو قد ساق الدكتور إدريس لأبعد مدى من فجور الخصومة، حينما قام باتهام الشيخ الشعراوي وتكفيره له وأنه كراسبوتين الدجال الروسي، الذي ضجت من شره السماوات والأرض، وعرّض بسمعة الشيخ ونزاهته وادعى أنه لا يقنع إلا العقول البسيطة بينما أمثاله يتعالون عن منطقه، وذكر أن الدولارات تملأ خزائنه دون حساب، وأن الشيخ نصف ممثل موهوب.

وصف يوسف إدريس الشيخ الشعراوي براسبوتين، وقد كانت هذه الهنة والسقطة التي وقع في شركها يوسف إدريس، حينما سجل كل ذلك في كتابه (فقر الفكر) فأهاج عليه الدنيا قاطبة، وفوجئ بما لم يكن يتخيله أو يتوقعه، فلم يتلق الهجوم من الشعراوي نفسه، وإنما من طبقات الأمة على اختلاف مشاربها ومثقفيها، من رجال الفكر وأساتذة الجامعات ونواب الأمة من الوزراء والمحاماة والأطباء، الكل هاجمه وعدوه ساقطًا في كل ما قال من افتراء وزيف.

ولم يرد عليه الشيخ بكلمة واحدة، وقابل هجومه معتصمًا بقول الله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[1]

كان صمت الشيخ أمام هجمات إدريس يزيد من جنونه وسعار حقده، ويكثر من استفزازه، يتمنى أن يرد عليه الشيخ، حتى يتبدى للناس أنه بطل أمام بطل، وأن هناك معركة بين النور والظلام، بين الرجعية والتخلف، حسب ما حاول إيحاءه وتصويره.

رأى إدريس نفسه أنه قد تورط، وركبه الشطط فيما ادعاه من إفك وافتراء، وأن الدنيا كلها تبصق عليه وتنبذ فعله، فاضطر مجبرًا على الاعتذار، ولكنه الاعتذار الذي أضحك عليه الدنيا كلها حينما كتب في بيان نشره يقول فيه للناس: "إن المطبعة قد زادت كلمات لم يكتبها، وأنه فوجئ بها في الكتاب!!" ثم يقول وهو يسجل هذه الواقعة: "وهذا من أضحك ما يقال، فالمطبعة تخطئ في إسقاط حرف أو تكرار كلمة أما أن تكتب اسم راسبوتين وترمي الشيخ بابتزاز المال من كل جهة، وبقيادة البسطاء لا العقلاء، فأي مطبعة هذه تلك التي تشارك المؤلف أفكاره، بل تفرض عليه ما لم يقل؟!"[2]

وفي رده على شبهة التلقي قال "وكلام الدكتور لا يلمس نقطة علمية واحدة يجادل فيها الشيخ، ولكنه محض افتراء؛ فالشيخ أولًا لا يُقنع البسطاء من الناس وحدهم، ولكن ذوي العقول المستنيرة قد عكفوا على أحاديثه، وتناقلوا آراءه بحيث أصبح مجدد الإسلام في الربع الأخير من هذا القرن".

---

1 - سورة الفرقان: ٦٣

2 - محمد متولي الشعراوي- جولة في فكره الموسوعي الفسيح – هدية مجلة الأزهر عدد فبراير 2023م تأليف –د. محمد رجب البيومي

وأما ما ذكره من أموال وكأن الشيخ قد نهبها نهبًا من إدارة حكومية كان يرأسها، ولم تكن مما رزقه الله به لينفقه في وجوه الخير ويغيث به بلاء الناس.

"أما المال الذي يأتي إلى الشيخ من كتبه وإذاعاته، فليته كان أكثر مما جاء؛ لأن الشيخ وزع الكثرة الكاثرة منه على الفقراء والمنشآت العلمية والمُجمَّع الذي يشمل الثقافة والطب والعبادة في بلدته، والموائد والتبرعات التي لا تقف عند حد، وطنيا صادقًا لحمد للشيخ بذله آلاف لو كان يوسف إدريس الآلاف لمواطنيه ولدعا الأغنياء إلى الاقتداء به، فإذا عارضه فكريًا فلا بد أن يؤيده سلوكيًا، ولكنه يريد أن يهجم دون دليل غير الافتيات، لم يتراجع يوسف إدريس لينصف الشيخ؛ فهذا ما لا يطرق له ببال، ولكنه تراجع بتبرير مضحك؛ لينقذ نفسه من صيحات الاستنكار التي رمت به في هوة الاستخفاف، ولست هنا أتجنى عليه، ولكني أسجل ما كان".[1]

ثم ذكر مولانا البيومي ما يجب أن يتذكره كل من يدافع عن الدكتور إدريس، فقد كان من غلاة التغريبيين وخصوم الإسلام فهو الذي قال دون خجل أو حياء، شأنه في هذا شأن كل المارقين: "إن الإسلام سر التأخر الملموس في دول الإسلام، وأن الإسراع بالرقي لا يكون إلا عن طريق النهضة الفكرية في أوروبا".

هكذا كانت المعركة، وهكذا كان الدفاع، وهكذا كان التبرير المضحك.

[1] - المرجع السابق

وفي كتابه القيم (الأزهر بين السياسة وحرية الفكر) دافع الدكتور البيومي عن الأزهر الشريف وأبان دوره في قيادة ثورة 1919 متحاملا على الذين أغفلوا عن قصد جهاد الأزهر ودوره البطولي، فقد تحدثت الصحف اليومية في صفحات مطولة عن ثورة 1919م وتجاهلت دور الأزهر إغفالا واضحا، مستشهدًا بما كتبه الأستاذ العقاد في كتابه عن زعيم الثورة، حيث أعلن "أن سعد زغلول نفسه فوجئ بالمظاهرة الكبرى التي انبعثت من الأزهر، فأحدثت الشرارة الأولى في الشعب، ثم اندلع لهيبها في سائر المدن والقرى، وأنه تعجب وهو في معتقله حين واتته الأنباء بمظاهرات الأزهر".[1]

بل أعلن العقاد في وضوح صريح، أن الأزهر وحده المسؤول عن المظاهرات، فهو صاحب الفضل الأول في إيقاظ المصريين للمطالبة بحقوقهم، وفي الجراءة الساحقة التي ضرب بها المثل للناس، حين واجه رصاص الإنجليز في غير مبالاة!

ومن قبلها تحدث رحمه الله عن الحملة الفرنسية، وأثبت قيادة الأزهر للمقامة الوطنية، بل خلوص هذه القيادة له، لأن نفرًا من الكُتاب عن المقاومة المصرية للاحتلال الفرنسي أجهدوا أنفسهم في محاولة رخيصة ليبعدوا ويتجاهلوا الدور النضالي للأزهر ورجاله، وصرح بأن هذا هو الظلم الصريح، فاحترام الكلمة في ميدان التاريخ يلزمهم أن يبعدوا أهواءهم الشخصية عن قدر الحقيقية، وأن هذا الاحتيال لا بد أن ينكشف، وفي ذلك خزي لمن دلس الحقائق، وقد أثبت نابليون نفسه أن علماء الأزهر هم من حرضوا الشعب وقادوا المقاومة لحملته، وأن الثورة كانت تنبعث من صحن الأزهر الشريف، ومن

[1] - راجع كتاب الأزهر بين السياسة وحرية الفكر للدكتور محمد رجب البيومي

هنا سلط مدافعه عليه ليهدم مصدر الإزعاج، وقد احتشد فيه آلاف الثوار من المصريين، فعلى من يكتبون تاريخ الحركة القومية أن يعلموا أن الحق أبلج، وأن مؤرخي أوروبا أنفسهم قد أنصفوا علماء الأزهر إنصافًا لا يعرف الغرض، أمام من يحاول أن يطفئ هذه التضحيات الباسلة.[1] كما رد في هذا الكتاب على الأستاذ توفيق الحكيم، وما جاء في كتابه (وثائق من كواليس الأدباء) من تحرش بالأزهر، ورفض منه لتدخل الأزهر في أمور الفكر، وأن هذا خطرًا كبيرًا يجب أن نتنبه إليه، وشبه موقف الأزهر بموقف الكنيسة، تماما كما يتقول بها أعداء الإسلام، وشن اتهامًا كاذبًا على علمائه، لا سيما وأن الأستاذ محمد مصطفى المراغي رحمه الله، كان قد تعرض بالنقد اللاذع لكتاب الحكيم (يوميات نائب في الأرياف) مبينا خلطه فيما يتعلق خاصة برجال القضاء الشرعي، الشيء الذي جعل الأستاذ توفيق الحكيم يقول: (إن الانتصار الذي تم بالأزهر في حظر كتاب – جان دارك – قد شجع على الاستمرار في هذه الخطة) والأمر كما يبدو من سياق الجملة ينطوي على تهكم صارخ، مفاده أن الأزهر أصبح ديدنه الحظر والمضايقة بعد فلاحه في مصادرة كاتب شهير كبرنارد شو.

لقد أثبت أن الحكيم هو الذي كان يتحرش بالأزهر في مناسبات كثيرة، دون حتى أن يكون صاحب حق في هذا التحرش، وفند كل مزاعمه المعادية للأزهر ودوره ومسؤوليته في حماية الإسلام.

كما لم يصمت على هذا التجني الذي صرخت به وأطلقته حلقات مسلسل الأيام للدكتور طه حسين، من تشويهها للأزهر وعلمائه وأن يكشف في دقة المحقق، نفسية

1 - المصدر السابق

الطالب طه وحبه للجاج والمخالفة والتحرش بالأساتذة والعلماء، واحتكم البيومي للأيام نفسها حتى يثبت تجنيه على الأزهر وعلمائه، وعلق على وصفه للأزهريين بالغيبة والنميمة والدس، وقد نسي أن مجتمع الأزهر مجتمع إنساني يوجد فيه الصالح والطالح، ففيم اللجاج في أمور مشتهرة! بل أثبت البيومي عطف علماء الأزهر ورقتهم معه وصبرهم عليه، في الوقت الذي كان يتهجم عليهم ويغيظهم ويجادلهم ويستفزهم، بل ذكر أمر سقوطه في اختبار العالمية، وبين أنه في هذا الوقت قد انصرف عن الدراسة الأزهرية انصرافًا تامًا وانشغل بدار العلوم.

تشويه التدين ورموزه

لقد كان العلامة البيومي رحمه الله ولمكانته التاريخية، حريصًا على ثقة الأجيال برموز الأمة وعلمائها الأجلاء، وكان يقف في وجه كل محاولة للتقليل من شأنهم وتشويه رتبتهم.

وقد ساقه هذا الحرص أن يرد ذلك السوء الذي أورده العميد الدكتور طه حسين في كتابه الأيام وهو يتحدث عن بعض أعلام عصره المقدرين، خاصة وأن هذا الكتاب تم تقريره على المدارس، وقد حذفت منه كثير من الفصول، وللأسف لم يتم حذف هذه الفقرات التي تهين الأجلاء من رجالات الزمن الماضي، وهي أولا وأخيرا، لا تعبر إلا عن رأي صاحبها، وهذه الأوصاف والآراء مما لا شك فيه تترك أثرا سلبيا في نفوس الأجيال، وتكون انطباعهم السيئ حول هذه الأسماء الكبيرة اللامعة، أمثال الشيخ طنطاوي جوهري، والشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الخضري، وأخذ البيومي يفند آراء العميد ويناقشها ويردها بالبرهان والدليل، ويستعيد من الذكريات تلك المكانة العالية والتكريم الكبير، الذي حظي به هؤلاء الكبار الذين حاول طه حسين هز صورتهم وتهوين شأنهم والسخرية منهم أحيانًا، فالشيخ طنطاوي جوهري الذي هزأ منه طه حسين، قد رُشح لجائزة نوبل تقديرًا لكتابيه العالميين اللذين تُرجما إلى لغات الغربية وحظيا بإشادة مفكري العالم، والإطراء الجيد على مؤلفهما.

لقد دافع عن الشيخ المهدي، وبين حقيقته الواضحة بما كتبه عنه زكي مبارك، والذي أثبت فيه عمق الرجل وسلامة نظره وريادته الأدبية، وقد كشف طه حسين عن

سبب نقمته على الشيخ المهدي، لأنه كان عضوًا في مناقشة طه حسين في الدكتوراه، ورفض منحه درجة الامتياز، ومن هنا صب عليه طه جام غضبه، مع أنه كما ذكر البيومي قد أخذ الدكتوراه من فرنسا بنفس الرتبة ولم ينقم على أساتذته المستشرقين.

ورد كذلك رأيه في الشيخ محمد الخضري، بما رد له الاعتبار وأظهر حقيقته التي أجحفها طه حسين لأغراضه النفسية.[1]

كما نعى البيومي إثر ما شاهد وعاين من حال عالم الدين وصِفته لدى كتاب المسرحية العربية الذين دأبوا على انتقاصه زورًا، وإلصاق المثالب به بهتانًا، "حين يعمد أحدهم إلى مشعوذ أمي، فيلبسه العمامة ويطلق له لحية، ثم يجعله واعظًا داعية في الظاهر، وفي الباطن صاحب حال دنيء وصورة وضيعة، فيخرجه محتالًا عاهرًا فاجرًا، وهو بعد صاحب عمامة يتلو آيات القرآن والحديث الشريف، ويمسك بمسبحة.

بل قدم وقت كان الناس لا يرون إلا أشباه من يسمون بالشيخ (متلوف)، الذي يظهر في مذهب هؤلاء الكتاب، آدمي هزأة أضحوكة، ذو عمامة وقفطان، يرفه عن الحاضرين بحركات صبيانية وإشارات بهلوانية، ثم ينطلق بلغة بين الفصحى والعامية يتقعر في حروفها، ويتماجن في نطقها، ليثير الضحك من لغة الضاد، وكأن الفصحى صارت هدفًا آخر للمناوأة والمعاداة، ثم تنتهي الرواية، وقد أوحت ظلالها الكئيبة في نفوس المشاهدين، فزعزعت مكانة عالم الدين الذي كان أحد أمرين، إما عاقل داهية فهو مُرابٍ ولص فاجر، أو أنه مجنون مستهتر مهرج بهلوان.

[1] - راجع كتاب من منطلق إسلامي – د. محمد رجب البيومي

وهو مزلق وبيء يوحي أن الإسلام عجز عن تكوين علمائه تكوينًا إنسانيًا، يقدم فيه المثل الأعلى والنموذج الأمثل.

ويقر البيومي أنه لا يدعي العصمة لعالم الدين، فكل طائفة من الطوائف تضم الطيب والخبيث والصالح والطالح، لكنه يقرر أن نسبة الشاذ بين رجال الدين الإسلامي، لا تقاس إطلاقًا بنسبة المنحرف من غير رجال الدين، بمعنى أن المنحرف من علماء الشريعة يمثل الاستثناء النادر لا القاعدة المطردة، أما الطوائف الأخرى، فنسبة المنحرفين فيها لا تسمح بالموازنة بحال.

ورأى أن الإسفاف المتبع من الحِيل العُدوانية التي يرمي بها الإنسان غيره لينجو من التثريب، وإذا كان الداعية والعالم يدعو إلى البر والخير والإصلاح، فقد ساء هؤلاء ذلك فرموه بالزور لأنهم يجدون راحة في نفوسهم حينما يظهرونه في غير مظهره، وكأنهم يريدون أن ينتقموا من هذا الذي يحذرهم عقوبة الله على فجورهم.

"وهذا التواطؤ المنكر على تشويه عالم الدين، لا يقف لديهم عند اصطياد الهفوات العابرة لتضخيمها كي تذاع وتشتهر، ولكنهم يعمدون إلى مواقف الكرامة الإنسانية لدى العلماء الأفذاذ ليشوهوا وسامتها الرائعة، بعد أن ملكت الأعين والألباب، وتلك وقاحة سافرة تتطلب التأديب دون مراء"[1]

[1] - قضايا إسلامية د- محمد رجب البيومي

تأمل البيومي حال العلمانيين والتغريبيين على الدوام، ووجد أن من أكبر غاياتهم وأهم أهدافهم، والذي يمثل مناط رسالتهم، وركيزة ما يصبون إليه، إصرارهم على هدم هالة رجل الدين في نفوس المصريين، والقضاء على أي احترام له في ذواتهم.

وذكر أن هذا جهدهم الدائم ودأبهم المستمر، في أعمالهم الفكرية والأدبية والدرامية، وهم يتصورون أنفسهم في هذا أنهم أصحاب رسالة، تهاجم الرجعية والتخلف، وتتصدى لدعاة الظلام، وتكشف حقائقهم للناس، ليزول سلطان الدين في المجتمع حينما يزول من يمثله من علمائه والداعين إليه.

فالتغريبيون يتصورون أنهم يحاكون في هذه الهجمة سادتهم من مفكري أوروبا، وأنهم يريدون لمجتمعاتنا أن تحاكيها في ثورتها على رجال الدين، وهذا كذب مفضوح، فما زالت أوروبا إلى اليوم، تحترم رجل الدين، وتعظم القساوسة، وتقدمهم في كل ميدان، وتبارك مستقبلها بحضورهم وصلواتهم.

لكن القصة كلها تكمن لا في هدم هذه الرموز أو كشف مخبوئها، بدعوى أنهم تجار دين ومنافقون، ولكن الغرض المعروف، هو القضاء على الدين نفسه، حينما تفرغه من قدواته، وتميت بين الناس من يحيي قيمه ويهتف بتعاليمه.

ولم تفته تلك المقارنة الظاهرة بين الواقع الغربي الذي يوقر رجال الدين، وبين واقعنا العربي المسلم الذي يزدري علماء الدين ورموزه على يد المتغربين الصاغرين، فقد أشار إلى قصة البؤساء التي كتبها الأديب الفرنسي الكبير فيكتور هوجو، حينما جعل رجل الدين

المسيحي من أبطال الرواية، وهو يصور رجل الدين في أسمى صورة وأسمى مكانة، وجعل منه الصورة المثلى للإنسان الراقي المثالي الرؤوف الرحيم الذي يواسي الفقراء ويعطف على الأرامل والمساكين، ولم يكن هذا السمو الذي رسمه متكررًا في أكثر من مشهد لا مشهد واحد مما يؤكد حرص الكاتب على تقدير رجل الدين، ولا يغيب هذا المشهد الذي أبرز هذه الصورة مع لص سطا على متاع الكنيسة من تحف وبسط وسجاد، ولما قبض عليه وسلم إلى الشرطة سارع رجل الدين عطفًا عليه ليطلق سراحه، حينما علم بفقره وسعيه على أطفاله، وتعاطف معه، ثم وعظه وأرشده إلى طرق الخير والفلاح والإصلاح ليرده عن طريق الإجرام واللصوصية، لقد أراد الديب أن يجعل من رجل الكنيسة ملكًا لا إنسانًا حينما صوره في أسمى المراتب الإنسانية.

يلفتنا الدكتور البيومي إلى هذه المقارنة بين هذه الإطلالة الغربية في تصوير ورسم صورة رجل الدين المسيحي، "وبين ما فعله توفيق الحكيم في مسرحية السلطان الحائر حينما جعل من العالم الجليل العز بن عبد السلام عاشقا لغانية، يلين لها ويتوسل!! وما هكذا كان العز ولن يكون، وقد كان هذا الانحدار الشائن مدعاة غضب عنيف من الفاقهين، حتى أن المغفور له الأستاذ أمين الخولي قد نقد هذا الإسفاف بجريدة الأهرام نقدًا ساطع الدليل، واضطر الحكيم أن يلتمس من يدافع عنه، فقال من يبرر مسلكه: إن الروائي لا يتقيد بالتاريخ، وإنما يريد أن يصور النفس البشرية، ولكل نفس مهما ارتقت مثالب ومحرجات

والعز وإن لم يكن في تاريخه ما يوحي بهذا المسلك، فهو بشر ينتظر أن يحدث فيه وإن لم يحدث."[1]

وهؤلاء التغريبيون كما ذكر: يعز عليهم أن يفهموا أو يستوعبوا أن من عاش في أجواء الطهارة والنقاء، يصعب عليه أن ينحدر إلى مهاوي السفه والتبذل، ويدافعون عن تصوراتهم الغبية بأنهم بشر يصيبون ويخطئون، ناهيك عن أن حياة هؤلاء الأطهار لم يأتنا منها خبر يؤيد هذا الزيف، ويروي هذا الزور الذي يلصقونه بهم.

يعيب علينا بعض القراء حينما نتناول نقيصة من نقائص التاريخ حدثت ووقعت، بحجة أننا يجب أن نظهر المحاسن وحدها ولا نظهر المساوئ، حتى وإن ثبتت ووقعت، ولكن كيف يناقشون من تخصصوا في اختلاق الأكاذيب بحجة الفن تارة، وبحجة البشرية تارة أخرى؟!

وعلماء الدين ليسوا معصومين، لكن الله سبحانه حفظ أولياءه عن مسالك الفجار والساقطين، فلا يمكن لمن نشأ إنسانًا في محاضن الهداية، ونهل من معين الشد، وقضى كل حياته جهادًا وكفاحًا من أجل ربه، أن يكون كغيره ممن ألفوا السقوط والتردي، ثم نرى منا من يهين تاريخه بالكذب والافتراء، وهو التصور الذي تعمدت الدراما المصرية دوما أن تَسِمُ به علماء الدين، فجسدتهم في صورة هازئة حتى يضحك الناس عليهم، وتسقط هيبتهم من أعينهم، فلا يقيمون لهم بعدها أي احترام أو وزن وتقدير.

[1] - المصدر السابق

ويقول البيومي منكرًا على التغريبيين أنهم لا يقلدون سادتهم في مسالكهم واحترامهم لعلماء الدين فيقول: "إن تاريخ الإسلام على مد عصوره يفيض بسير أعلام أئمة يصلح تاريخ الواحد منهم أن يكون تاريخ عصره جميعه، لقد صدر عن مارتن لوثر وحده في أوروبا أكثر من 20 رواية أدبية، تتحدث عن إصلاحه الديني، كما صدرت روايات هادفة عن أوغسطين وكلفن، وتوماس الإكويني، ثم رسم هوجو وأضرابه صورًا زاهية لعالم الدين، وأبدوا في أعمالهم احترامهم له، فلماذا لا يقلدهم أذنابهم في هذا؟"[1]

أنكر كذلك ما تقوم به السينما والأفلام من تشويه متعمد لصورة المتدينين وانتقاص علماء الدين في صورة ممنهجة، ورأى أن من واجبه كعالم دين وكاتب ينتسب إلى الأزهر الشريف أن يرد هذه الفرية ويكشف حقيقة وطبيعة المؤامرة ومن يقفون وراءها.

فكتب مقالاً في جريدة صوت الأزهر تحت عنوان "عالم الدين والعمل الفني" استنكر فيه هذه الأدوار الرخيصة التي تزدري المتدينين بشكل متعمد فيما يعرضونه من أدوار، نصاب أو محتال أو مهرج يصدر حركات هيستيرية تدل على جنونه، أو مرة يظهرونه بأنه فاجر فاسق يغرر بالفتيات، ثم كانت ضربة الدكتور البيومي القاتلة لأمثال هؤلاء حينما ذكرهم بأنهم في هذا العهر الذي يحاولون إلصاقه برجال الدين، إنما هو عمليه إسقاط لمشاعرهم المعوجة على الأبرياء منها، ليقولوا ويعلنوا للجميع مرددين: كلنا ساقطون ومن قبلنا رجال الدين.

1 - المصدر السابق

الإسلام أنصف المرأة

أثار خصوم الإسلام شبهات امتهانه للمرأة وظلمه لها، ونسجوا أكاذيب توحي باحتكارها وامتهانها وحرمانها من حقوقها التي أقرتها لهم الحياة الغربية الحديثة فيما يزعمون.

رد البيومي بمنطق ووعي العالم السديد كل هذه الشبهات المنكرة، وأبطل حججها بالبرهان الساطع، فحينما كتب المحللون من أولئك الذين أفزعهم أن تتمسك المرأة المسلمة التي تعيش في بلاد الغرب بدينها، وحاولوا بكل السبل أن يدمجوها في الطبيعة المتحللة التي تغشى المرأة الغربية، فأعياهم وأرقهم أن رأوها ما زالت تتمسك بدينها وقيمها عازفة عن التبذل والتعري والمجون، فأخذوا يفترون فيما يكتبون فزعموا أن الدين خصيم المرأة، لأنه جعلها الأصل في الشقاء حينما أغرت آدم بالأكل من الشجرة حتى استحق غضب السماء وطرد من الجنة.

وأعلن في وجه هؤلاء المفترين، "أن الإسلام لا يعرف إطلاقاً أن حواء قد أغرت آدم في شيء، أو زينت له الوقوع في الهاوية، فالقرآن الكريم ينطق بالحقيقة ويجليها بما ينصف المرأة ويبرئ ساحتها، فأقر بأن الشيطان قد أغرى الاثنين معًا ودلاهما بغرور حتى ذاقا ثمرة الشجرة، فكان نصيبهما من الخطيئة سواء، فكيف يتم التصديق بأن الإسلام جعل المرأة أو سجل أنها باب الشر وأُس البلاء؟!

بل أقر الله تعالى هذه الحقيقة في براءة حواء في أكثر من موضع قال تعالى : "وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ"[1]

ويأتينا منه دليل آخر يظهر مكانة المرأة في الإسلام وتقديره لها حينما قال: "إن المرأة قرأت دينها وعرفت أن الإسلام رفعها إلى منزلة الرجل حينما جعلهما شريكين في الحياة"[2]

لم يقف شيخنا هنا موقف الدفاع الذي يظهر ضعف صاحب الحق أحيانًا، وإنما وفي حركة ذكية انتقل إلى الهجوم، فذكر الغرب بتاريخه المخزي المهين للمرأة فقال: "وإذا كانت الكنيسة فيما سبق عصر النهضة قد حرمت تعليم المرأة وعدتها رجسًا من الرجس، فإن الإسلام قد أوجب تثقيفها وجعل من أمهات المؤمنين معلمات للرجال والنساء معًا، كما حفل تاريخه على مد عصوره بسير النابهات من المسلمات اللاتي تعمقن في العلوم الشرعية والعربية، وكتبن القصائد والرسائل والمقالات، وكان الإسلام دافعًا إلى ارتقائهن الفكري،

1 - الأعراف : 19-25
2 - في ميزان الإسلام ج1 د- محمد رجب البيومي

فالقول إنَّ الدين مدعاة التأخير العقلي والنفسي للمرأة إذا انطبق على دين ما، فإنه لا يتصل للإسلام بسبب".[1]

وحول شبهة عمل المرأة وتقرير وظيفتها الأساسية التي أنيطت بها، جاء رده الواقعي الذي يقرر أن المرأة ليست مثل الرجل، فكل له طبيعته وتكوينه وأعماله التي لا تناسب الآخر، وقد جاء تطبيق هذا عمليا في أوروبا نفسها ليردع المرأة أن تتجه إلى تلك الدعاوى حول المساواة المزعومة، فيقول:

"وقد شاهدت المرأة المسلمة في الغرب عشرات المصانع تعج بالرجال والنساء في مستوى واحد، فوجدت المرأة الأوربية تظل سحابة يومها أمام التنور المحرق، وتحمل من الحديد والنحاس وسائر الأثقال على كتفها مثلما يحمل الرجل، فتتعرض للذبول في وقت سريع، بحجة موهومة هي المساواة بينها وبين قرينها في ميدان الكسب والارتزاق، ثم تكون الكارثة مضاعفة حين ينتهى العمل وتذهب إلى المنزل لتقوم بعبء الغسل والطهو وتربية الطفل والسهر على راحته مريضاً و صحيحاً، على حين ينتهى الرجل من عمله ليخلد إلى الراحة نائماً في المنزل، أو ذاهباً إلى الأندية والمجتمعات، ليجد المسكينة قد عملت على تهيئة ما يحتاج المنزل من غذاء وشراب، ومن نظافة وتدبير، فلا يأتي المساء إلا وقد أصبحت من الكلال والتعب في أزمة قابضة تتطلب العلاج! فأين المساواة المزعومة، وقد حاربت طبيعتها حين حملت الأثقال ونضحت بالعرق الجاهد كما يعرق الرجل، وأين

[1] - المصدر السابق

المساواة حين وقفت وحدها في المنزل تدير شؤونه، وترعى حاجات الأولاد، وتدير النفقات، وتحتال على الرزق الميسر بما يشغل البال ويصدع الرأس كل صباح ومساء!"[1]

بل عمد وأوغل في الواقع وكان به بصيرًا حينما ألمح إلى أن المرأة ضاقت بما عده المغرضون من مكاسبها المشرفة التي اغتصبتها اغتصابًا، فتألقت في أوروبا وأمريكا جمعيات تدعو المرأة أن تعود إلى المنزل، لتقوم بواجبها الأصلي في رعاية شؤونه، وتربية أولادها بعين الرحمة، بدلًا من أن تترك أطفالها لحاضنات لا يشعرن بإحساس الأم، ويقمن بأدوار شكلية بأجر معلوم، وأجر مقتطع لا محالة من كسب المرأة، التي قد تعمل في مصنع لتضيع نصف الأجر في تربية الأطفال، وتضيع كل الهناءة فيما لا طاقة لها باحتماله من صنوف المعاناة.

ثم كان رحمه الله أكثر صراحة في خطابه لهؤلاء الواهمين بما شاهدته المرأة حينما اتصلت بالمرأة الغربية ولمسته من واقعها الذي ظنوا أنها ستغرم به وتحاكيه سريعًا، لكن النتيجة جاءت عكسية لما توقعوه، حينما رأت المرأة المسلمة أن المرأة الأوروبية المسترجلة، لم تعد تفتن الرجل في شيء، وأصبحت بعيدة عن اهتمامه، فأتاح له الاختلاط بها في المتجر والمصنع والملهى والرقص، ودور الخيالة، أن يطفئ الشوق إليها، ويعدها شيئا كماليًا، بعد أن كان يتحرق إلى لقائها، لأن كل ممنوع مرغوب، وكل معروض مبتذل مهان، كما استمعت المرأة المسلمة إلى الشكوى الدائمة من المرأة الأوروبية من الإرهاق وعدم الإنصاف، حينما ظنت أن الكسب المادي يجعلها محترمة في عين الرجل، لكنه وجد فيها

[1] - المصدر السابق

منافسة له في العمل وتسد عليه باب الكسب، وتخفض من أجره اليومي، كما أنها أخرت بالحالة الزوجية، ومشاعر كلا الطرفين.

كما يقول: "هذا إلى ما يبعثه الاستقلال المادي لدى الطرفين من تربص دقيق لأقل بادرة تحين، فالمرأة المتسامحة الغافرة التي تبتسم لأخطاء زوجها وتريه سماحة المحب الودود، لم تعد ذات وجود في المجتمع الغربي، إذ يقوم في ظنها أنها تكسب كما يكسب، وأنها إذا فقدته فستجد سواه! كما يقوم في ظنه أحياناً أن سواها أفضل منها، حين ينظر إلى بعض زميلاته في المصنع أو المتجر أو السوق أو الملهى، فيجدهن أنضر شباباً، وأوفر جاذبية، وهو مخدوع في ذلك لا محالة، لأن كل شباب إلى كهولة، وكل جاذبية إلى انطفاء، وقد كانت قرينته على حظ وافر مما يريد قبل أن تبتذل في المتجر، ولكن الإرهاق الكادح قد أخمد بريقها، كما سيخمد بريق هذه التي خدعته بأنوثتها الحالية، حين تمضي الأيام فتريق شبابها وصحتها في جهد الحديد والنحاس والنار، أمام دخان المواقد وتحت ضجيج الآلات! فكيف ترى المرأة المسلمة ذلك كله ثم تحاول أن تحاكي المرأة الأوربية، إلا أن تكون قد وضعت على عينها غشاوة لا ينفذ منها الضياء."[1]

لم ينكر البيومي أن بعض الشرقيات مسلمات وغير مسلمات قد انجذبن إلى تقليد الغربيات، ولكن لا ينكر ضيقهن المتبرم بما جذبن إليه، وتحسدهن على أيام الهناءة السعيدة حينما كن مكتفيات بأعمال المنزل، لأن النظرة الأولى كانت تخلع البريق الخادع على ما يجره العمل من كسب زائف، لكن النظرة المجربة الدقيقة قد أكدت أن ما يخسره المنزل بهذا

1 - المصدر السابق

النزوح الفاشل عن ميدانه، يكافئ ما تجيء به الزوجة من مكسب مادي في العمل، مع ما يتبع ذلك من تدمير الصحة وتشريد الأطفال، وفقد السعادة المرتجاة!

لعل قضية المرأة من أهم وأشد القضايا التي عارك فيها شيخنا البيومي أوهام المتجنيّن، لأن هذه القضية هي أبرز الوجهات التي يتخذونها سبيلا للطعن في الدين وعلمائه، وتشويه صورتهم، ففي إحدى المناسبات العالمية التي تناولت شؤون المرأة، وجدها هؤلاء الكتاب فرصة سانحة ليعبروا عن كيدهم، مدعين أن المرأة انتصرت على أعدائها من رجال الدين، مما جعل البيومي يتساءل ساخرًا متعجبا: "أصحيح أن رجل الدين يريد سجنها في الظلام، ويفسر النصوص الدينية بما يجعلها أسيرة لا كرامة لها كما يزعم هؤلاء المتحاملين؟

وهل يكون صديقها صاحب الجريدة التي تنشر صورًا إباحية، أو مؤلف القصة التي تصور المرأة خائنة، أو مبدع الفيلم الذي يجسدها في مرمى السقوط والفجور؟[1]

لم يلجأ إلى الرد على هذه الأكاذيب بالأقيسة المنطقية التي تشغل الفكر، أو يستعين بصور خيالية تساند الحقيقة، ولكنه استعان في رده بالواقع المعلوم المشاهد المحسوس الذي تلمسه اليد وتراه العين، حتى يقف الجميع على العدو الحقيقي للمرأة، وليرى الناظر كيف انعكست الأمور انعكاسًا يدعو للحسرة.

[1] - راجع قضايا إسلامية ج1 د- محمد رجب البيومي

كان يترصد بدقة تلك المحاولات التي تنكر تكريم الإسلام للمرأة، عبر محاولات ملتوية تأتي تحت ظلال البحث العلمي والتاريخي، لتضم تكريم الإسلام للمرأة وإثباته لحقوقها، بعدما كانت مضامة مظلومة، ومنها تلك المحاولة التي قام بها المستشرق الإنجليزي (رينولد نيكلسون) المتعمق في الدراسات الشرقية، لقد ذكر البيومي شهادة الأستاذ أحمد الزيات فيه حينما قال: "إن بحوثه في تاريخ الأدب العربي قيمة ممتازة، يتجلى بها وضوح الأسلوب واستقامة المنهج، وقوة الإدراك لمختلف الآثار".

وهنا يُعارض هذه الشهادة، ويثبت أن هذا المستشرق من أصحاب الغرض والهوى، وذلك حينما قرأ البيومي ما كتبه عن المرأة العربية ومكانتها في العصر الجاهلي، فقال:

-إن هذا العصر قد ارتفع بها إلى أعلى مكانة وأسمى مرتبة، فظن البيومي ابتداء أن الرجل منصفًا بريئا من التعصب، بعيداً عن الأهواء، حينما أنصف العرب في كتاباته، حتى جاء إلى الكلام الذي كشف عن غايته وغرضه وهواه، وعرى مأربه الدفين، حينما ذكر أبياتا شعرية للمرأة في الجاهلية، وعلق بقوله: "إذا نظرنا لهذه الأبيات الجميلة، نجد أنها كافية للرد على من يزعمون أن الإسلام قد رفع منزلة المرأة الاجتماعية!".

يقول البيومي: "وهنا عُرف السبب الحقيقي من هذا الإطراء للمرأة العربية في الجاهلية، وأن صاحبنا هذا ذو غرض تبشيري صريح، فالرجل يعز عليه أن الإسلام قد

ناصر المرأة وشرفها أتم التشريف، ولا بد له في جهاد علمي شاق، لطمس هذه الحقيقة، ليقول: إن الإسلام لم يقدم للمرأة شيئا، وهذا هو المطلوب!"[1]

وبعد ما كشف عن غرض هذا المستشرق التبشيري، أخذ يرد على مزاعمه وافتراءاته، ليعلمه ويريه كيف كانت المرأة في الجاهلية مهانة، وكيف كرمها الإسلام؟ وذكر ابتداء أن الجاهلية لم تكن شرًا كلها، وإنما كان بها بعض الخير فأقره الإسلام، ولكن هذا المستشرق قد ذكر ما علم من سموها، وأغفل متعمدا نواحي هوانها، ولعل هذا الكاتب لو لم يكن متضلعا في الثقافة الإسلامية، لقلنا: إن له عذرًا، ولكنه كان ممن كتبوا عن صدر الإسلام، مما يدل على قراءاته الواعية للقرآن الكريم، والحديث وتاريخ الصحابة، فكيف لا يعرف ويغفل عما كان بالجاهلية من شرور تحيق بالمرأة وجاء الإسلام فأبطلها؟!

أيغيب عن مثله وأد العرب للبنات في الجاهلية، ويغيب عنه أنهن لم يكن يورثن، فأبطل الإسلام ذلك، وجعل لهن حقوقا؟!

أيجهل أن النساء كن يورثن كالمال والمتاع، فتحل المرأة للوارث كالتركة، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا)[2] كيف يجهل أن العرب كانوا يعضلون النساء، فيمنعونهن من الزواج في بعض القبائل، وأن العربي قد يقسو على أخته أو ابنته حتى تتخلى له عن كل ما تحوز، وكان الزوج إذا كره زوجته فلا يسرحها، بل يسيء عشرتها حتى تموت كمدًا، أو تفتدي نفسها ببذل كل ما أخذت منه، فحرم الإسلام ذلك

[1] - راجع من منطلق إسلامي ج2 د- محمد رجب البيومي
[2] - سورة النساء : 19

قال تعالى: (وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ)[1] والعضل منعهن من الزواج، بل كيف يجهل نيكلسون أن النساء كن كبعض السلع التجارية، يتصرف فيهن ولي المر دون الرجوع إليهن في شيء، وكأنهن عجماوات لا يعقلن، بل كان للزوج أن يتنازل عن زوجته لغيره متى شاء بعض أو غير عوض، رضيت أم لم ترض!

وهكذا أمام حججه الساطعة، سقطت شبهات المستشرق التبشيري وانفضحت أغراضه الملتوية، التي حاول فيها الكيد للإسلام، تحت ستار العلم والتحقيق.

[1] - سورة النساء :19

معركة البغاء

واجه العلامة البيومي من يدافعون عن البغاء الذي كان معترفًا به في بعض الدول الإسلامية، وكان أمرًا طبيعيًا في نظر من يتظاهرون بصداقة المرأة والدفاع عنها، ويرونه أمرًا تفرضه ثقافة العصر، وأنه موجود في أرقى الدول الأوروبية، وهنا نجد أن امتهان المرأة وانحدارها أمر لا يلفت نظرهم ولا يسترعي اهتمامهم، ولا ينافي مذهبهم في تحريرها وارتفاعها، فهم بعد ما زالوا حماتها من بطش الرجعية والرجعيين.

وتعجب من منطق هؤلاء وأفهامهم حين ينظرون إلى عالم الدين الذي قام وحده ليكافح البغاء ويشرح مخازيه الوبيئة، فيقيم الندوات ويعقد المحاضرات ويكتب ويتظاهر ليعلن كلمة الله في الزنا الإباحي، والفسق القانوني، وبعد ذلك يدان ويتهم بالتخلف والرجعية وعداوة المرأة.

فقد صاح يومًا أحد هؤلاء الكتاب المؤيدين لهذا الفجور، ممن لهم دوي وبريق متهكما برجل الدين صائحًا به يقول:

-أنت محدود الشعور والإدراك والتصور، وتعيش في عهد الظلمات، لأن الدول المتحضرة لا ترى ما تراه، ورأت أن البغاء أمر ضروري لا ضرر فيه. وصاح آخر بالشيخ أبي العيون رحمه الله، قائلا في إسفاف وتجاوز:

-يا شيخ أنت صغير لم تقرأ علم الاجتماع، ولم تدرس علم النفس ولم تفطن إلى أسباب الرذائل، ولو عرفت ذلك لوجدت البغاء أمرًا طبيعيا! القضية أكبر منك يا شيخ! أنت صغير صغير!

وجاء ثالث ممن ذكر شيخنا حالتهم، وحرض الأمن على الشيوخ الذين يطالبون بإلغاء البغاء باعتبار منعه خطر على الأمن، فلا أمن في رأيه دون بغاء، وأن منعه سيزيد الجريمة ويدفع الأمة للهاوية، ومن المهازل أن الهيئات النسائية كانت ترحب بهذا الكلام وتؤيد أنصاره، وتتهكم بالشيوخ.

وانتصر رجل الدين في النهاية بمصر، وألغيت دور البغاء وبيوت الدعارة، ولم تظهر تلك المشكلات التي فطن إليها الداعون من دارسي علم النفس والجريمة والاجتماع، مما جهله في زعمهم رجل الدين وعلم الناس كلها من هو الصغير ومن الكبير، ومن هو عدو المرأة ومن صديقها، الذي يرجو لها الخير والسمو والرفعة.

وما زال التجني على علماء الدين وشيوخه في دعوى عداوتهم للمرأة، مستمرًا وخاصة من الهيئات النسائية، التي اتخذته عدوهم الحاقد، وخصمهم الماكر الذي لا يطيقون أن يسمعوا اسمه، فضلا عن أن يقرؤوا مقالاته، يقول شيخنا: "بينما يحظى بصداقتها وتعده رفيق الدرب وزميل الكفاح، فهو إما قصاص يكتب رواية تكون بطلتها زوجة خائنة تخدع رجلها البريء، وتقدم المثل السيئ لبنات جيلها لتنتشر روايات الخيانة، وتجد الرواج، أو إذاعي يحتضن مسلسلة وقحة تكون بطلتها أداة من أدوات التأثير في

الرجل بها تبذل من شرفها وطهارتها، ومن العجب أن تجسُّد أحد هذه العروض كشف أساليب الصهيونية، ولا تكون أداة الكشف إلا بامرأة عربية، يمتهن شرفها وعفتها لتحصل على سر زائف، يؤلفه كاتب غبي، أداة للكسب، لتكون هذه المرأة بطلة لا في أعين النساء، ولكن عن الوطن كله.

ويكون هذا المذيع ومؤلف القصة وممثلها من أصدقاء المرأة الخلصاء، أما العدو الحقيقي، فهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء."[1]

وهنا نراه يوجه بأوجب الواجبات المنوطة بهم مما يتهربون منها وأثبتوا فيها فشلهم، وهي المشكلات الحقيقية للمرأة في المجتمع مما يؤدي إلى الطلاق، أو رعاية البيت والأطفال للمرأة العاملة المنشغلة، التي لم يقدموا فيها نموذجًا جيدا يمكن احتذاؤه، ولكنهم لم يفعلوا ولا يجعلون من المشكلات الحقيقية ميدانا للدراسة، لأن همهم هو التبذل وإقامة الحفلات ودعوة المصورين والمصورات، والمودة والتزين، ثم قبل ذلك كله، التحرش برجل الدين وعده مصدر الخطر الذي لا يطاق.

انشغلت صحيفة كبرى بأخبار العبث الخاسر والمجون السخيف من جماعات العري والداعين إليه، وكان هذا في ظل ما يشهده العالم الإسلامي من محن وآلام وأحداث خطيرة ماج بها مما يرهق الخاطر، وتنشغل به العقول تفكيرًا، فتدمي القلوب حسرة عليه، لكن هذه الصحيفة اهتمت بالحديث عن هذه الطوائف المريضة الناشزة في الغرب، والتي تجمعت في معسكرات خاصة، يختلط الرجال فيها بالنساء دون حذر، وادعى الكاتب أن

1 - من منطلق إسلامي د- محمد رجب البيومي

العري غير محظور في الأديان، وأنها لم تتحدث عن الملابس، ولا شأن لها بها، ويتساءل شيخنا: أي دين يعني الكاتب؟ فإذا كان يقصد غير دين الإسلام فلا يهمنا الأمر في شيء، لكن المجلة التي نشرت هذا الهراء، تصدر في بلد إسلامي، والإسلام يحارب التبرج، ويحدد عورة المرأة والرجل، فكيف يكون الدين مفقود الصلة بالعري؟

ويرد شيخنا على دعاوى الكاتب، حينما ذكر "أن الملابس تغري بالزواج، وعندما يرى الشاب الفتاة على حقيقتها فإنه ينفر منها، وبهذا يكون المقال دعوة صريحة إلى عدم الزواج، وارتدا للحيوانية، وإذا كنا نحارب الدعوة إلى تحديد النسل، ونراها خطرًا على امتداد الكيان الإنساني، أنفاجأ بدعوة مستترة أو ظاهرة إلى ترك الزواج ليتفاقم الخطب ويعم البلاء؟

وأخذ الكاتب يجري وهو يرصد خرافات وحججًا أقرب للترهات، مثل إفادة العري للجسد حينما يتعرض للشمس، وتنبيه الذهن وتحقيق الشعور بالبهجة، والانتعاش عند التجرد، وغير ذلك مما لا فائدة منه، وقد أثير هذا الكلام في أوروبا، فحمل عليه رجال الدين حملات لا تعرف الهوادة، فلم يشر الكاتب إلى هذه الحملات ليعرض المر بوجهتيه فضيلة ورذيلة، إنه تحايل مقيت ودعوة إلى جريمة منكرة.

وكل هذا السفه والهرج تقوم به جريدة عربية في بلد مسلم، أمام الكوارث التي تحيق بالمسلمين في كل مكان، فإلى الله المشتكى".[1]

---

1 - المصدر السابق

وفي إحدى مقالاته في صحيفة (صوت الأزهر) كتب تحت عنوان (نقد صارخ)[1] انتقد فيها ما كانت تغط به القاهرة وميادينها من إعلانات السينما ونجوم الكرة والفن، كان يشاهد هذه اللوحات والإعلانات كدعاية لمشاهد الإغراء الماجن، فلم يكن له أن يصمت أو يتوارى وهو العالم الأزهري والمفكر الحر، فكان يكتب ويقول: إنها عدوى الأمم الغربية قد انتقلت إلى مصر، لأننا نقلد دائما هذه الأمم في المغريات الهابطة، والعادات القميئة، ولا نحاول أبدًا أن نقلدها فيما تبتكره من كشوف في دنيا العلم أو سباق في عالم الصناعة، لأن مركب النقص قد وقف بنا في هذه الكشوف الظافرة إلى حد لا نتعداه".

لم يمنع رحمه الله مسألة تقليد الغرب جملة، وإنما كانت دعوته إذا ألح عنصر التقليد، أن نقلدهم في الشيء النافع المفيد الذي يرفع الأمة، ويجلب النهضة، لكنه وقف على أساس الداء، بأنه مركب النقص الذي مُني به أكثرنا، فصرنا لا نقلدهم إلا في الهابط من الأعمال.

وتظهر فلسفة الدكتور البيومي وتمتد رؤيته إلى جانب دقيق من تأثير هذا الصنيع في التعليم والأجيال حينما يذكر: "أن ما يقرأه الطلاب والطالبات وما ينظرونه من صور الممثلين والممثلات في كل جريدة وفي كل مكان، قد جعل هؤلاء هم المثل المنشود للنشء، فأقصى آمال الصبي والفتاة، أن يكون نجما سينمائيا، وأنا أعرف أن كلمة (النجم) كلمة خادعة كاذبة، إذ أصبحت تطلق لدينا على كل من يمثل دورا سينمائيا، وكأنه بذلك أصبح الكوكب المتألق في السماء ينظر إليه السائرون في دهشة وإعجاب".

[1] - عدد الجمعة 24 صفر 1422هـ 18 مايو 2001م

وانتقد الإعلام الذي يتجاسر على عرض مثل هذه المغريات من مشاهد الانحلال في شهر رمضان المبارك نفسه، والذي يفترض له أن يكون شهر التهذيب والتقوى، فتمتلئ البرامج بمثل هذا التردي الذي لا يتناسب مع طبيعة الشهر الإيمانية، كانت كلماته رحمه الله ناقدة لهذا المسار المنحرف والوضع الذي لا يقبله الدين والخلق، والعقول التي تريد النهوض بأمة عاقلة متقدمة.

وكان رثاؤه للبطولة ومعانيها التي تبدلت وتحولت في مفاهيم الناس، وكانت صراحته في هذا أشد حينما قرر أن إطلاق البطولة على هؤلاء كذب صراح، في الوقت الذي يوجد فعلا من يستحقون معناها بينما يحرمون منها، وضرب مثلا بالدكتور أحمد زويل فهو نجم أو بطل في ميدانه، ولم يلق من الاحتفاء مثل ما يلقى الممثلين والممثلات.

كما كان نقده الأدبي الصارخ، والذي لم ينفصل يوما عن الأخلاق الكريمة والمعاني الفضيلة والقيم النبيلة، التي كان يدعو إلى تأصيلها في المجتمع، لقد عاب على هذا التيار الروائي الذي انتشر في الآونة الأخيرة بين فتيات هذا الجيل ممن يكتبن ويبدعن، ولم يكن نقده لهن من باب أنه يرى من العيب على المرأة أن تكتب، لا؛ وإنما كان يقرر أنه لا ينكر على المرأة أن تكتب القصص العاطفية والاجتماعية، وضرب مثلا بسهير القلماوي وأمينة الصاوي، وبنت الشاطئ ولطيفة الزيات وأمينة السعيد وغيرهن الكثيرات ممن قدمن أدبًا قيما حفظن به مكانة المرأة المصرية في دنيا الأدب وفي الفن القصصي على وجه الخصوص.

لكنه اتجه بلومه الشديد على جيل المراهقات اللاتي يندفعن إلى الكتابة في تصوير الجنس والمواقف الهابطة والمنحلة، وعدها جرأة عجيبة منهن حينما يكون مثل هذه الأحاديث مما لا يمكن تصور سماعه في حديث شخصي بين اثنين، فضلا عن أن ينشر بين الناس، فهذه القصص جميعها بل تسعة أعشارها -حسب تعبيره- تدور حول الجنس الصارخ بانحداره، وكأن الجنس قد أصبح كل شيء في الحياة، ولم تكتب إحداهن قصة بطولة وطنية واحدة تكون ذرًا للرماد، ويرى البيومي أن كثرة هذا التوجه من الكتابات لدى الفتيات المبدعات، يؤكد أن هناك مخططا خافيا لتهميش الفكر الأدبي بعامة في مصر.

بل واصل لومه الشديد للنقاد الذين أيدوا هذا الانحدار الأخلاقي وجعلوه فنًا وإبداعا ولونًا جديدًا من السرد المبهر الشجاع فيقول: "وقد تفضح الكاتبة مجتمعها في قسوة مفرطة، فتقول في قصة ما إن الأب سارق، والأم منحرفة، والأخ مدمن، ولكن البطلة استطاعت أن تعيش في هذا الجو العفن، وكان لا بد لها من السقوط، لأنه أمر ضروري لا محيد عنه، وإزاء ذلك يجب ألا يحاسبها أحد، وهذا العري الفاضح يأتي بأسلوب تقريري مباشر، تتخلله ركاكة متدنية! وكان على الناقد أن يبدي رأيه فيما يقرأ من المخجلات النابية، ولكنك تجده يقول: إن الكاتبة الشابة شجاعة صريحة لا تعرف أساليب الخداع، وهي تصور المرض وتشخصه في جراءة نادرة!! أي تصوير يا أخي! وأنت لو سمعت حديث امرأة أمية منحدرة عن شريكة لها في بلواها، لوجدت ما قالته الكاتبة بعريه وانكشافه!! فهل نعد حديث هذه المرأة أدبا!! وأدبا شجاعا!"[1]

---

[1] - المرجع السابق

بل رأى أن آثار هذا المخطط التخريبي لم تمس الفتيات فقط، بل امتدت لتطال دور النشر ذاتها، فعمل بعضهم على نشر هذا المظهر المنحرف، وعمل على إيجاد هذا التيار المنحرف، وساعد على نشره في هيئة خداعة، لتؤتي ثمارها في توجيه القارئ للانهيار الخلقي.

كان قلمه رحمه الله شديدًا للقوانين الوضعية التي لا تحافظ على قيم المجتمع وتحترم ثوابته وأخلاقه، وتعبث بالتقاليد والعادات المجتمعية الشرقية، وكان هذا حينما عقب على الحُكم الصادر بشأن قضية الفيلم السينمائي الفاضح "مذكرات مراهقة" الذي جعل بنات مصر بغايا وأباح الاتصال الجنسي المريب، وفاخرت المخرجة على صفحات الجرائد بما انتهكت من محارم وجعلت نفسها بطلة التحرر، والتحرر في منطقها هو الانحلال الخُلقي، والتمرغ في حضيض الشهوة والإباحية المطلقة لكل محرم محظور، لقد فزعت سيدة فاضلة من فضائح هذا الفيلم الداعر، فتقدمت برفع قضية تدين هذا العمل الفاضح، وتقضي بمعاقبة التي اقترفته ولكن القانون الوضعي في تعديله السيئ الأخير لا يجيز رفع الدعوى إلا لمن أُسيئت فعلاً بهذه الفضائح أما قول الله عز وجل ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1] فليس له اعتبار لدى من فرضوا هذا القانون، لِيُفلت الآثم بجريمته وقد رُفعت القضية إلى المحكمة وعرف القُضاة العدول مدى خطورة الجريمة الشنعاء، ولكنهم وجدوا القانون الوضعي لا يُجيز لسيدة شريفة أن تحافظ على طهارة مجتمعها المسلم فتصيح صيحة الإنكار لهذه الفضائح وترفع المسألة للعدالة طالبة توقيع العقاب على المجرم الآثم، إنما ذلك حق لسيدة ذكرت بالاسم فقط، فهي التي ترفعُ القضية، والمتهمة بريئة من هذه الناحية وحدها وإذن فلا عقاب! لقد ذكرت المحكمة في قرارها الصارم أن القانون الوضعي يبرئ المتهمة ولكنها في منطق الشريعة الإسلامية تستحق العقاب، لأنها أشاعت الفاحشة وأعلنت الاستهتار بكل القيم الخُلقية

[1] - سورة آل عمران : 104

والإنسانية وعليها أن ترتدع لأنها سقطت سقوطاً شنيعاً هذا بعض ما جاء في الحكم الصارم الذي أصدرته المحكمة!

كما لام في حديثه أصحاب القرار والمسؤولين الذين يفرضون على الناس حكم القوانين الوضعية التي تصطدم مع شريعة الإسلام وتسبب الفوضى الخلقية وتمنح المفسدين فرص الإفلات من العقاب، ثم عقب على هذا المشهد بملمح العالم الناصح الذي يعتز بوطنه ومظهره العام فيقول: "وأنا لا أدري كيف تظهر بنات مصر بهذه الصورة الفاضحة في أفلام تذاع في العالم الإسلامي ثم يسكت المسؤولون عن هذه الفضائح المنكرة! والأخطر من ذلك أن يتمادى أولو الشر في عبثهم الفاضح مع ما نعرفه عنهم من التحدي السافر لكل القيم الأخلاقية، لأنهم يعرفون أن لا عقاب"[1]

وسَخِر كذلك من أدعياء الفكر والتحرر المنحل، لأن التحرر عندهم هو التحرر الإباحي فقط، أما تقليد أوروبا في فتوحاتها العلمية وتقدمها الحضاري فلا، ومن يقدم مثل هذه الأعمال المنحرفة لا يقرؤون غيرها وكأنها الزاد الثقافي الوحيد الذي يأتيهم من الغرب، وتحدى البيومي أمثالهم أن يكون أحدهم يعرف ما قدمته أوروبا من علوم الفكر والاجتماع والتاريخ.

1 - راجع كتاب قضايا إسلامية. د- محمد رجب البيومي

حرية الفكر والإبداع

حول قضيتي كتاب الإسلام وأصول الحكم وكتاب الشعر الجاهلي، كانت المعركة الدائرة تحت دعوى حرية الفكر، وكان للأزهر وعلمائه دور كبير في التصدي لأفكارهما وكان للدكتور البيومي بيانه الجزل والفصل في هذه المسألة للتفريق بين حرية الفكر والإبداع وبين التجني والزيف، فعن كتاب الشعر الجاهلي قال البيومي: "إن الدكتور طه حسين لو قصر حديثه على الأدب الخالص، ما تعرض له الأزهر في شيء، لأن النقد الأدبي لا يثير علماء الدين، بل منهم من تخصص فيه عن جدارة واقتدار، كما لا يهيج جمهوره، ولا يدفع إلى قضاء ولا إلى محاكمة، ولا يشغل نوابه ووزراءه وشعبه، ولكن الدكتور ترك النقد وتصدى للقرآن دون ضرورة أدبية ما، فأعلن أن القرآن قد تحدث عن إبراهيم، ولكن حديثه ليس من الضروري أن يثبت وجوده، وأفاض في هذا المنحى، بما ظهر أنه منقول عن المستشرق الإنجليزي مرجليوث حرفًا بحرف!

ومن وراء إنكار ذهاب إبراهيم إلى مكة نفي بناء البيت ورفع قواعده، ونفي صلة إسماعيل بالعدنانية! هذا الإنكار الصريح لحقائق القرآن، ماذا ينتظر من الأزهر بإزائه، أينتظر منه أن يسكت عن هجوم سافر نقله غافل عن حاقد، وإذا سكت الأزهر، فما رسالته إذن في الحياة، وعلام يرتكز وجوده إن لم يكن خط الدفاع الأول عن حقائق القرآن ومقررات الإسلام! لقد أدى الأزهر دوره الذي هو أساس بقائه، وسر وجوده، فماذا قال عنه المغرضون؟

قالوا: إن الأزهر جامد يحارب حرية الفكر، كأن حرية الفكر لا تتم إلا بتكذيب كتاب الله! وأكبر ظلم وجه للأزهر أنه مدفوع من جهة سياسية لمناوأة الفكر الحر! أي جهة سياسية هذه حتى يرمى الأزهر بالتبعية لها؟ اللهم إن كانت هذه الجهة – على فرض وجودها – تعمل على

الدفاع عن القرآن، فقد تلاقت مع الأزهر في طريق الصواب ولا يهم الأزهر أن تكون معه أو عليه! وإني لأتساءل هل لو اقتصر الدكتور على إنكار الشعر الجاهلي أكان الأزهر سيتعرض له في شيء؟ ليته فعل ذلك فأراح واستراح".

وعن الكتاب الثاني قال رحمه الله: "أما الكتاب الثاني فهو كتاب «الإسلام وأصول الحكم» وفيه دعوة واضحة لفصل الدين عن السياسة، فقد قال المؤلف بالحرف الواحد «إن كل ما شرعه الإسلام، وأخذ به النبي والمسلمون، لم يكن في شيء قليل أو كثير من أساليب الحكم السياسي، ولا من أنظمة الدولة المدنية، وإن دعوى إجماع الصحابة على إقامة إمام عادل ليس لها من دليل صحيح، وإن جهاد النبي – صلي الله عليه وسلم – كان في سبيل الملك لا الدين». هذا بعض ما جاء في الكتاب، ومؤلفه عالم من علماء الأزهر، ويتولى منصب القضاء الشرعي، فهل يسكت الأزهر عن أقوال منكرة نسبت إلى أحد علمائه ؟ لقد قامت قيامة الصحف الإسلامية خارج مصر ضد هذه الأراخيص، أتقول للأزهر: صه لا تفتح فمك لأنك إذا واجهت الباطل بلسان الحق تحارب حرية الفكر؟ لقد صدرت مؤلفات الشيوخ الكبار من أمثال الأساتذة محمد نجيب المطيعي ومحمد الخضر حسين والطاهر بن عاشور والدجوى، داحضة كل هذه الافتراءات بالمنطق الحاسم والدليل المقنع، ولجأ خصوم الأزهر إلى القول إن الأزهر مدفوع من جهة سياسي! كدأبك من أم الحويرث قبلها، وأعيد ما قلت من قبل فأعلن: وأنه إذا تلاقت جهة ما مع الحق في طريق، فلا تهم الأزهر أن تكون معه أو عليه، إنما يهمه أن يبطل الباطل ويحق الحق.

وهنا نتساءل أكان الأزهر في موقفيه هذين يصادر حرية الفكر؟ أو أنه يمشى في اتجاه واحد مع الفكر الصحيح ؟"[1]

[1] - راجع الأزهر بين السياسة والفكر –د. محمد رجب البيومي

ثم شرح رحمه الله مناط هذا الاتهام مصححا هذه الإشكالية بين حرية الفكر والتجني على الثوابت والقيم فقال: "إن الحرية الفكرية التي تستند إلى المنطق السليم، والتاريخ الواقعي والنص الصريح، لا يحاربها عالم من العلماء الأجلاء أزهري أو غير أزهري، بل هي باب التقدم المطرد، والاكتشاف المثمر. أما الحرية التي تعتمد على النقل المبتور، والاستنباط السقيم، والاختلاس من ذوي الغرض من المستشرقين، فهذه ليست حرية، ولكنها فوضى، فلنسم الأشياء بأسمائها الصحيحة لنعرف الخطأ من الصواب، والصحيح من السقيم، ولم يقف الأزهر أمام تجديد علمي مؤيد بالدليل، بل دافع عنه وقواه".

ثم قدم نموذجا عمليًا لوعي الأزهر وأساتذته بحرية الفكر الحقيقية، وكيف تكون وعلى أي مسار تسير فذكر واقعة كتاب قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار الذي ألفه في محاضرات علمية ألقاها على طلاب كلية أصول الدين، وفي ثنايا الكتاب ما يخالف بعضًا من الوقائع المترددة في كتب التراث، ومنها ما تصرخ إسرائيلياته صراخاً يصم الآذان، فضاق نفر من السامعين لبعض ما ظنوه خطأ لا يحتمل الصواب، ورفعوا الأمر إلى فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبدالمجيد اللبان، شيخ كلية أصول الدين حينئذ، فماذا فعل شيخ الكلية، هل صادر الكتاب؟ هل أوقف الأستاذ عن التدريس وهو أستاذ «منتدب» وليس أصلا من الأزهريين الرسميين، إنه ألف لجنة من أساتذة الكلية لدراسة الكتاب، وتقديم تقرير يشمل ما يرونه من الملاحظات، وقد قامت اللجنة بواجبها ونقدت الكتاب بما رأته، فعرض شيخ الكلية التقرير على الأستاذ النجار وطلب منه أن يرد عليه، فقام الأستاذ سريعًا بالرد الحاسم، وكان الحق إلى جانبه في كثير مما أخذ به، وطالع الشيخ اللبان رد النجار فلم يجد به ما يسجل وضعا للمؤاخذة، فشكره، وكرر انتدابه للتدريس، وقام المؤلف في الطبعات التالية بنشر نقدات اللجنة، وما عقب عليها به في تقريره، وسارت للكتاب بهذه الحركة العلمية شهرة مستفيضة، بل زاد به الأستاذ النجار فضلا، وزاد به

الشيخ اللبان مكانة وتقديرا، وهنا تكون حرية الفكر في ميدانها الأول، رأي يصول على رأي، وحجة تدفع حجة، وإذا وجدت بعض العبارات القاسية في موضع ما من تقرير اللجنة، فقد رد عليها الشيخ بما يكافئ! ثم تصافح الفريقان، هذا مثل للجدل الصائب، والفكر الحر، والرأي المنافح، أما أن تهاجم نصوص القرآن تارة، وتتنكر للمبادئ الأولى في السياسة الإسلامية تارة أخرى فيعلن الأزهر رأيه مصححًا الخطأ، ثم يزعم زاعم أنه يتنكر لحرية الفكر، ويقف مع الجمود في صف واحد، فهذا هو اللغو الصريح"[1]

ثم قدم لهذا كله بهذه الرحلة النضالية الإصلاحية، التي قام بها الإمام محمد عبده الذي دعاء إلى حرية الفكر في ظلال القرآن والسنة، فحورب واضطهد وخرجت الجرائد المأجورة تنهش فيه وتشوه أفكاره وترميه بالزندقة والابتداع، لكن كان هناك على الجهة الأخرى جيل من الشباب آمن بأفكاره وهتف برؤاه وأخذت أقلامهم تشرق على صفحات الجرائد والمجلات لتعطي صورة أخرى للأزهر مما ألفه الناس.

لم يكن الدكتور البيومي رحمه الله في هذا الإطار متعصبًا منغلقًا أو متشددًا متحيزًا، لا يقبل بالآخر ولا يشيد بالفضل وإن كان من غير بيئته التي ينتسب إليها، أو فكره الذي يدين به، بل كان ذلك المفكر المنفتح المتسع لكل الآراء والنظريات والأمثلة والشخصيات التي خدمت الإنسانية وقدمت لها نماذج الخير والرقي والتحضر والنبوغ.

يحكي عن نفسه أنه ألقى منذ زمن محاضرة عن هموم الشبيبة العربية في العصر الحاضر، ودعاهم فيها إلى القراءة الجادة في شتى فروع الثقافة، فسأله أحد المعقبين عن أهم ما ينبغي أن يُطالعه الناشئ في عمره الزاهر؟ فأجاب رحمه الله بأن سير العظماء في الشرق والغرب هي أهم ما

1 - من مقال للبيومي في صوت الأزهر بتاريخ الجمعة28 جمادى الأخرة 1420هـ 8 أكتوبر 1999م

يُذكي جذوة الحماسة لدى هؤلاء الذين يتطلعون إلى المستقبل الزاهر، فحين يقرأ الناشئ سيرة عظيم أدى دوره الحاسم في حياته حتى ارتقى ذروة التقدير والإكبار، فإنه سيتخذه مثالاً يحتذي به، ثم ذكر أمثلة لبعض المشاهير من الذين كتبوا لأنفسهم صفحات الخلود، وظن البيومي أنه أشبع رغبة المعقب، ولكن اعترض فاضلاً آخر على أسماء من أعلام الغرب ذكرهم البيومي فيمن ذكر من أعلام الشرق، ورأى أن الاقتصار على أعلامنا المرموقين أجدر وأولى، وصادف قوله تصفيق بعض السائلين، حتى ظن أنهم يعتقدون صواب تعقيبه، فقام البيومي بالتعقيب على كلامه وقال:

"إن النبوغ الإنساني ليس وقفاً على وطن بعينه، لأن الإنسانية لم تعدم في شتى بقاع العالم من حملوا مشعل العلم والثقافة والتوجه والسياسة، فأدوا دورهم الإنساني أحسن الأداء، ونظلم الشبيبة المتعطشة إلى النموذج المثالي في العلم لو حجبنا عنها أمثلة عالمية من الكفاح العلمي الشامخ الذي أثمر أحسن الثمرات، ونعمت الإنسانية بما أبدع من اكتشاف، بل لا بد أن يكون دائرة المعرفة الإنسانية شاملة متسعة حتى لا يقبع القارئ في حدود ضيقة يضيع معها خير كثير، لماذا لا تعرف الناشئة كفاح أبطال ممتازين نشأوا في مهاد الفقر والعوز، وكانت ظروفهم الخاصة لا تسمح لهم بإظهار ما يكنون من نبوغ متوقد ولكنهم شقوا طرقهم في الصخر الأصم كادحين بأظفارهم الهشة مستعينين بالصبر والثبات، آملين أن يُشرق عليهم الفجر بالضياء دون أن يهن لهم عزم، أو ينكص بهم تثبيط حاقد حسود ثم وصلوا إلى الغاية المنشودة فاقتعدوا مقاعد العظمة في سجل التاريخ".

وضرب مثلا بأديسون وقال: "لماذا لا يعرف أبناؤنا سيرة العالم الساحر "إديسون" الذي نشأ صغيراً في مهاد الفقر والعوز واشتدت حاجة الطفل الصغير إلى العمل كي يكسب قوت

أسرته، فبدأ ببيع الصحف والفاكهة في قطارات السكك الحديدية قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره ودفعته قراءة الصحف إلى تتبع أخبار النابهين من العلماء المخترعين في كتب خاصة بهم فجعل يقتصد من ثمن طعامه ولباسه ليحضر هذه الكتب ويقرؤها بشغف، وصادق حارس القطار فأذن له أن يجعل عربته معملاً صغيراً لما يقوم به من التجارب، ثم دفع بثمار تجاربه إلى الصحف فنشرتها وكأنها بقلم مخترع كبير، وأخذ أسمه يظهر مع العلماء وهو موزع صحف في القطار!

كما اشتاق أن يعلم أسرار البرق فاتصل بأحد العمال وعرض عليه أن يُساعده في علمه دون مقابل على أن يفهمه ما خفي عليه من أمر هذه الأسلاك، واستطاع في السادسة عشرة أن يفك الآلات، ويزاول البحث، حتى أحدث إصلاحاً في الآلات البرقية وبهذا الإصلاح أمكن للأسلاك أن تحمل عدة رسائل مرة واحدة وأن تقصر على رسالة واحدة، وكان اختراعه هذا مدهشاً فنال جائزة علمية قبل أن يبلغ سن الشباب.

وواصل الكشف العلمي بشغف حتى استطاع أن يخترع المصباح فكان فتحاً كبيراً في ميدان العلم، ثم اخترع الحاكي والآلة الكاتبة وأظهر ضروباً من العجائب، ما زالت حديث الناس إلى الأن وقد نشأ فقيراً بائساً".

ولفت بأن مثال أديسون هو مثال يقدمه للشاب الناهض المتطلع، وذلك العالمة "ماري كوري" تقدم مثالا للشابات والتي اجتهدت وتعلمت وسافرت إلى فرنسا، واجتهدت حتى وظفت عاملة في جامعة السوربون تقوم بغسل المطبخ إلى تنظيف المعامل العلمية، فكانت تراقب أعمال العلماء، وتتسمع إلى كل ما يقولون، وأحياناً تتقدم بالرأي فيما تسمع، وتنبه لذكائها

الأستاذ كوري أحد الأساتذة أن العاملة البائسة ذات قدر غير محدود من الذكاء، فعهد لها ببعض الأعمال الدقيقة فقامت بها على أحسن ما ينتظر من القيام، وإذا ذاك سارع بالزواج بها، لاعتقاده أنه سيفيد من تجاربها العلمية، وهي روح عالية من هذا العالم الذي قدر النبوغ لذات النبوغ ولم يعبأ بأغراض من قالوا إن الأستاذ تزوج عاملة كانت من قبل غسالة في مطبخ! وقد واصلا البحث معاً حتى اهتديا إلى كشف عنصر جديد هو "الراديوم" وهو الذي صار علاجاً لبعض الأمراض الخبيثة كالسرطان وكان اكتشاف الراديوم باعثاً لاكتشاف الأشعة النافذة إلى الأجسام فتعرف بها أماكن الداء وتشخص وسائل العلاج دون حاجة إلى جراحة تشق البطن وما زلنا ننعم الآن بثمرة هذا الاكتشاف".[1]

وهذان المثلان في رأيه من أعظم ما يقدم للناشئة من أمثلة في تاريخ البحث العلمي، والذين لا يمكن لأبنائنا أن يجهلا دورهما الإنساني حين يقتصرون على علماء الشرق، وأكد أن "تاريخ العلم الآن يفيض بأمثلة كثيرة من هذا الطراز العلمي القادر، وعلينا أن نتابع جهود هؤلاء الكبار لأن النبوغ لا يتقيد بموطن دون موطن، ولعل من بواعث فخرنا العظيم أن ينال الباحث المصري النابغة أحمد زويل جائزة نوبل العلمية فيسجل اسمه في كتاب الخالدين!"[2]

ولعل هذه النظرة تعكس سعة العقل وعمق الفكر وروح الشخصية التي ترفض التعصب وتنبذ التحيز، وتسعى إلى كل ما يخدم الإنسانية من جهود النماذج المضيئة التي لا ترتبط بوطن أو دين، وهي نظرة عقل حكيم ومصلح راشد، يعكس بآرائه صورة الإسلام الصحيح الذي يتكيف مع الآخرين ويقبل التواؤم والاندماج العالمي، بلا حرج أو موانع.

---

1 - جريدة صوت الأزهر- الجمعة 16 من جمادى الأولى 1423 هـ 26 يوليو 2002 م

2 - المصدر السابق

إخراس الحق

ندد رحمه الله في كتاباته بما يواجهه العلماء من كبت لآرائهم وتقييد لحريتهم وردودهم، إذا ما أرادوا الرد على أوهام ملحدة تلبس لباس البحث العلمي وهو منها براء، وقد لمس ذلك في أكثر من حادثة، ومع أكثر من قضية فكرية تتعلق بالدين مما شهدته وعرفته الساحة الفكرية، وكان يتساءل جزعًا: "لماذا نعطي الحرية التامة لمن يتجرأ على كتاب الله دون دليل، ونعده باحثا مستقلا، ثم لا نعطي الحرية لمن يقف في وجه العبث ليدل على بطلانه، وليرشد إلى مصدره الأول باعتباره رأيا لمستشرق مغرض، نقله الباحث عنه دون أن يعزوه إليه، وهو مشتهر لدى الباحثين".

كان هذا لا شك قوله في قضية الشعر الجاهلي وملاحظته لهذا التيار الذي يريد أن يخرس صوت العلماء في الرد على قدمه الدكتور طه حسين.

ثم تأتي حادثة أخرى كان التعامل فيها مع صوت العلماء بالحجب والتكتيم شبيها بما كان في قضية طه حسين، حينما خرج نفر من المتغربين ليكيلوا الطعان للخلافة الإسلامية بمعناها الديني، وشبهوها بالقيصرية في التحكم والاستعباد، وقد كذبوا على الله وعلى الناس حين قرنوا الخليفة المسلم ببابا الكنيسة الرومانية الذي يمنح الغفران لمن يشاء، ويحجبه عمن أراد، فانطلق المغالطون يعددون مساوئ الكنيسة في عصور ما قبل النهضة، ليضيفوها إلى الخليفة، في مقارنة ظالمة، لا تزال تجد من ذيول الكتاب من يرددها بين حين وآخر، وقد كان فيما سبق كتاب الإسلام وأصول الحكم شاهدًا على مثل هذا الغثاء، وحينما حاولت الأقلام المنصفة أن تمسك بالزمام، علت صيحات الاستنكار، ورمت المدافعين عن دين الله بالوصولية والنفاق، وتساءل البيومي:

هل نال المدافعون عن الحكم الإسلامي بعضا من الحظوة التي ينالها المنحرفون؟ إن أصحاب الانحراف يتبوؤون أرقى المناصب، ويتصدرون الصفحات الأولى في أمهات الصحف، وينشر لهم دوي مزعج في وسائل الإعلام المختلفة، أما أنصار الفكرة الإسلامية إذا حاولوا نشر آرائهم؛ فتضن الصحف عليهم بمساحة صغيرة تعلن عن رأيهم الصحيح، وتكتفي بتلخيص الرد إذا جاء من كبير مسؤول!! حتى صرخ شيخ الأزهر شاكيًا من إهمال الصحف لردوده!! فإذا اشتكى شيخ الأزهر وهو الرأس الأعلى للإسلام في مصر من إهمال ردوده القاطعة، فبماذا يعامل من دونه من العلماء والدعاة، وهم يسمعون اللغو الشائن، ويقرؤون السفه المنكر، ثم تدفعهم الغيرة الإسلامية إلى إحقاق الحق، فلا يجدون المجال المتسع للنشر!! بل يجدون من يرميهم بالتعصب والتزمت دون حياء.

ويقول رحمه الله: " أذكر أن جمعية الشبان المسلمين عند تأسيسها الأوّل قد صادفت حرباً ضارية لا لشيء، إلا لأنها ستكون جمعية إسلامية في بلد إسلامي!! إن جمعيات أخرى تنسب إلى طوائف دينية تجد التأييد التام والمعونة المطلقة، ونحن لا نمنع أن تنتشر الجمعيات الدينية إسلامية وغير إسلامية لتدعو إلى الفضائل الإنسانية كما رسمتها الأديان الصحيحة، إنما نمنع أن تعلو الصيحات عند إنشاء جريدة إسلامية أو جمعية للشبان مع الأمة المسلمين، وكأننا بذلك نهدم بناءً شامخاً، وسوراً حصيناً يحمي البلاد! وفي معمعان هذه المعارك تظهر الدعوات إلى الفرعونية لا ليراد بها الاعتزاز بتاريخ مصر القديم بل لتكون الفرعونية رمزاً للأمة المصرية، وتبحث عن صدى هذه الفرعونية في المصرية، فلا تجد غير الآثار والهياكل، وتلك لا تجذب غير السائحين من

الأجانب، أما المصريون مسلمون وأقباط فلديهم من آثارهم الدينية ما يقع موقع الإجلال والتكريم، ولكنه الهزل المقيت."[1]

"لقد مرَّت على مصر والعالم العربي فترة مظلمة؛ كانت أبواقُ الشيوعية والعلمانية تسيطر على كل اتجاه إعلامي، حتى حانت ذكرى المولد النبوي في بعض السنوات خلال ما زعموه من إحياء ذكرى «لينين»، فانطلقت الصحف والإذاعات تتحدث شهرًا كاملاً عن الزعيم الشيوعي، وحانَ يوم الثاني عشر من ربيع، فما اتسعت الصحفُ الذائعة لكلمة واحدة تتحدث عن هذا الذى أرسله الله إلى الدنيا؛ رحمة للعالمين.

لقد أرسل الإمام الأكبر الشيخ- جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله، شكوى صارخة؛ لأن الجرائد اليومية تهمل كلماته تارة، وتختصرها اختصارًا مُخِلًا تارة أخرى، وهذا ما فزع له البيومي شخصياً وكتب تعليقا آسفا حوله، نشره بجريدة الوفد تحت عنوان: "شيخ الأزهر يشكو"، قال فيه: "فإذا كانت هيبة شيخ الأزهر لا تمنع أن تُحجب آراؤه، فماذا يفعلُ مَنْ دونَه رسميا من العلماء في هذا الجو الكريه؟! وقد ضمن الله -عز وجل - لكلمته أن تعلو، فقامت الصحوة الإسلامية بعد النكسة لِتَعْصِف بكل ما كتبه المرجفون من ذيول الغرب، وقد نظروا نظرة الغضب حين وجدوا أنفسهم يُسيطرون على كبريات الصحف وكل وسائل الإعلام تقريباً، ثم لا يستمع إليهم أحد، على حين علت كلمة العلماء في منابر الجمعة، فأصبح لها النفوذ الإعلامي الرنان، وذكر شيخنا البيومي كلاما لأحد المسيطرين على الإعلام من قادة هؤلاء، وقد تحدث إلى كثير منهم في مرارة، فقال:

[1] - مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن- د. محمد رجب البيومي

"أين أثر أقلامكم؟! إنكم تكتبون وتنهبون الأجر الخرافي ثم لا يسمعكم أحد، خطبة واحدة من الشيخ- محمد الغزالي، وحديث واحد من الشيخ الشعراوي، يمحوان مقالاتكم محوا، وطبيعي أن يخاف هؤلاء على سيطرتهم الإعلامية وما تَجُرُّ من كسب ومكانة، فأخذوا يتربصون بالكبار من الدعاة، ولم تنفعهم الأسلحة البائرة من كلمات الرجعية والانتهازية والتقدم؛ لأن النكسة الأليمة قد عَصَفَت بكل اتجاه ضال، وجعلتهم عراة لا يجدون ما يلبسون".[1]

كما انتقد رحمه الله تأييد الصحف في البلاد الإسلامية، لكثير من الآراء والنظريات الإلحادية، التي تقوم في الغرب، ثم لما ثبت زيفها وقامت الحجج عليها، لا تسمع لهذه الصحف وكتابها همسًا أو إشارة إلى الرأي المخالف المنتصر، وكأنهم يرون كل ما يدل على الإيمان ويهدم الإلحاد خطر كبير يجب التستر والتعتيم عليه، والمنطق المنصف يدعو إلى الحياد، وهؤلاء فاتهم أنهم يتسمون بأسماء إسلامية، وأن عليهم أن يكونوا من ذوي الغيرة على الحقائق من حيث أنها حقائق.

لقد كان هذا الحال مواكبًا لما حدث في أمريكا من الاعتراض على نظرية داروين التي أدانها القانون، فإذا بالجرائد الأمريكية ترحب القانون وتحترمه وتدعو المدارس لالتزامه، ولم نجد كاتبا واحدًا يطعن في قضاء المحكمة، أو يصف القضاة بالرجعية والجمود.

[1] - الشيخ الشعراوي – جولة في فكره الموسوعي الفسيح- د . محمد رجب البيومي

ويدعونا البيومي أن نتخيل "كيف لو أن هذا الحكم في بلد إسلامي، فماذا يكون وقتها ردة فعل دعاة الهزيمة، حين يتشنجون ويصخبون ويدعون الحرص على حرية الرأي التي تعني في رؤيتهم إباحة الإلحاد فحسب، بحيث تظل وقفا على مناصرة الماديين وحدهم، أما أن تكون الحرية للجميع، فهذا ما لا يعجبهم وتقوم حوله الصيحات المفزعة"[1]

ومن المضحك ومن المقارنة العجيبة الغريبة، أن يتصدر هؤلاء جميعا منابر الكلمة والتوجيه والتأثير، ثم يدعون في خرف وهراء: أنهم مكممون مهزومون مكبوتون وأنهم ضحايا وشهداء ولهم بطولة في دنيا لا يناصرهم فيها أحد، ومن ثم كان للدكتور البيومي رحمه الله موقفه الحازم والصريح من البطولة المدعاة للكتاب التنويريين، وكثير من أعداء الشريعة ومعارضي تنفيذها والمهاجمين لوجودها، ولم تقتصر مواجهته لهم على النقاش العلمي وحده فيما أتوا به من شبهات، ولكنه ركز كثيرًا وفي أكثر من موطن على التعريض بما يزعمونه لأنفسهم من بطولة وشجاعة زائفة، فيما يذكرونه من تصريحاتهم الشخصية التي تعبر عن اللوثة التي أصابت عقولهم، وكان من أشهر هذه الردود، رده على الكاتب (فرج فودة) في كتابه قبل السقوط، الذي أصدره مصحوبًا بضجة دعائية حالمة، وهو كتاب يعج بالمغالطات التي نطق بها رجل غير متخصص في علوم الشريعة، فزعم أكاذيب وأغاليط، برر منها هجومه الزائف، وحاول في خطوة تسويقية أن يقوم معه بفرقعة صاخبة، توحي للجميع أنه يتعرض في موقفه إلى خطورة من مخالفي رأيه، وأنه أقدم على عمل فدائي باسل، وكأنه مرحب بالعاقبة المنتظرة، كالمقاتل الذي يتمنى الشهادة، فيقول في

[1] - من منطلق إسلامي ج2 د- محمد رجب البيومي

مقدمة كتابه المذكور: "إنه لا يبالي إن كان إلى جانب، والجميع في جانب آخر، ولا يحزن إن ارتفعت أصواتهم أو لمعت سيوفهم!!"[1]

ثم يقول في الإهداء: "إلى ولدي يسر الذي لم أدخر له إلا المخاطرة".

وهنا وأمام هذا الزهو الفارغ، ينبري العلامة البيومي ساخرًا من هذه البطولة المزعومة، محاولا إفاقة صاحبها من وهمه الكبير، ودور المفكر المضطهد الذي قام به، وتمثل نفسه زعيمه ورائده "وأنت تتساءل في دهشة: أي سيوف ستلمع؟ وأي مخاطرة يدخرها المؤلف لولده؟ حين يعارض تنفيذ الشريعة؟

ثم يصارحه البيومي ويصارح معه كل القراء بجرأة وصراحة حين يقول لافتًا إلى ذلك الواقع الذي يكذب دعوى هذا الهراء فيقول: "أمامه الواقع المعاصر ينبئه بأن الذين يعارضون تنفيذ الشريعة، قد احتلوا منابر التوجيه في الإذاعة والصحافة، ووصلوا إلى أعلى المناصب، ومنهم من بلغ رتبة الوزراء، ولم نسمع في يوم من الأيام أن أحدهم قد اُعتدى عليه في موقف، وأن قطرة دم واحدة سالت من دم كاتب يحارب شريعة الله في مصر!"[2]

ثم يوغل في صراحته ومصداقيته مع نفسه ومع القراء حين عرض حالة المعارضين للشريعة وكيف تلقوا من الظلم والقهر ما جعلهم نزلاء السجون لعقود طويلة، في القوت الذي اعتلى فيه من عذبوهم وقهروهم في المناصب والرتب.

1 - راجع في ميزان الإسلام د- محمد رجب البيومي
2 - المصدر السابق

هذا ما ينطق به الواقع المشاهد، وهو من الوضوح بحيث يعرفه كل إنسان، فليت شعري كيف يجوز لصاحبنا هذا أن يجرؤ على تزييف الحقائق، وهو يعيش في أمة تعرف الظالم والمظلوم، وتميز الطيب من الخبيث؟!"[1]

وبعد ما ذكر شيخنا هذا الكلام واستبعد هذه التوقعات التي مَنى الكاتب بها نفسه، لم تلبث الأيام إلا وصدقت حدس الكاتب فرج فودة، فتم اغتياله فعلا بسبب أفكاره وكتبه وموقفه المعادي من الشريعة، لكننا هنا لا يمكن أن نُغالط البيومي ونعيره بخطئه وفساد توقعه، وتكذيبه لكلام فرج فودة، بقدر ما نسائل أنفسنا بشغف هائل: لماذا فرج فودة بالتحديد مع أن هناك مثله الكثير والكثير من أعداء الشريعة، والمعارضين لتنفيذها.. هل أراد أحد فعلا أن يجعل من الرجل بطلا؟ أم أنه أراد أن يحقق له أمنيته، أم لأن صوته كان هو الصوت الظاهر في الحقبة الأخيرة، ومن ثم تحمل بلاء مَن وراءه ممن يقولون بمثل كلامه؟

لكن الذين أقدموا على هذا الفعل قد وضعوا كلام البيومي في حرج بالغ، مع أنه رد بالمنطق والعقل والدليل والواقع على زيف هذه الدعاوى، كما يتحملون النتيجة التي جعلت من الرجل بطلا لدى البعض، ورغم نكراننا لهذا الحادث ورفضنا القاطع للإرهاب الفكري والتصفية الجسدية، يبقى كلام البيومي حقيقة معلومة معروفة، لا يمكن نكرانها حتى ولو خالفتها الأحدث وحادت بها إلى توقعات الكاتب.

1 - المصدر السابق

فأي الفريقين يعلو صوته وتذاع كلمته، وأي الفريقين يمكن أن نرى ونبصر القيود تلاحقه والتكميم يحوطه؟!

غربيون ينصفون الإسلام

دافع الدكتور البيومي رحمه الله عن الإسلام في رصد أسباب وبواعث انتشاره وامتداده في بقاع الأرض، في وجه أناس يريدون طمس الحقيقة بالكذب والإفك، فلم ينظروا في أسباب انتشاره نحو مبادئه السامية ومعالمه الراقية السمحة، التي توافق الفطرة الإنسانية، فذهبوا في كذب شائن إلى أن سبب انتشاره يرجع إلى ما أباحه من الملذات، وبعضهم قرر برجوعه إلى السيف والقوة، وذهب فريق ثالث منهم إلى أن الإسلام به جبرية ذات اضطرار تفقد المسلم تصرفه فيتبع كل داع، وهي الوجهات التي دفعت الملايين إلى اعتناقه.

وهي الخرافات التي كشف زيفها مفكرون مسلمون وغير مسلمين، مثل جوستاف لوبون، الذي قرر في كتابه حضارة العرب: أن من يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرى من صرامة، وأن تعدد الزوجات كان معروفًا قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم، وهو العنصر الذي لم تجد معه هذه الشعوب قبل الإسلام أي نفع.

والإسلام به تعاليم أشد صرامة في ضوابطها الخلقية من النصرانية، فقد حرم الخمر وألزم المسلم بصيام شهر رمضان، وهو صوم أشد من صوم النصارى، ودعا إلى مبادئ خلقية، تكبح جماح الرغبة، وهي المعالم التي أثبتها وأظهرها كثير من كتاب الغرب.

ويذكر شيخنا موضع العجب عند هؤلاء الملفقين الكاذبين، وهم يعرفون القرآن ويدرسونه، ويقفون على تعاليمه وفضائله وأمره بالفضائل والمثل العليا، ثم يخالفون ضمائرهم عن مقاصده وحقائقه، وهو بين أيديهم يكشف إفكهم الصريح.

أما مسألة الجبرية، فهم يجهلون معناها في الإسلام، فليست هي الاعتقاد بأن كل شيء قد قدرت نتائجه المحتومة، ومن ثم يكون سعيه هباء لا جدوى معه، ولكن معناها أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وليس معناها أنه سلب المرء حرية العقل، وكذلك شبهة القوة والسيف، فتاريخ الإسلام في انتصاراته الحربية وتفوقه الحضاري، يدل على ما بعثه الإسلام من توثب نحو الكمال، فدعت إلى الارتقاء والعلم والسمو.

وكشف رحمه الله أن من يدون هذه المفتريات هم أساتذة التبشير، وهم يعرفون جيدا كيف انتشر الإسلام في آسيا وإفريقيا، بل يعرفون قبل هذا؛ جيدا محاولات تنصير المسلمين في إفريقيا حين لم يوفقوا في مهمتهم فأغلقوا المدارس القرآنية، وصادروا أملاك المسلمين، وسجنوا العلماء، وغيروا أسماء البلدان الإسلامية إلى أجنبية، ليقطعوا الصلة بين الأفارقة والمسلمين عن دينهم الذي تلقوه من التجار بالرفق واللين والموعظة الحسنة، ولم يكن للهداية معهم أي مجال للسيف، إنه إفك وكذب لفقه أتباع وزارات الاستعمار.

وسجل في رده طرفا من سيرة الفتوحات الإسلامية في كتابه قضايا إسلامية، حين تقدمت الجيوش الإسلامية إلى فارس والروم والإسبان، فلم تكره أحدًا على الإسلام، فخيرت الناس بين الإسلام وضريبة الدفاع عنهم وحمايتهم، فارتضوا وجه الإسلام عن

محبة، وللمؤرخين الغربيين شهادات ونصوص كثيرة في هذا المضمار أثبتوها في كتبهم وأنصفوه بها وأهله، وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، فالإسلام لم ينتشر بالسيف، بل بالدعوة وحدها.

ناهيك عما عرضه هؤلاء المؤرخون من تسامح الفاتح العربي المسلم، وأخلاقه في معاملة المغلوبين، حين عاملوا الجميع بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم.

ركز البيومي في دفاعه عن الإسلام ورد هذه المفتريات بمؤلفات الغربيين لمن يعرضون عن دفاعات العرب المسلمين، فكانت نصوص جوستاف لوبون وغيرها، مما وضع الغرب في موقف محرج أمام ما يظهر من الحاقدين منه من ظلم وافتراء.

وهو ما جعلني أقول: إن الترجمة عمل شاق وعظيم، تتطلب من صاحبها ومن يقوم بها شروطًا ربما تتوفر في صاحب المؤلف نفسه، حتى يستطيع استيعاب العلم الذي ينقله، فيفهمه ويفهمه للناس والقراء.

والحق أننا أمام أمر خطير، فحينما لا يكون المترجم أمينًا صاحب غرض، تحدث كارثة ضد الحقيقة والبرهان، تكاد تشوهه، وتنفيه وتشوش عليه.

لو قام أحد الناس مثلا ليترجم كتابًا من الكتب، يخالف فكره ومعتقده الذي يدعو إليه ويؤمن به، فهل تراه يترجم بأمانة ما يخالف أفكاره، أم أنه سيحرفها ويبدلها، منتصرًا

لهواه وأغراضه؟ قد يفعل هذا من لا ضمير لهم ولا خلق، ممن ينتسبون إلى الثقافة والمعرفة، ومن أصحاب الأقلام والفكر.

فهل مثلا لو قام أحد الكتاب المعروفين بهواهم العلماني، بترجمة كتاب لمؤلف غربي ينصف فيه الإسلام، فهل تراهم يترجمون بأمانة، ويحكمون بموضوعية؟ إن إيماني ويقيني بباطلهم الذي يتعصبون له، يخبرني أنهم سيبدلون ويزيفون، حتى لا يعلم المسلمون أن من أبناء الحضارة الغربية، من قام بمدحهم وإنصافهم والثناء على ملتهم.

ولأنهم لا تعنيهم الحقيقة في شيء، فما يهمهم هو بغض الإسلام، والترويج لكل عمل يلقي عليه ظلال الشبهة والريبة.

ولعمري.. إن هؤلاء وأمثالهم يزيفون الحقائق العربية التي لا تحتاج إلى شرح وترجمان، فكيف بالله عليك يكون صنيعهم فيما دون العربي من الكلام؟!

كان شيخنا الدكتور البيومي وهو يرد أكاذيب المرجفين من المتحاملين على الإسلام وحضارته من كتاب ومؤرخي الغرب، ومنهم جوستاف لوبون الذي أظهر في مؤلفاته إنصاف الإسلام وحضارته، فكان عقبة في وجه بني قومه ممن يجحدون حقائق الإسلام غيظًا وكمدًا، قد ثمن الترجمة الأمينة وجهدها في إظهار الحق فقال حول هذا الشأن، وقد بما لا يخطر على بال، حينما امتدح مترجم كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون وهو الأستاذ عادل زعيتر فقال: "ولا أنسى أن أذكر أني اعتمدت على الترجمة الأمينة التي خطها

الكاتب العربي الكبير الأستاذ عادل زعيتر، فأسدى إلى أبناء دينه ما أسداه إلى الحقيقة الناصعة من يد لا تجحد، رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه أحسن ما يجزي به كل مثابر أمين"[1]

وهكذا يكون عمل (عادل زعيتر) وكأنه هو الذي رد الافتراءات، وهزم أهل الجحود، وفضح أعداء الحقيقة، وهو لم يؤلف ولم يفكر، وإنما فقط ترجم بأمانة، فكانت لأمانته شأن عظيم وتأثير كبير.

وفي موطن آخر وفي حديثه عن المفكر الفرنسي الكبير روجيه جارودي، الذي فضح الغرب وأظهر مفاسده وشروره ووحشيته، ذكر البيومي من جهود جارودي في تعرية الغرب، ما ينفي وجهه الإنساني، فقد أغرق العالم في القلق والفزع والاضطراب منذ أن قاده وسيطر عليه من خمسة قرون خلت، وبما أحدث من المدمرات الحربية، التي تقود البشرية إلى الانتحار.

كان هذا الجانب الذي أظهره البيومي من أهم الجوانب التي ركز عليها ليرد على المنبهرين بالغرب وحضارته، ويُفيقهم من أوهامهم، وعلى يد شاهد منهم، ومفكر ينتسب إلى حضارتهم، وليس ذيلا من ذيوله حتى نقول عنه: إنه أفاق وأبان.

لقد أظهر جارودي حسب ما أورد شيخنا البيومي في كتاب قضايا إسلامية، إحصاءات وأرقام من السلاح وأدوات التدمير التي تصدرها أوروبا، وتغرق بها العالم في الصراعات، على حساب البشرية والإنسانية، حيث بلغت نفقات التسليح عام 1982م في

[1] - راجع قضايا إسلامية ج2 د- محمد رجب البيومي

العالم نحو سبعمائة مليار دولار، وأصبح على ظهر الأرض خمسون ألف قنبلة ذرية، ومئتان وتسعة وسبعون مفاعلا ذريًا، وعلى الناحية الأخرى نجد أن خمسين مليونًا من البشر يموتون جوعًا، ولا يجدون ما يتبلعون به من كسرة الخبز، ثم تراهم يغرقون إفريقيا التي تعاني كثيرًا دولها فقرًا وجوعًا بالسلاح، ليربح سماسرة السلاح وتتضخم أموال هذه الدول على حساب المعذبين، مما أدى إلى وجود 600 مليون عاطل في العالم حسب إحصاءات الأمم المتحدة.

وتسعمائة مليون أمي، وستمائة مليون فقير يقتلهم الجوع الشديد، وتزداد الكارثة حين تثبت الإحصاءات أن الآلاف من الجنود يحاربون لأجل لا شيء سوى أن الأقوياء قد بذروا الشر في أرض الفقراء، ليجنوا الحرب وتروج تجارة السلاح.

يقول رحمه الله: "بهذه الصواعق الرهيبة التي ابتدعتها حضارة الغرب، تنطق الأدلة السافرة: إنها حضارة مادية لا تعرف الإنسانية".[1]

لقد ظهرت بحوث مختلفة عن الحضارة الإسلامية، كتبها باحثون وكتاب يبغضون الإسلام ويكنون له الحقد المستعر، وقد حاولوا فيما كتبوا أن ينكروا الحق ويحيطوا الإسلام بالتهم والشبهات والتجني.

وقد سلط الضوء على نقطة مهمة في تصديه لأعداء الحضارة الإسلامية، وهي محاولة رصد كلام المنصفين للإسلام، ممن ليسوا على دينه ولا ينتمون إليه، بل فيهم حتى من ينكر

[1] - المصدر السابق

الأديان قاطبة، لكن إخلاصه للبحث التاريخي دفعه إلى إنصاف الحضارة الإسلامية، التي حملت النور إلى العالم، وبددت ظلام الجهل فيه.

لكننا نراه وهو ينوه على هذه اللفتة شديدة الدقة والخطورة التي تشهدها الساحة الإسلامية، فمن المعروف أن بعض الكتاب الغربيين قد أنصفوا الإسلام، وتعرضوا في سبيل ذلك إلى هجوم عنيف، لأنهم أيدوا الحق ولم يخالفوا ضمائرهم، لكنهم مع إشادتهم بالإسلام لا يعرف أنهم أيدوه في كل شيء، بل لعل لهم معه خلافات وآراء مغايرة، فلا يقبلونه كله حسب أفكارهم ومعتقداتهم التي نشأوا عليها، ومنهم جوستاف لوبون، فإذا بنفر من الكتاب المسلمين، يتركون كل ما كتب الكاتب من إنصاف لحضارتهم وتاريخهم وأمتهم وجميلها على البشرية، ويعدون على ما أورده في كتبه مما يخالف الإسلام، ليشنوا عليه حربا شعواء، ويتربصوا به، ويظهروه بصورة من يدلس أو يضع السم في الدسم، وأن ما أظهره من إيجابيات لا قيمة له لأنه أنكر أو اختلف مع الإسلام في شيء، استنكر البيومي هذا الموقف وهذه العماية التي تفتقد الحكمة والدراية والبصر بأحوال هؤلاء الناس والطريقة اللائقة للاستفادة مما قدموه من خدمات، وتجنب وإعذار ما خالفوا في الإسلام، كما أن هذا الموقف يضر كثيرا بما قدموه من خدمات جليلة وشهادات منصفة أفزعت الغرب وضايقته.

ثم أراد أن يوقف هؤلاء المتحمسين على خطورة الأمر ووعورة الموضوع، فذكرهم بما كتبه الحاقدون على الإسلام، وما ألصقوا به من التهم والمعايب، وكيف شوهوا حقيقته، وأرادوا خداع الناس بإفكهم، فعل البيومي ذلك حتى يحمدوا تصرف من أنصف الحضارة الإسلامية، وله بعض المخالفات التي هي في حقيقتها طبيعية بحكم عدم انتمائه للإسلام.

وهي نظرة وسطية معتدلة عاقلة حكيمة، فلا تفسد على الإسلام مكاسبه التي قد ينالها، ويحصل عليها ممن لا ينتمون إليه، فلا يجب إفسادها بشن الحرب عليه قاطبة، ولعله نفس ما لفت إليه الشيخ الغزالي رحمه الله في كتابه (مع الله) حيث قال: "وبين يدى كتاب كبير عن الدعوة إلى الإسلام ألفه بالإنجليزية سير «توماس أرنولد» وهو بحث واسع في تاريخ نشر العقيدة، توفّر على وضعه هذا المستشرق المجتهد الدؤوب الذي يعد أعدل إخوانه وأميلهم إلى أدب اللفظ وإثبات الحق.

ومع ذلك فإن سيره مع عقيدته القديمة، وإخلاصه لوظيفته العتيدة، وخضوعه لكثير من المؤثرات التاريخية والسياسية جعله يميل عن الصواب قليلاً وهو يرسل بعض الأحكام عن الشريعة الإسلامية وعن وسائل امتداد الإسلام في الأرض.

ونحن - بداهة - لا نطلب من الرجل أن يؤمن برسالة محمد، إذ هو- كغيره من المستشرقين يجحدها، ولكننا نرى أن الحياد العلمي الدقيق يقتضي التسوية بين رسالتي (عيسى) و (محمد) جميعًا، فلا يؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر.

كما أننا لا نكلفه الاقتناع بأن تعاليم الإسلام وحي، وأن إقبال الناس عليها، يرجع قبل كل شيء إلى صدقها وخلوص أصحابها، فذلك شيء قد يكذبه، ولا حرج عليه منا.

ويستغرب الغزالي منه أن يقول: "ينبغي أن يعلم القارئ - منذ البداية - أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية! وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم" وأكد أنها خرافة، وأرنولد نفسه شاهد على تكذيب هذا الكلام، وهو الذي تتبع انتشار الإسلام شرقًا وغربًا فلم يجد ما يشير إلى ذلك إنه لا يحصي حالات الاضطهاد اكتفاء بما

صنع كُتاب أوروبا الذين لم يفتهم تسجيلها!! عجبا، لماذا لم يقل الرجل: إنه لم يعثر – في بحثه الطويل – على أي اضطهاد كتاب أوروبا؟! ولكن غلبة الكره التقليدي للإسلام على ذهن الرجل جعلته يلقي الكلام على هذا النحو!"[1]

وعلى هذا النهج كان البيومي يقف أمام كثير من المسلمين الذين يحاولون طمس الحقائق التي قدمها كثير من الفلاسفة الغربيين، ويحاسبونه وكأنه كاتب مسلم ولا يقدرون ظروفه وأوضاعه، إذ يكفينا منه إنصافه، ومخالفته في بعض الأمور المتوقعة.

[1] - مع الله . الشيخ محمد الغزالي

أكاذيب المستشرقين

في ظل وقوفه الدائم أمام أفكار التنويريين والتغريبيين، ودعاة اليسار المنحرفين التي تنال من الإسلام وأصوله وشريعته؛ لم يغفل البيومي في نقده وتعريته وكشفه لأغراض المستشرقين وأكاذيبهم تجاه الإسلام، وذلك لأن هؤلاء التغريبيين يعتمدون أكثر ما يعتمدون في شبهاتهم على كلام المستشرقين، وخرافاتهم التي تُطل بجهل واضح وحقد سافر.

وأوضح بقوله: "إن أغلب المستشرقين في أوروبا يتبعون وزارتي الخارجية والمستعمرات، فمهمتهم في نصف منها سياسية لا ثقافية، وبعضهم في نشأته الأصلية، متسيس ديني، يعمد مباشرة إلى خدمة دينه بالتشكيك في نصوص الإسلام، فمهمة أغلبهم تبشيرية تعصبية، وتبلغ الدهشة مداها حينما تجد بعض أساتذة الجامعة في بلادنا يزعمون أن هؤلاء المستشرقين خدموا الإسلام بنشر تعاليمه في الغرب، وإظهار كنوزه للغافلين، وأنهم سعوا إلى تكذيب المستعمرين في تصويرهم للإسلام والشرقيين في أبشع صورة، فسعى المستشرقون إلى ترجمة القرآن الكريم وتفاسيره، وكتب السنة، وعلم الكلام والتصوف والفقه، والأخلاق الإسلامية، فعرف الغربيون حسناتنا ووقفوا على خير ما عندنا من العلم والدين والأخلاق".[1]

[1] - قضايا إسلامية ج1

ثم يتهكم رحمه الله على هذا الزعم الذي نطق به أحد الكتاب حول هذا المعنى بقوله: "إي والله لقد وقف الغربيون على خير ما عندنا من العلم والدين والأخلاق، حين ترجم هؤلاء القساوسة كتبنا المقدسة، فحرفوا الكلم عن مواضعه، وباؤوا بخزي من الله كبير".[1]

ويتعجب من منطقهم فيقول: "وبعض هؤلاء المغرمين بالاستشراق وأساتذته يأخذ كلامهم كأدلة ثابتة، لا يأتيها الباطل عن شمال ويمين، وقد يكون النص المختار في أصله من كتاب عربي، فلا يقبل صاحبنا أن يرجع إلى المصدر الأصلي، وينقل ترجمته المحرفة عن أساتذة الاستشراق، ويباهي بذكر الصحيفة والسطر، وكأن ترجمة النص إلى غير العربية، قد أضفت عليه أشعة جاذبة، صار بها موضع الاختيار والترجيح، مما حدا ببعضهم أن يرفض تصديق القرآن الكريم فيما ذكره عن إبراهيم، وذلك لشيء واحد وهو أن يؤمن بفرية قال بها مستشرق أثيم"[2]

كما هاجم زكي مبارك حينما مدح المستشرقين ودافع عنهم وادعى أنهم طلائع لأممهم في الشرق، وأنهم رجال أقوياء، تنفع صحبتهم، وتعدي قوتهم، فقال البيومي: "فأي هيام جنوني دفع بالكاتب إلى تأييد الاستعمار، وليت شعري أهو هيام فقط؟ أم خبل مأفون!".

1 - المصدر السابق
2 - المرجع السابق

ثم قدم نموذجًا من كتاباتهم وافتراءاتهم في الإسلام، حينما تناولوا الكتابة حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: "المستشرق لا يكتب عن سيرة الرسول إلا ليتحدث عن أسطورة الغرانيق، وزواج محمد بزينب، وتعدد زوجات نبي الإسلام، وما شابه ذلك بغية الوضع والإرجاف، وهم لا يؤمنون بنبوة محمد، فمحال أن ينصفوا نبيًا يكذبونه ويحاربون مبادئه، وقد يصطنع أحدهم الإنصاف الكاذب، فيدعي أنه لا يكذب محمدًا، ولكنه يؤكد أنه كان مخدوعا واهمًا، ويعتقد أنه نبي وهو غير نبي"[1] وهذا بعض ما جاء منهم في الشأن الديني، أما الجانب الأدبي، وما أنجزه المستشرقون وأعجب به البعض وانخدعوا بإنجازه، فقد رد البيومي على الأستاذ الكبير محمد كرد علي حينما قال: "ما برح العارفون منا يقدرون عمل المستشرقين حق قدره، ويعجبون به ويمجدونه ونقل مصدقا لكلام أستاذ له، فيقول: لم نحرص على شيء آخر حرصنا على علوم الدين ومقوماته، وأغفلنا ما عداها من العلوم إلا قليلا، ولولا عناية المستشرقين بآثارنا، ما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة، التي أخذناها، ثم ذكر عدة كتب، وقال: لو جئنا نعدد حسنات ودواوين الشعر وكتب الأدب والعلم، التي أحيوها، لطال بنا المطال"[2].

وأمام هذا الكلام الذي ردده (كرد علي) في محاضراته رد الدكتور البيومي عليه بأننا ندري بماذا يجيب علينا إذا قلنا له: إن أكثر ما نشره المستشرقون من الكتب الأدبية يتجه إلى ناحية الترف والملذات والشهوة، مما لا تخفى بواعثه في انحلال المجتمع العربي". وهو

1 - المرجع السابق
2 - المرجع السابق

يقصد أنهم يريدون أن يستقر في النفوس أن حياة العرب ومجتمع الإسلام كان مجتمعا يغط في الشهوات ويعيش للملذات، فلم تكن في هذه الأمة قيمة أو فضيلة أو طموح.

ولم يقف البيومي في رده على زكي مبارك وكرد علي، ولكنه رد كذلك على عبد الرحمن بدوي، حينما وصفه بأنه من عشاق المستعمرين، حينما اعترف بمآربهم ثم باركها، وهو يتحدث عن مجلة المشرقيات التي يصدرها المعهد البابوي للكتاب المقدس، فيقول: "ولو أن الذي يشرف عليها معهد مسيحي، إلا أن أبحاثها علمية خالصة يراد بها وجه العلم الصحيح، والحقيقة وحدها".

وهذا تهكمه الواضح على كلام بدوي قائلا: "الدكتور الجامعي يؤكد أن المعهد البابوي للكتاب المقدس ينشر أبحاثه الإسلامية بحثا منصفا يراد به وجه الحق وحده، فأين الكتاب المقدس إذن يا دكتور؟ وهل تحول المعهد البابوي إلى أزهر شريف؟".

أما الذين زعموا أن من المستشرقين من كتب عن تاريخ الأدب العربي من جاهليته الغابرة إلى عصره الحديث، فقد رد عليهم بما أسقط دعواهم فقال: "إننا نعلم أن تاريخ الأدب العربي لا يكتب على وجهه الصحيح إلا بعد دراسة نصوصه النثرية والشعرية دراسة صحيحة يصحبها ذوق واستشفاف، والمستشرق الأعجمي مهما بلغ اطلاعه لا يتذوق الأدب العربي كله كما يتذوقه أبناؤه، فكيف يوازن بين الشعراء، ويفضل بين كل العصور، وكيف يفضل المتنبي على البحتري؟

إن فاقد الشيء لا يعطيه، وتاريخ الأدب العربي لم يكسب من أبحاث المستشرقين غير أن سلبت محاسنه، واختلفت مثالبه، فكل تجديد مبتكر، فهو عندهم فارسي أو هندي أو يوناني، وكل شاعر عربي مجيد، هو عندهم متأثر بثقافة أجنبية، خلعت عليه النبوغ، ولو كان بدويًا لا يقرأ ولا يكتب، وكل كاتب بارع، فهو وأمثاله عيال على الآداب المجاورة، فزُهد أبي العتاهية، ودقة الجاحظ، وعمق أبي حيان التوحيدي، وتصوف الحسن البصري، كل أولئك أجنبي دخيل نضجت به ثقافة تبتعد كثيرا عن الإسلام"[1]

ويأسف رحمه الله من حال الكتاب المسلمين الذين يلوكون آراء المستشرقين وادعاءاتهم المفتراة، وذكر نموذجًا للكاتب الأستاذ أحمد أمين حينما كتب في فجر الإسلام معجبًا برأي المستشرقين من أن أبا ذر رضي الله عنه كان متأثرًا بالمذاهب الفارسية، التي تدعو إلى الاشتراكية في الأموال، لقد استنكر البيومي هذا الكلام واحتج قائلا : "فأي كتاب درس أبو ذر، وعلى يد أي فارسي تعلم؟ فعل ذلك كله عند أحمد أمين ومن شايعهم من أساتذته المستشرقين.

ثم يضع الداء بوضوح لا غموض فيه، وبقوة لا لين معها وهو يقول: "إن مركب النقص في نفوسنا المستعمرة، يصور لنا هؤلاء الأعاجم تصويرا عاليا، فهم مصيبون إذا أخطؤوا، وهم ذواقون إذا حكموا، وهم بعد أبناء أمم قوية، كما يقول زكي مبارك، فليفعلوا ما يشاؤون".

[1] - المرجع السابق

ثم كانت رؤيته المنصفة الباحثة اليقظة حينما نوه أن المستشرقين قاموا بنشاط ملحوظ في نشر الآثار الأدبية والتي لم تكن لخدمة البحث المجرد، وإن كان ذلك بهدف التجارة الرابحة التي تدر عليهم الثراء، أو تخدير يغيم الأعين عن فخ قاتل مخدوعة بالطبع الصقيل والفهارس الكثيرة والتزيد باختلاف النصوص ولم يعرض البيومي قراءة كل ما كتب المستشرقون، وإنما دعا إلى التبصر واليقظة والنقد والتمحيص، حتى يكون القارئ حذرا واعيا بالأغراض الدفينة التي تسلك سلك الخديعة لتحقق مآربها.

وهو في هذا الكلام لا يعبر عن موقف نهائي تجاه المستشرقين جميعًا، وإنما هو فقط يوجه اللوم للطائفة المنبهرة بكل أعمال المستشرقين وإنجازاتهم، متغاضين متنكرين لأي غرض أو شبهة ألقوا بظلالها على ديننا، أو أكاذيب نسجوها على شريعته وملته ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وهو ما نجده في مواطن أخرى من كتاباته في تقديره لإنصاف بعض المستشرقين، والدعوة إلى قبول آرائهم مع إدراك أنهم أبناء بيئة وفهم وعقيدة مغايرة للإسلام قد تدفعهم أحيانا إلى الاختلاف معه.

ومن ثم كان نقد البيومي هنا لهذه الطائفة المولعة بالمستشرقين والتي قال عنهم الأستاذ مصطفى السباعي: "وقد أفرط منا أناس في الثقة والاعتماد عليهم والثناء المطلق على جهودهم، وكذلك وُجد اتجاه معاكس يحمل على المستشرقين ويهاجمهم، والحق أن كلا من الثناء المطلق والتحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التي سجلها هؤلاء

المستشرقون فيما قاموا به من أعمال، وما تطرقوا إليه من أبحاث، وقد كان منهم من لا يقصد إلا الهدف العلمي والبحث والتمحيص فدرس التراث العربي والإسلامي، لتنجلي له الحقائق الخافية عنهم، ولكن لا بد أن نضع في الاعتبار أنهم قليلون جدا، كما أنهم مع إخلاصهم في الدراسة والبحث لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إما لجهلهم بأساليب العربية، أو لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية على حقيقتها".[1]

لم يفت شيخنا البيومي أن يرصد أكاذيب المستشرقين التي تستدعي السخرية والاستهزاء من بلاهة طرحها، فهذا مستشرق كبير وضليع كمرجليوث، يكتب بحثاً عن الإسلام والحنيفية، فيزعم أن كلمة مسلم مأخوذة من مسيلمة، وأن الحنيف نسبة إلى بني حنيفة، لقد اعتبر أن مثل هذا الكلام سفه هادر بالمسلمات الشهيرة، والمبادئ الأولية في التاريخ الإسلامي، واستحضر سائلا أولئك الذين يمجدون مرجليوث وغيره من المستشرقين، وسألهم عن رأيهم في هذا العبث من رجل يتصدر البحوث الإسلامية قرابة نصف قرن في جامعة أكسفورد، وله من الحواريين من يهتفون باسمه، ويعدونه المثل الأعلى في التحقيق والتدقيق، بل منهم من يعمد إلى مفترياته، فيبسطها بسطا، وكأنه يشرح نصا مقدسا.

ما رأيهم إذا في هذا الخرف العلمي والتزييف الفج، السافر؟!

كيف يمكن لهذا الرجل أن يخطئ في مسلمات شهيرة بهذا القدر؟!

---

[1] - الاستشراق والمستشرقون د- مصطفى السباعي - بتصرف

وحول ما قيل عن هذه الدعوى بأن مرجليوث بذل في تأييدها كل صبر وحيلة في البحث، وكل ما أوتي من عبقرية أيضًا، فكانت رغم هذا دعوى فاشلة، ذكر البيومي أن ما سطره الرجل لا يدل على عبقرية، لأن العبقرية تمنع صاحبها أن يهرف بأقوال المجانين، كما أن الصبر والحيلة يكونان من الدقائق الغامضة التي تنبههم فيها الدلائل، وتلتوي الخطوط، أما القذف بالأضاحيك العابثة، واختراع الأوهام الزائفة، ومحاولة جعل الأراجيف حقائق، فهذا عبث صبياني، لا احتيال شيخ محنك يقارف الأضاليل.

ولم ينس أن يدور حول السر الخفي لمثل هذا التلاعب والعبث، الذي ينتجه المستشرقون الذين أعيتهم الأدلة الهادمة لأسس الإسلام، فإذا بهم يتواصون بالأراجيف، فيبدأ أحدهم أكذوبة، ويأتي ثان ليرددها مضيفا بعض التخرصات، ثم يتسلل ثالث ورابع إلى الوهم ليؤكده باعتباره حقيقة مشتهرة جهر بها فلان بعد بحث عويص.

ولمزيد من بيان اختلاق المستشرقين وافترائهم على الإسلام، كانت حادثة الدكتور منصور فهمي الشهيرة، حينما سافر لنيل الدكتوراه في بعثة إلى فرنسا وتتلمذ على يد مستشرق معروف بعدائه للإسلام وهو (ليفي بريل)، وكتب فهمي عن موضوع (مركز المرأة في الإسلام) وعُين بعدها مدرسًا لتاريخ المذاهب في الجامعة المصرية، ولم يكن فهمي حينما كتب رسالته قد قدر له الاطلاع على المصادر المحترمة والموثوقة من كتب العلماء والمفكرين الثقات، الذين يقفون به على وجه الصواب، لقد طُبعت الرسالة في باريس ونقلت إلى مصر، فانقلبت الدنيا على صاحبها، وأظهرت الصحف أخطاءها الفاحشة، لقد ترك الكاتب القرآن والسنة في تقرير مكانة المرأة واعتمد على الحديث الكاذب عن نبي

الإسلام، فهو لا يلتزم بقانون لزم به الناس، وينام ويؤدي الصلاة دون وضوء، ويستبيح من الشهوات ما لا يقره لسواه.

وثقافة فهمي الإسلامية في هذا الوقت لم تكن تزيد عن معلومات طالب ثانوي، وبعد هذا تتلمذ على يد أساتذة محاطون بهالة من التقديس والإكبار ويظهرون الإخلاص للحقيقة العلمية، وهم يبطنون المكيدة الآثمة لهذا الدين، فانساق وراءهم وسجل أفكارهم، ولكنه حينما تبين له الخطأ والتقى العلماء والمفكرين أعلن براءته وتوبته مما كتب، وتبين له أنه اعتمد على روايات مكذوبة، وأن التاريخ وكتب المناقب فيها الصحيح والخطأ، وعلم الحديث نفسه له أصوله التي تميز بين الصحيح من الضعيف من الموضوع.

وصار رحمه الله من بعد هذا البيان واللقاء بعلماء الأزهر من دعاة الحشمة والوقار والعفة وذم التبرج، وهو في أساسه ربيب السوربون.

لا يفتأ العلامة البيومي أن يُعرِّض في كثير من المواطن والمقالات بخطر المستشرقين، الذين كان كل همهم أن يشوهوا رموز الإسلام ويهوون بسير أعلام الصحابة، ليظهروهم سماسرة وصوليين، يتخاصمون وراء دوافع ذاتية، ويعمد إلى إنكار ما اعتمدوا عليه من كتب الرواة والإخباريين؛ التي تحمل الصحيح والضعيف والموضوع المكذوب، أمثال الطبري والمسعودي وابن الأثير، فيه روايات متضاربة.

ومن تتلمذوا على يد هؤلاء المستشرقين هم من يرددون هذه المفتريات التي لا دليل عليها ويستشهدون بها ويعدون أقوالهم حججًا غاية في التمحيص والتحقيق، وضرب

شيخنا مثلا بما كان من المستشرق (لامانس) الذي كان عقله كما وصفه: يضج بالزيف والافتراءات على تاريخ الإسلام ورجاله، وكان منها ما زعمه أن مؤامرة تمت بين الصحابة "أبو بكر وعمر وأبو عبيدة" يوم السقيفة وضد علي بن أبي طالب، وللأسف وجد من ردد هذا العبث والكذب والجهل، وادعى جهلا أن عليًا رضي الله عنه ظل يحقد ويغلي من أبي بكر وعمر من أجل هذه المؤامرة.

يتقولون بها في الوقت الذي حفظت فيه كتب التاريخ أقوال علي في أبي بكر وعمر، لتكون الحقائق التي تعصف بكذب المستشرقين وأتباعهم، الذين اعتمدوا على روايات ضالة واهية وتنادوا بها، ومن خلفهم تلامذتهم، ليظهروا أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وكأنهم سماسرة في بورصة الحكم!

زيوف مفضوحة

تتجمع فينا كل العلل، وتظهر فينا كل الهنات، فلا نحن أمة مجد، ولا نحن أمة جد. إنني حينما أتأمل تلك الشُبه التي ألصقها التغريبيون بأمتنا واتبعوا فيها سادتهم وآلهتهم من المستشرقين، أتبين عجبًا، فمرة يصفون ديننا وحضارتنا بأنها حضارة إرهاب ودماء، ومرة أخرى يصمونها بأنها حضارة دعة وترف ومجون وفسوق.

ولعمري كيف يستقيم الأمران معًا؟! كيف نكون أمة مجون وترف وفسوق وشهوات، وفي ذات الوقت أمة مجرمة تسفك الدماء وترهب الأمم؟!

لقد اجتهد طه حسين من قبل وتبنى منهج أساتذته المستشرقين، حينما وصف حقبة تاريخية من أزهى حقب الحضارة الإسلامية، وهي العصر العباسي واتهمها بأنها حقبة داعرة ماجنة إباحية، معتمدًا فيها على الروايات الكاذبة المدلسة الواردة في كتاب الأغاني، وحاول تصوير هذه الفئة الشاذة التي ضمها كتاب، بأنها المعبر الحقيقي عن حال الأمة وطبيعة العصر.

وزورًا وإفكًا قال، فهذا العصر هو عصر البطولة والعلم والتقوى والزهد والورع والرقي والتقدم والتفوق والجهاد والحضارة في أزهى معالمها.

ولكنهم يغيظهم أن ينتسب إلى الإسلام أي فخر فيحاولون أن يجتروا عليه السوء والتشويه.

كما زعم واهمون من أرباب الثقافة واستحسنوا عمل المستشرقين في ترجماتهم الأدبية، والقوم لم يكن لهم غرض شريف في هذا المنحى، فما أقدموا على ذلك إلا للترويج بأن هذه الأمة أمة الترف والشهوات والمجون.

ثم إنني أتعجب وأقول: كيف تكون هذه الأمة أمة مجون وترف وفسوق، وهي التي ركّعت أقوى دول العالم بالسيف والقوة، خاصة في هذا العصر الذي يتهمونه بأنه حقبة المجون؟!

كان المسلمون فيه هم القوة القاهرة، وجيوشهم لها الغلب العظيم، فلا تقوى أمة في العالم أن تقاومهم، كيف لقوم يمتطون ظهور الجياد، يطلبون الموت، وينازلون العدو، ثم يكون مجتمعهم وحياتهم حياة المجون والترف؟

وكل هذه الحيل والتهم للأسف تجد الرواج عند كثير من الناس، لأنهم لا يقرؤون ولا يدرسون ولا يمحصون، فالتلفزيون يفخم ليل نهار في عميد الأدب العربي، ويصور لك أنه أعجوبة عصره ومعجزة زمانه، ومن ثم تُقدم على اقتناء كتبه لترى مثل هذه السموم، وهذا التجني الرهيب على مجدنا وحضارتنا وتاريخنا، وهي ذات الفرية التي حاولوا خلعها على الخليفة المجاهد هارون الرشيد، فنسبوا له كذبًا وإفكًا ليالي المجون والعبث بالجواري وسماع القيان وشرب الخمور، وما كان الرجل إلا تقياً نقياً مجاهداً عابداً بكاء من خشية الله.

ولعلنا هنا نذكر أو ننقل طرفاً من التاريخ لهذا الخليفة الذي يدعون مجونه، لترى وتنظر كيف كان المجون على أصوله، خليفة ماجن لعصر ماجن.

بعث نقفور الأول إلى الخليفة رسالة تخلو من اللباقة والاحترام يبلغه فيها بتوقفه عن دفع الجزية: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد، فإن الملكة إيريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البَيْدق، فحملت إليك من أموالها، ما كنت خليقًا بحمل مثله إليها، ولكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتدِ نفسك بما يقع به المبادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

"غضب الرشيد غضباً شديداً لدى قراءته رسالة نقفور، فما كان منه سوى أن سطر جواباً مقتضباً على ظهر رسالة نقفور يقول فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه لا ما تسمعه!"[1]

لم يتأخر هارون الرشيد في تنفيذ وعيده، إذ شنّ الجيش الإسلامي هجوماً على كابودكيا، وحاصروا العديد من الحصون الحدودية وحرروا أكثر من 300 مسلم كانوا في أسر البيزنطيين، لكن الرد الأقوى كان أواخر عام 803م عندما ترأس الخليفة الرشيد بنفسه جيشاً جرارًا، وهاجم الأناضول فحاصر حصن هرقلة المنيع، هبّ نقفور لإنقاذ

[1] - هارون الرشيد.. الخليفة العالم والفارس المجاهد. د- محمد رجب البيومي, دار القلم, دمشق 2000

الوضع، فانتقل إلى الأناضول، وبعد شهرين من المفاوضات مع الخليفة تم التوصل لوقف الأعمال الحربية مقابل دفع الجزية مجدداً."[1]

دافع الدكتور البيومي عن تاريخ الإسلام وحضارته، ووقف في وجه من يكتبون تاريخه وفي قلوبهم مرض، كتبوا لا ليظهروا سمته الواضح، وإنما ليسدلوا الأغشية السود على أبطاله ورجاله ومجتمعه، متخذين أحقر الأدلة من النصوص المبتورة والتأويلات الملتوية، والاستنباط الشائه، ليصفوا مجتمع الإسلام في أكثر فتراته، بما يأباه الحق، وينكره التاريخ.

نظر هؤلاء إلى تاريخ الإسلام وأزهى فترات حضارته في العصر العباسي، وأعياهم واغتاظهم أن يكون هناك مثل هذا الزهو الذي يحمل اسم الإسلام، فذهبوا إلى تمحل الأدلة الواهية، ليقولوا مرة: إن هذه الحضارة لم تكن وليدة الإسلام، ولكنها ثمرة ما تقدمها وسبقها من حضارات، وليقولوا مرة ثانية: إن المجتمع العباسي لم يصدر عن الإسلام في هديه، بل كان مجتمعًا إباحيًا يدعو إلى التحلل والفسق والزندقة، فكل حضارة تنسب إلى الإسلام، لم يكن من يعتنقونه عن يقين، وإنما هي أسماء وتقاليد.

وقام بالرد على الشبهة الأولى، بما يثبت قدرة الإسلام وتميزه على امتصاص كل نفع حي، والسمو به إلى أرقى منازل جدواه، بل قدرته على صنع الحضارة والارتقاء بالإنسان، وصناعة المجد والزهو والفخار، يقول رحمه الله: " لقد كان المجتمع العربي مضرب المثل في

[1] - هارون الرشيد ولعبة الأمم ص 134- 135, أندريه كلو ترجمة د. صادق الموسوي, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت 2005

البطولة والفروسية، يحمل كل فرد فيه عناصر الرجولة بما يمنعه أن يقر الضيم ويقبل الهوان، وكانت هذه البطولة في حاجة إلى توجيه مثالي، يرفع الحق ويهوي بالباطل، فجاء الإسلام ليستغل هذه البطولة في أداء رسالة سامية، وهي إخراج العالم من الظلمات إلى النور، والدعوة إلى الصراط المستقيم، وكان هذا المجتمع مضرب المثل في الفتوة والأريحية اللتين تدفعان إلى إطعام الجائع وإكرام الضيف، وحماية المستجير، فجاء الإسلام ليبسط هذه المروءة، لتشمل الإنسان وتمتد إلى الحيوان، وتساعد على إنعاش سبل الراحة والاطمئنان، وكان هذا المجتمع يخضع لبعض النزوات المتعالية، والفخر بالأحساب والأنساب والجاه والأصل وتكاثر الأموال، فجاء الإسلام ليجعل التقوى وحدها سبيل المباهاة وباب المفاخر".[1]

لقد غير الإسلام إذن حال الناس وطبيعة العرب، وارتقى بهم في ظل مبادئه إلى عوالم أخرى، لم يكونوا بغيرها ودونها شيئا مذكورا، وهذا هو الإسلام صانع الحضارة التي بدأت من سمو الإنسان.

ومن ثم لا يمكن أن يكون ما لحق به من أي تقدم حضاري وازدهار حياتي، ورقي دنيوي إلا وليد منهجه وثمار أغصانه وصنعة يديه.

وفي الرد على الشبهة الثانية استنكر البيومي رحمه الله على نفر من أدعياء البحث، حينما يذهبون في كتبهم الجامعية إلى ما أرجف به المغرضون من أعداء الإسلام، واستنكر على أصحاب الشبهة أن يتخذوا من كتب الأدب وحدها لتكون مصدر التاريخ فيما

[1] - قضايا إسلامية ج1 د. محمد رجب البيومي

يذهبون إليه من إباحية المجتمع العباسي، وكل باحث عليم يعرف أن روايات الأدب وحدها ليست من مصادر التاريخ، لأن الناحية الخيالية في كتب الأدب القديم تختلق مناسبات للنص، وتتخيل وقائع تبدو متطابقة، وهي عن الواقع بمنأى بعيد.

وذكر أنها تختلق النص الأدبي أحيانًا من قصيدة مجلجلة، أو خطبة رنانة، أو رسالة محكمة، لتجعل من هذا الاختلاق سببا لتأييد القصة الملفقة، والحادثة الموهومة، وأراد رحمه الله أن يحدد نموذجًا بعينه ساهم في مثل هذه الاختلاقات من كتب التراث، وهو كتاب الأغاني وما حمله من روايات ساقطة، قد تهافتت حتى في منطق مؤلفه نفسه أبو الفرج الأصبهاني، فهو يذكر قائلا: "إنه مجرد راوٍ لا يتحمل الجزم بحقيقتها، ومعنى ذلك بصريح العبارة، أن صاحب كتاب الأغاني قد سجل لكل ما يقال من حق وباطل، ومن ثم على القارئ أن يكون ناقدًا فاحصًا، يرى الرأي فيما يقرأ، ثم يزنه بميزان التحليل، مهتديا إلى ما يعلم من حقائق العصر العامة وطبيعة الأحداث ومنطق المجتمع".[1]

وخصص كتاب الأغاني تحديدًا لأنه المعتمد الأول في شبه هؤلاء، مما جعله يقول فيكتاب قضايا إسلامية: "والرجل في سيرته وشعره وحياته، لم يكن بالمثل الأعلى لباحث ملتزم جاد، بل كان إلى الاستهتار أقرب منه إلى الجد، وقد حلا له أن يملأ كتابيه الأغاني وأدب الغرباء، بما يندى من الخجلات المخزية، التي لا يخلو منها مجتمع تتجاذبه عوامل الارتقاء والهبوط، وكأنه يرى في تسطير ذلك كله تنفيسا عن رغبة تعتمل في نفسه، أو ترويج مشاعر مكظومة، تتطلب الإفصاح"

[1] - المصدر السابق

كما كشف حفاوة المستشرقين بكتاب الأغاني الذي أخرجوا منه هذه الأخبار الماجنة، في مؤامرة واضحة لترويج هذه الأفكار، ويصمون عصر الحضارة بالإباحية التي لا تنبئ عن روح الإسلام في شيء، وانبرى مدافعًا ومفندًا هذا الرأي، وأشار إلى إسلامية الدولة حكومة وزعامة، وخلفائها الذين ينتسبون مزهوين إلى بيت النبوة.

وإلى وزرائها وكتابها وعلمائها وقضاتها، يهيمون بالإسلام عن عقيدة مخلصة، وقد حفل التاريخ بروائع تاريخهم، مما يشهد بالحالة الإيمانية العالية لهذا العصر، وكل ما كتبه أبو الفرج، لا يلتفت إليه، لأنه تحدث عن عدة مُجان من الشعراء المتهتكين، الذين كتب عنهم المستشرقون، ودونوا أخبارهم وما صدر منهم لا يمثل الحالة العامة، للبيئة العباسية، ولقد تتلمذ طه حسين على يد هؤلاء المستشرقين، ورجع من فرنسا بعد أن قرأ سموم أساتذته منهم، وأخذ يرددها مع ما كان فيه من اندفاع في الرأي بحكم شبابه.

وليته فعل ذلك وردده بين زملائه، وإنما سارع بنشر هذه الأفكار الفاسدة والكلام الفاسد في الصحف اليومية، مما أحدث جلبة هائلة.

ولم يعدم طه حسين من يقف في وجهه ويرد مفترياته، فقد ظهر من ذَكَّره بأن هذا العصر كان يحمل الخير والشر معًا، فكما وُجد فيه المتحللون، وجد كذلك فيه أهل الزهد والتقوى والورع والعلم، وأن محاولة الاقتصار على روايات الأغاني وحدها، تعسف يغفل الجانب الآخر للحقيقة!

أما الدكتور البيومي فلم يسلم بهذا الرد وأعده ناقصًا، ورفض دفاع المدافعين أن يتكلموا بما يوحي استواء كفتي الخير والشر في ميزان واحد، وذكر أن "هذا إجحافًا بحقيقة المجتمع العباسي، وغمض عن واقع واضح لا يحتمل اللبس، لأن هؤلاء المتحللين لم يكونوا إلا شواذ لا تستقيم القاعدة العامة دون استثنائهم، فالقاعدة الكلية العامة هي قوة المجتمع المسلم، وعمق وعيه، والاستثناء الذي لا يؤثر في القاعدة هم هؤلاء العصابة من المتحللين، وأمثالهم لم يخل منهم مكان، حتى عصر النبوة قد وجدوا فيه، وكذلك عهد الراشدين، وغيرها من العهود الممتدة، حتى اليوم يوجدون كذلك، أفيكون مجتمعنا اليوم متحللا إباحيًا، لأن كاتب قصة خليعة، أو شاعر قام بنظم قصيدة ماجنة، أو غنى مطرب قطعة موسيقية سفيهة، وذلك ما لا يكون أبدا، والإسلام بحمد الله نافذ الكلمة قوي الإشعاع"[1]

وتعجب رحمه الله من عدم النظر والاعتبار بسيرة العلماء والزهاد وهم بالمئات، ومن أصحاب المواقف العظيمة الأبية الشامخة، وكذلك سير الوعاظ والصوفيين والقراء والمحدثين، والنحويين وآثارهم الغزيرة الكثيرة، التي لا يحدها حد.

فكيف لهؤلاء أن لا تكون كفتهم مرجوحة، على كفة أبي نواس وصحبه؟! ويسوق البيومي موقفًا ساميًا يدحض به هذه الفرية، ويدل دلالة عميقة على انحرافها، حينما ذكر أن أبا نواس كان صديقًا للخليفة الأمين، وقد اضطر إلى حبسه نزولا على رغبة المجتمع النافر من خلاعته، فيعلق البيومي على هذا الخبر بقوله: فإذا اضطر مجتمع ما حاكمه أن يحبس

[1] - نفس المصدر

صديقه العزيز، فيستجيب سريعا إلى رغبته، فإنه لمجتمع حي مؤمن، له الكلمة العليا، ولن يقال عنه: إنه مجتمع لذة وفساد.

اضطر البيومي رحمه الله أن يستعيد ذكرى تلك الحادثة المروعة التي أقدم عليها القس (جيم جونس) زعيم طائفة معبد الشعب في غابات غانا سنة 1978م حيث قتل بالسم مئات الأطفال، وقيد عشرات الرجال في السلال ، كي لا يفروا من الموت، وكانت جريمة بشعة بعثت على الألم الجازع والدهشة البالغة، استعاد ذكراها حينما قرأ بعض محاولات المغرضين الذين أرادوا أن يجعلوا من دين الله مصدرا لهذا السفه المجنون، وترى أن الإخلاص الديني لدى أصحابه يلغي عقولهم فيجعلهم ينقادون إلى رئيس متسلط ذي مقدرة بهلوانية على السيطرة القادرة، فيستغل عاطفة الدين استغلالا يجعلهم رهن إشارته، فيرمي بهم إلى المهالك وهم طائعون مستعذبون، حتى أن بعض الكتاب الجاحدين زاد فقال: ولهذه الحادثة نظائر في تاريخ الإسلام، لأنها تذكرنا بالمقنع الخرساني وما صنعه بمعشره في العهد الأول لبني العباس، مما يوضح أثر التهوس الديني![1]

اتهم البيومي هذا الكلام بأنه إفك وحقد أسود على الإسلام، لأن الجريمة التي قام بها مسيحي لا تنسب إلى الإسلام في قليل أو كثير، لأن غرض هؤلاء هو جر الإسلام إلى الاتهام، وإن وقعت الواقعة في غير دياره وعلى أيدي مخالفيه، فيجب أن تبذل الجهود الفكرية بحثا عن حادثة مشابهة ليقرن الإسلام بالمسيحية في جريمة لا صلة لها الدين الصحيح، ويجب على الدارسين في صحائف التاريخ أن يجدوا باطلا مزيفا يحاولوا أن

[1] - راجع كتاب من المثل الإسلامية –د. محمد رجب البيومي

يشوهوا وجه الإسلام به، حتى تستريح القلوب الحاقدة وتنفس عن شررها الملتهب في الصدور، وهي تعلم أن ما تتقول به احتيال دنيء واختلاق وزور، حتى يكون الباطل حقا والحق باطلا.

وانفع إلى بيان حقيقة هذا الاسم الذي تشبث به المغرضون ليضربوا الإسلام به، فهذا الإله الدعي المقنع الخرساني وحادثته ليس مسلما وأتباعه ليسوا مسلمين، وقد هيأت الدولة الإسلامية جيوشها لمحاربتهم، إذ خرجوا على الإسلام كافرين، فكيف تكون المأساة هنا إسلامية وأصحابها كافرون! فكيف تكون دليلا على أثر الدين في الاستهواء؟ لقد ظهر الرجل الدعي أيام المهدي العباسي في بلاد ما وراء النهر، وكان رجلا مشوها قبيح الخلقة، أعورا قصيرا، وأغوى الناس وفتن العامة، والتف حوله نفر من أهالي سمرقند وبخارى، وأسقط عنهم الصلاة والزكاة والصوم والحج، واستطاع جيش المهدي أن يحاصره ويشتت شمله، ولما تأكد من أنه مهزوم، جمع نساءه وأطفاله وسقاهم السم فماتوا جميعا وهو معهم.

فكيف بعد هذا يمكن لبعضهم أن يساوي بين جريمة أمريكية وبين الإسلام، في جريمة لم يكن صاحبها على أي صلة بالإسلام.

واختتم البيومي دفاعه بقوله تعالى: " فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"

أوهام شيوعية

استاء العلامة البيومي رحمه الله من دعاوى نفر من الكتاب الشيوعيين، الذين يخطئون عن عمد وهم يعرفون الحق الصريح، وذكر أنهم لا يرتجى منهم أن يفيئوا إلى الصدق، وحينما نقوم بتصحيح أخطائهم؛ لا ترى منهم غير الإصرار على البهتان، وأن أغرب أمورهم أن يكون الجدال معه في الحقائق الواضحة التي لا يحوطها غموض، وتشهد الدلائل على صحتها.

والبيومي رحمه الله عالم غيور صاحب موقف لا يؤثر السلامة أو الابتعاد تجاه من يسيء إلى الحق، وهي سمة العالم الحر الجسور الذي ينافح عن دينه وحقيقته الناصعة.

وهذا ما نجده في قوله: "إن خوضهم في الباطل يدفعنا إلى أن نفضح من مغالطاتهم العجيبة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة"[1]

لقد هاجم الشيوعية التي تُنكر الأديان وتحارب الإسلام ووقف في وجه زعمائها الذين يعلنون ذلك دون لبس، وسخر من هذا النكران الذى يشهرونه بلا حياء، ثم يعرض من أمر بعض كتابهم وهو يقرر في عناد، أن روسيا تحترم المسلمين في الاتحاد السوفيتي، وتطلق لهم حرية التدين، متحججًا زار المدن الإسلامية عياناً وصلى بمساجدها، وشاهد في المتاحف الروسية ما ينبئ عن مكانه الإسلام هناك.

[1] - في ميزان الإسلام – د. محمد رجب البيومي

وهذا لا شك دعاوى ترويجية كاذبة، إذا خالفت أصحابها صاحوا في وجهك واعترضوا، فيزعم صاحبها أنه ذهب إلى هناك وصلى بمساجد طشقند وسمرقند، وهو يعرف جيداً أن المساجد قد أغلقت، وليس فيها مسجد واحد يُفتح حين تقوم الدعاية الكاذبة بإذاعة أبواقها أمام زائر أعمى من صنائع الشيوعية، يُفتح ليرى الزائر خواء وظلامًا وانفضاضها عن سبيل الله، ويقال له: هذا هو المسجد الفسيح فصلّ فيه وحدك.

لقد ذكر أصحاب هذه الدعوة الكاذبة، بحقيقتهم التي نسوها من أنفسهم، وهي أنهم شيوعيون لا يصلون أصلا في بلدانهم، حتى ينبري للتحدث عن الصلاة في مساجد الاتحاد السوفيتي، وما درى أنها خطة أعدت له ولأمثاله حتى يزيفوا الحقائق، ويخدعوا الأغرار ممن يجهلون تاريخ الشيوعية وحربها للإسلام والمسلمين.

وكان دقيقًا في نقده لهذا الكلام فذكر هؤلاء وهم شيوعيون، بما قرؤوه من تاريخ الشيوعية ورجالها، فهل قرؤوا عن صنيع الشيوعية في روسيا؟ وكُتاب الشيوعية أنفسهم لم يكتموا شيئًا مما فعلوه بالبلدان الإسلامية هناك، وذكروا مقاومتهم المعادية والمعتدية لكل تحرك إسلامي، ورددوا من وقائعهم الحمراء ما يشيب له الولدان، فأرقوا الدماء وهدموا المنازل والمدن وقتلوا الموحدين.

ولفت في كتابه ميزان الإسلام، إلى تاريخ روسيا الدامي مع المسلمين، وكيف اتخذوا من المسلمين عدوهم الأول والمقامة الأكبر لهم منذ قيام الشيوعية في حرب دامت 30 عاما

دون هوادة، حين واجه الإمام شامل جيوش روسيا فكبدها خسائر فادحة، وهو الكفاح الذي يخفيه كثير من الشيوعيين ومؤرخيهم.

فبعد أن عقد المسلمون مؤتمرهم الدوري 1922م داهمتهم الجيوش الحمراء؛ فنهبت المنازل وشردت اللاجئين، وقتلت آلاف الآلاف، ثم نجد من الكتاب العرب من يزعم أن هذه الفظائع طبيعية في دولة تنشد الاستقرار، ثم انطلق بعض المأجورين إلى بلاد الإسلام ليعلنوا بعد هذه الكوارث الدامية، في وقاحة دنيئة: أن المسلمين يتمتعون بحرياتهم التامة في بلاد الاتحاد السوفيتي، وأنهم يجدون الرعاية ويتمتعون بالحرية الكاملة، ويخرج لنا من جيبه مقالات مكتوبة في الصحف الروسية، لعلماء مسلمين يعظمون فيها روسيا ويمتدحون سياستها ويشيدون بعدالة الكرملين، ولعل هذا الكاتب الذي كتب مثل هذا الكلام مضطر مقهور، وأن مذيعها آثم مأجور، إن صدقت أساس نسبتها إليه.

لم يكن من المنصف أبدا أن يتجاهل هؤلاء مآسي المسلمين تحت الحكم الروسي، وهي المآسي التي دونت وعرفت وسجلت وقائعها الدامية، وليس من المقبول أبدا أن يكتب هؤلاء ما يكتبون من يحسب نفسه من الغيورين على الإسلام والمسلمين؟!

واستهزأ من أذناب روسيا في كل بلد إسلامي ممن يهاجمون الاستعمار الغربي ويعددون فظائعه الدامية في كل مكان، ويدعون جاهدين إلى مقاطعة دوله، وفي ذات الوقت يسكتون شرور العدوان الروسي على المسلمين، لأن من الواجب أن يعرف الإسلام أعداءه في كل مكان وبلد، ولا يتجه بالعداء لفريق دون فريق، فلا يوجد فرق بين شعب

مسلم احتله جيش روسي، وبين بلد آخر احتله جيش إنجليزي أو فرنسي، فالعدو هو العدو بظلمه وعدوانه، بل تعجب البيومي ممن يحتفي بآثم جبار ويندد بزميل له في العدوان والظلم، ووصف هذه الازدواجية بأنها عمى يطبق الجفون، وصمم يذهب بالسماع.

"فمن الذي ينكر أن روسيا القيصرية قد ابتلعت من بلاد الإسلام دول القرم والقوقاز والتركستان وسيبيريا والأورال، ومن الذي ينكر أن الزحف على هذه الدول كان في أعنف صور الجبروت والفظاعة، بحيث كانت المدافع تحصد من أمامها من الرجال، والقذائف تدك ما أمامها من المنازل، دون اعتبار بمن يحتمون بها من النساء والولدان والشيوخ، وبلاد الإسلام في الجانب الآخر مشغولة بمصارعة الاستعمار الأوربي، والخلافة عاجزة عن نصرة أولئك وهؤلاء، لأن ضعفها الأليم قد جعلها فريسة للدب الروسي يصاولها في كل معترك ليقطع أجزاءها الممتدة عضواً وراء عضو؛ ومع أن أبطال التركستان والقوقاز والقرم لم يهنوا في سبيل المقاومة الباطشة، فقد تقدموا بأرواحهم مستشهدين بعد أن أذاقوا العدو أسوأ ضروب النكال، ولسنا نقول ذلك تمشياً مع شعورنا العاطفي نحو إخواننا المسلمين. ولكن مؤرخي الروس أنفسهم هم الذين سجلوه، وها هو ذا المؤرخ الروسي «فاديف» يقول في جلاء لا يحجبه ضباب: (لولا الحروب الروسية التي عاقت تقدمنا، لاستطاعت الجيوش الروسية أن تحتل الشرق بأجمعه من مصر إلى اليابان، وهي تسير على نغمات فرقها الموسيقية) ".[1]

1 - المرجع السابق

وينتقل البيومي لاعتراف روسي آخر لأحد القُواد الروس، الذي قال في صراحة كاشفة وهو يسجل مقاومة المسلمين الباهرة، ومن جانب آخر شاهد على قومه بدمويتهم وعنفهم ووحشيتهم: "وإن مدينة طشقند كانت مستعدة بأكياس الرمال في جميع الشوارع، وكانت المقاومة عنيفة جداً، ومات كثيرون وهم يهاجموننا جماعات أو فرادى، ولم يستسلم أحد، فقد فضَّل الجميع الموت على أسنة الرماح، وعانى جنودنا كثيرًا، ولم نضع أيدينا على مجتمع أو ناد، إلا بعد أن سبحت جنودنا في بحار قتال مرير من الدماء.

فما معنى هذا الاعتراف! معناه أن القوة غير المسلحة قد بذلت جهدها في معارك غير متكافئة، وأن العُزل الذين فضلوا الموت على أسنة الرماح جعلوا أعداءهم المسلحين يسبحون في بحور من الدماء! ومعناه أن البلاد الإسلامية التي احتلها الروس لم تكن لقمة سهلة الازدراد، بل معناه أن كتابنا الذين كتبوا الفصول وشعراءنا الذين نظموا القصائد في تحية وستالينغراد حين قاومت الألمان في الحرب العالمية، وكانت أسلحتها هائلة وفيرة، هؤلاء جميعاً كانوا في حاجة إلى من يقول لهم إن طشقند المسلمة أتت بما لم تأت به ستالينغراد، فقد دافع أبطالها في كل شبر عن حرماتها، وقد جعلوا غزاتها يخوضون في بحر من الدماء والأبطال يتحصنون بأكياس الرمال وحدها حين فقدوا السلاح وقد أدت الأكياس رسالتها أمام القذائف والمدافع، فأي ملحمة خالدة سجلها المسلمون إذ ذاك! وكيف يذهب صداها دون أن يتردد دافع أبطالها في سمع الزمان؟".[1]

[1] - المرجع السابق

وأنت هنا تلمح الملكة التاريخية التي توفرت للعلامة البيومي والتي استطاع بها أن يزجر كل من يشيد بروسيا والشيوعية، ويدعي كذبًا أنها لا مثيل لها في عالم الإنسانية، بل تلمح اهتمامه ووعيه الكامل بأحوال المسلمين وظروفهم في كل مكان، وهو الواقع الذي لا يستطيع كتاب الشيوعية أن يخدعوا صاحبه عنه مستغلين جهله به، لقد كانت هذه الشواهد التي نقلها البيومي كمؤرخ ومفكر قد أطاحت بدعاوى الكاذبين المخادعين.

ثم يفاجئ الدكتور البيومي أصحاب هذه الدعاوى الوهمية، بخبث الروس في تسريب مفاهيمهم وخداعهم للعقول، واستخدامهم لألوان الثقافة والفنون لتزييف الحقائق وإظهار موقفها المعادي للإسلام، فمن زار متاحفهم يجد معروضاتهم تشن حربًا ضارية على الإسلام، بالصور والخرائط والأفلام والندوات، تتجه كلها لحرب الدين بعامة، وحرب الإسلام بخاصة، فيقف الزائر ليرى صورًا دموية، تمثل الفتوح الإسلامية لبلاد ما وراء النهر وما أمامه، فتدل على أن الإسلام قد انتشر بقوة السلاح، وأنه سحق في مدة ملايين الأرواح، وهب كالوباء العاصف، فأهلك الحرث والنسل، وخرب الديار، ثم يلتفت الزائر، ليرى صور الإقطاعيين وأكثرهم من أصحاب العمائم والسلاطين المسلمين، ليوحي للمتلقي تمرغهم في الشهوات والمتع واستعباد الخدم، فتظهرهم بمظاهر السوء وإهمال مطالب الناس والعكوف على ملذاتهم فقط، وإذا نظر العاقل لما وجد صورة حكام روسيا المعاصرين تختلف في شيء عما يتهمون به المسلمين في متاحفهم.

ثم يمر الزائر أمام كتب السحر والشعوذة والدجل، فيزعمون أنها كتب تتضمن علوم المسلمين، ليدرك الزائر وقد توهم أن هذه الكتب التي تضم الخرافات، هي خلاصة

وصميم تعاليم الإسلام، والإسلام منها براء، ثم يرد البيومي وينافح في غيرة عن حضارة الإسلام وسموها وتقدمها ورقيها أمام هذا الكذب البواح فيقول: "أما التقدم الحضاري في عهود الخلافة العباسية والفاطمية والأندلسية حين كانت أوروبا غارقة في الظلام، وحين كان الشرق مشغل الحضارة، فلا يُذكر عنه أي شيء، وكأنه لم يفد ركب الإنسانية شرقًا وغربًا إلى مشارف الضياء".

حتى الأفلام السينمائية تسلط جهدها لتشويه الإسلام وحضارته وتعاليمه لتتعدى مشاعر من يؤمنون به.

ويعقب على رسالة هذه المتاحف بقوله:

-فكيف تكون رسالة وحال التعليم والمدارس والجامعات رسالة الصحافة والإعلام والمسرح أمام ما نجده من وضع المتاحف؟ لا بد أنها أشد وأفدح، في مسار التعمية والخداع والتضليل.

لقد أراد بكل هذا أن يكشف لهؤلاء المخدوعين كيف مكرت بهم روسيا وأوهمتهم بما يرددونه اليوم من سحر هذه الخدعة، فذكر في كتابه مواقفها الانتهازية حينما وقعت أثناء الحرب العالمية الثانية في قبضة النازية، فبدلت مواقفها مع المسلمين وادعت التوافق بين الشيوعية والإسلام، وحينما انقشعت الغمة، عنهم سحبوا هذه المؤلفات وأنكروها وصادروها وكتبوا ردودا تنافي حقائقها.

ولو أن المنخدع بألاعيب الروس عليه أن يسائل نفسه: أين المصلون؟ وما حجمهم الطبيعي بالنسبة لمن يدينون بالإسلام في الولايات الإسلامية، وما موقف الدولة لمن يعلن إسلامه، ومن يمد هؤلاء المسلمين بثقافتهم الدينية، وانطلق البيومي لأدلة هي أقوى وأشد حينما نبه إلى أقاويل زعماء الشيوعية أنفسهم وموقفهم من الأديان، وإنكارهم لما جاءت به الأديان، وأعطى مثالا لقول لينين: "إن البحث عن الله لا فائدة منه، ومن العبث البحث عن شيء لم يخبأ، ودون أن تزرع لا تستطيع أن تحصد، وليس لك إله، لأنك لم تخلقه بعد، والآلهة لا يبحث عنها وإنما تخلق" فهل يعني المخادعون المنخدعون حقيقة روسيا التي يدينون بملتها وموقفها من الأديان، بل وموقفها من الإسلام على الخصوص؟!

وأمام كل هذا الكشف يدفع البيومي هذا الكذب الصراح الذي يجمل أعدى أعداء الإسلام حينما قام أذنابه لتحسين صورته وإظهاره بأنه صديق محب مسالم للمسلمين، وهي بلد طالما حاربت الإسلام وأراقت دماء المسلمين، فكان فيما ساقه من أدلة واقعية وتاريخية فضح لهذا الخداع وتبديد لهذا الزيف.

شبهات واهية

تتبع شيخنا البيومي رحمه الله كل شبهة معيبة نطق بها وكتبها (فرج فودة) وردها بالعلم الدقيق، والفهم العميق والوعي البصير بالإسلام، لكونه أحد علمائه الكبار والمنافحين عن شريعته الغراء، وكانت شبهة الحق الإلهي مما ردده فرج فودة من مفترياته حينما قال: "إن تطبيق الشريعة الإسلامية لا بد أن يقود إلى حكم بالحق الإلهي لا يعرفه الإسلام، ولا عرفه في عهد الرسول، والحكم الإلهي لا يمكن أن يقال إلا من خلال رجال دين، ويؤدي بالتأكيد إلى انهيار الوحدة الوطنية في مصر".

ثم قال: "والحكم الإلهي الذي يقيم الدولة الدينية، سينتهي بعدم الاعتراف بالدساتير، والقوانين الوضعية" وذكر البيومي أن فرج فودة لا يعرف معنى الحق الإلهي، الذي يراد به الالتزام بأحكام الله، فهو يردد معنى شائعًا أذاعه خصوم الإسلام، حين ذهبوا بالحكم الإسلامي إلى ما سموه بالتفويض الإلهي، وهو قيام دولة تستند إلى إرادة سماوية، تصطفي أناسًا تخصهم بالسيادة، والسلطان على اعتبار أنهم مؤيدون بروح من عند الله.

لقد دافع عن الحقيقة ضد هذا الزعم الكاذب والفهم المغلوط، والافتراء الجاهل، وذكر أن خلاصة هذه الفكرة، أن الحاكم غير مسؤول أمام الشعب، لأنه يستمد سلطته من الله، فهل الحاكم في الإسلام غير مسؤول؟

وقال: "إن الإسلام أول من قرر أن الحكم خدمة للمحكومين، فالحاكم راع يحرص على مصالح الرعية، ويقوم عليها بكفاءة ومقدرة، ولا بد من شروط تتوفر فيه، ومن دونها لا يستأهل منصبه، ومن أول هذه الشروط العدالة، فإذا لم يكن عادلاً لا تصح ولايته، ولا تقبل شهادته، فلا يسمع له قول، ولا ينفذ له حكم كما قال الفقهاء.

ومن شروطه أن يكون عالمًا بأحكام التشريع، لأنه المسؤول عن تنفيذها، وهذه الشروط وغيرها لا تجعله يصدر عن ذات نفسه، وهو مسؤول أمام الله وأمام الناس، ولا طاعة له في معصية، بل يتعين عزله إذا خالف ما نزل به الكتاب، وأجمع عليه العلماء، كما أن فقهاء الإسلام أجمعوا على أن وكالة الحاكم عن الأمة، لا تميزه في الحقوق والواجبات عن أفرادها، إذ تجعله كأي شخص يؤخذ بالقصاص في القتل، ويلزم بالأموال التي يتلفها، وتقام عليه الحدود إن أتى ما يوجب الحد".[1]

وأشار إلى مكر فرج فودة في عبثية الاستشهاد والتدليل على شبهته، حينما ذكر تسجيله في كتابه (قبل السقوط) لمظالم سالفة، وقعت من الحكام المسلمين في بعض الحقب التاريخية، لتكون المظالم التي يستدل بها على عدم الصلاحية لشريعة السماء، رد البيومي على هذا الهراء بأن هؤلاء الحكام الذين اقترفوا هذه المآثم، كانوا آثمين بمخالفتهم شرع الله، الذي لم يدعهم إلى اقتراف هذه المآثم، حتى يكون دليلا على الطغيان، وعلى الذين يأخذون الإسلام بذنوب بعض المسلمين، أن يعرفوا أن أحكام الإسلام عادلة رحيمة، ومن خرج عليها مسؤول عن خروجه.

[1] - في ميزان الإسلام ج1- د. محمد رجب البيومي

وإذا تحايل من يخضعون للقوانين الوضعية عليها بالحيل والألاعيب، فهل يعيبها ذلك في شيء أم أنهم يعيبون أنفسهم؟ فلماذا إذن نلقي بالتعبة على الإسلام ونتهمه بالقصور حينما يخالفه أتباعه، ونعاقبه بجرم غيره، وتساءل البيومي حينما أقدم فرج فودة على حشو كتابه بمثل هذه المثل التي تدين حكام المسلمين في بعض الفترات، ألم يسأل نفسه عن قبول الشريعة لهذه المخالفات، هل ترضاه وتقره، أم أنها ترفضه وتمقته، وترى في مبادئها استحقاق أمثالهم للعزل والتنحية؟

إن هذه المفاهيم لا يعرفها الإسلام ولا يقر بمن يقولون بها، فهي أقوال نطق بها الغربيون وملوكهم وضرب البيومي لبعض الأمثلة التي نطقوا بها كقول لويس الرابع عشر: (إن سلطة الملوك إنما تستمد من تفويض الخالق، فالله هو مصدر هذه السلطة، وبين يديه وحده يؤدي الملوك حسابهم لا بين جماعة أو فرد) وبهذا المفهوم قال لويس الخامس عشر في مرسوم سنة ١٧٧٠ م: (إننا لم نتلق التاج إلا من الله، فسلطة عمل القوانين من اختصاصنا وحده دون تبعية ولا توزيع).

وقال الإمبراطور غليوم في القرن العشرين: (إن الملك يستمد سلطته من الله، ولا يقدم حسابه إلا إله، وإنني على هذا المبدأ أضع سياستي وأعمالي).

هكذا قال ملوك الغرب وهكذا فهموا واعتقدوا، وهو المنحى الذي لم يوجد في الإسلام أي نص أو عبارة تشير إلى مثله، ويأتي هذا أمام ما يثيره بعض الكائدين من غمز للخلافة الراشدة، محاولين الانتقاص منها ومن أصحابها بدعوى أنهم بشر لا ملائكة!

وتساءل رحمه الله متعجبًا على هذا الجحود بقوله: "من الذي قال إنهم لم يكونوا بشرا، بل من الذي قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟!

ثم كانت الدعوة الثانية التي ارتأى بها صاحبها دلالة انحدار هذا العصر، هو مصرع عمر رضي الله عنه، وما جد بعده من مصرع عثمان وعلي، وهو يبتغي بهذا أن يثبت بهذا أن يكون الحكم الإسلامي سببًا لمصارع هؤلاء، ومن ثم تسقط حجة من يذهبون لإكبار هذا العهد، وينادون بتطبيق ما طبق فيه من أحكام الكتاب.

ويقول أمام هذا الشطط: "وإذا كان صاحب هذه الدعوى يرى في مصارع الخلفاء ما يدعو إلى إلغاء الحكم الإسلامي، فلماذا لم تلغَ الدساتير الغربية في كل أمة اغتيل فيها ملك أو رئيس، لقد كان من الأولى أن يلغى الدستور الأمريكي لأن الرجل العظيم إبراهام لينكولن، قد اغتيل في القديم، ولأن الرئيس جون كيندي قد اغتيل في الحديث، إذن فالدستور الأمريكي قد سبب كارثة الاغتيال في العهدين! وهو منطق نعرضه على القراء ليتفقهوا بما لم يكونوا يعلمون".[1]

ثم يقول فرج فودة: "إنه يعلن رأيه هذا عن الخلافة الراشدة، ليصل بالقارئ إلى فهم ما يفهمه هو من الإسلام، وهو فهم السياسي ورجل الفكر، قبل أن يكون فهم رجال الدين، وهو فهم يستند إلى قاعدة أساسية، وهي أن الإسلام لم يتنزل على ملائكة وإنما على بشر مثلنا.

[1] - المرجع السابق

ويرد رحمه الله على هذا الكلام بأن المعنى منه أن رجل السياسة والدين، نقيضان في الحكم، وهو ما ينكره كل مسلم عرف أن الدين مسيطر عليه في كل أمر جاء به، وأنه ما دام قد ارتضى الإسلام دينا، فلا بد أن يصدر عن كتاب الله، دع عنك ادعاء الكاتب أنه رجل فكر في قضايا الإسلام، وهو ادعاء أثبتت صفحات الكتاب أنه من هذا الفكر المزعوم بمنأى بعيد".[1]

أما فرية الفرق بين الإسلام والدولة التي رددها فرج فودة وأمثاله من العلمانيين، فقد أشار البيومي إلى أنها "ترديد لآراء علي عبد الرازق دون أن يرد المؤلف على آراء المخالفين، وبيّن أن هذا ليس من النزاهة والإنصاف، وليس من طبيعة الجدل العلمي أن تصدع بالرأي المختلف عليه، ثم لا تعمد إلى أدلة معارضيه بتفنيد".

ثم يقول في لفتة ذكية صادمة: "وهي أدلة منتزعة من كتاب الله، من المصحف الذي قلت في مقدمة كتابك عنه: نعم للمصحف".

ويسبح فرج فودة في دعاويه ساخرًا من أحوال الخلفاء الراشدين، فيقول: "إنه يستحيل أن يكون المطلوب من الحاكم اليوم أن يسير في الأسواق رافعا الدرة، أو أن يعلو بها رؤوس معارضيه، أو أن يتنصت على البيوت ليلا، حتى يعلم أحوال المسلمين، ما يدعو لأخذ الثريد لأطفال جياع، أو أن يؤرقه دابة في جنوب أسوان، أو أن يلبس إزارا به 12 رقعة، أو أن يكون الحاكم الأوحد على بيت المال".

---

[1] - المصدر السابق

وهو التجني الذي وصفه شيخنا بأنه إغراق في الضحالة فقال في كتابه في ميزان الإسلام: "فمن الذي أوحى للمؤلف أن من يطلبون تنفيذ الشريعة الإسلامية لا يفرقون بين اختلاف الأحوال في مجتمع صغير كمجتمع المدينة المنورة أيام عمر بن الخطاب، وما يلزم أن يأخذ به رئيس الدولة في مملكة واسعة ذات محافظات ومديريات؟ هل نادى أنصار الشريعة بضرورة حمل الدرة، ولبس الثياب المرقعة حتى يكون ذلك موضوع ملام؟! أو أنهم دعوا إلى تنفيذ أحكام الكتاب في العبادات والبيوع، والمعاملات والحدود والزواج والميراث!

ثم ألا يعلم المؤلف أن مفتش التموين الذي يراقب السوق اليوم هو عين الحاكم وأذنه، وأن القائمين على معاقبة المجرمين من رجال القضاء هم أعوان الحاكم، وأن رجال المباحث الذين يتنصتون على الناس ليتفادوا وقوع الجرائم ويأخذوا بأسباب الحيطة هم أعوان الحاكم، وأن وزارة الشؤون حين تطعم الجائعين بمعاش مقرر تفعل ما فعل عمر بن الخطاب حين قدم البر والخبز للجياع، ثم لماذا لا يهتم الحاكم المعاصر بأحوال رعيته في الأماكن القريبة والبعيدة، فتؤرقه مصاير الحيوان والإنسان في أسوان مثلا! وذلك ما يحدث، حين يحيط الخطر ببلدة ما، فتنهض لإغاثة المنكوبين!! فلا غرابة إذن لو قامت الدولة العصرية بما قام به عمر، ولماذا لا يكون ما سجله التقدير عنه موضع افتخار ومباهاة".

ثم عرض شيخنا بالمنطق والعقل أن عمر رضي الله عنه إذا كان قد فعل هذا ولبس المرقعة، في وقت كان الجدب في عام الرمادة يغمر الناس، فهذا هو المنتظر من رجل يدرك

معنى المسؤولية، ونحن الآن نؤاخذ بعض الرؤساء الذين يحتفلون باختيار ملابسهم، وتعدد أزيائهم، مع ارتفاع أثمانها، ونضرب المثل الأعلى، برؤساء دولة كالصين، يلبسون اللباس الشعبية الرخيصة، فإذا جاء عمر ولبس الثوب المتواضع زمان العسرة، كان ذلك موضع استهزاء.

ألا يجدر بنا في هذا المجال أن نستشهد بقول القائل:

إذا كانت محاسني التي أدل بها* كانت ذنوبا فقل لي كيف أعتذر"[1]

هكذا كان العلامة البيومي دقيق النظر ثاقب الفكر، يعقب على كل شبهة بما يليق بها من الردود القوية المُلجمة الحصيفة، التي تحيلها إلى باطل معلوم، فلا ينخدع به موهوم أو يضل به حائر.

ورحل فرج فودة وماتت معه أفكاره البالية، وافتراءاته الواهية التي ردها أعلام الإسلام ومفكريه الكبار، وعلى رأسهم فارس القلم العملاق الدكتور محمد رجب البيومي رحمه الله.

1 - المرجع السابق

تحريف التاريخ

لم يكن الدكتور البيومي وهو العالم الموسوعي الكبير، أن تنطلي عليه حيل الكاذبين الذين يستغلون عزوف الناس عن القراءة، وقلة ولوغهم في عالم البحث والمعرفة، فيدلسون عليهم ويكذبونهم في النقول والأفهام، ومن صادف القراءة لهم يمور في دائرة كذبهم، فيصدق الافتراء ويؤمن بالبهتان.

طالع يومًا كتابًا يتناول شذورًا من تاريخ الدولة العربية في عصور مختلفة تحت عنوان (موجز التاريخ العربي)، ومعنى هذا الإيجاز الذي يوحي به العنوان، كما ألمح وشرح، ألا يفيض في جزئية من الجزئيات، وإنما يتناول المعالم الرئيسة في عرضه الفترات الزمنية والأشخاص، لكن مما تعجب له شيخنا البيومي، أن مؤلف الكتاب تناول الحديث عن الصديق أبي بكر رضي الله عنه في صفحتين اثنتين، وذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ثلاث صفحات، ثم خص حريق مكتبة الإسكندرية بنحو أربع صفحات، ودُهش رحمه الله لهذا الخلل، وذكر متعجبًا بقوله: "وكأن الفتوحات التي نسفت مملكتي فارس والروم، وكأن ما قام به عمر في دنيا السياسة العربية، وما اتسم به من خلق إنساني باهر، أقل في تقدير الكتاب ومؤلفه من فرية الحريق، التي نسبت زورا إلى عمر رضي الله عنه"[1]

الكتاب إذن يوحي أن صاحبه ذو غرض ويريد تمرير الشبهات التي تنسب إلى سيرة الراشدين، ثم كان العجب الأكبر حينما قرأ البيومي في الكتاب، أن العقاد رحمه الله أثبت

[1] - في ميزان الإسلام د- محمد رجب البيومي

هذه الفرية، ونقل عنه قولا عجيبا وهو "لماذا كان يحرم على الفاروق أن يحرقها، ويجب أن عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها، ولماذا كان ينبغي أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين وغيرهم من الأمم، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها؟ "[1]

دُهش البيومي أن يأتي مثل هذا الادعاء، على قلم العقاد وفكره، وأنه مع من يقولون بهذه الفرية، وهو صاحب الفكر الإسلامي البصير، وأعظم من دافع عن الإسلام في كتبه، فمحال على من كان في مثل بصره السديد، واطلاعه الشامل، أن يحمل الفاروق تبعةً لم يكن صاحب يد فيها.

وسارع منقبضا إلى مراجعة المصدر العقادي الذي ذكر هذا الكلام، ولكنه لاحظ أن مؤلفيْ الكتاب قد أشارا إلى كثير من المصادر في الهوامش، وكانت المفاجأة أنهما تعمدا إغفال المصدر لكلام العقاد، تفكر البيومي وسبق إلى ذهنه، أن الحديث عن حريق المكتبة، ورد في عبقرية عمر أو كتابه عن عمرو بن العاص، ووجد ضالته في عبقرية عمر، وقد تناول العقاد بالتحليل والبحث الشافي، هذه الحادثة ونفى هذه الشبهة عن عمر رضي الله عنه، وحين أشبع القول في منحاه، حتى لم يبق زيادة لمستزيد، اتجه وجهة أخرى، من فنون الجدل، فتساءل قائلا: وإننا على الرغم من كل هذا، أي من جميع الأدلة التي ذكرها خاصة بنفي المسألة عن عمر، نفرض أنه أي عمر، أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية فما الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر، ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها، ويجب عليه أن يستبقيها وتفتح أبوابها، بل قال: "أمن النقص في تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعصر

[1] - عبقرية عمر للعقاد بتصرف

اليونان فلا يطلع إلا على الفلسفة اليونانية؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها إن صح أنهم حفظوها؟! لقد كان أهلها على شر حال من الضعف والفساد والهزيمة والشقاق والتهالك، وإذا كانت أحوال هذه الأمم لا تدل على قيمة هذه الكتب، بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من أي قيمة، فأين هو العيب في تفكيره إن صح أنه فكر على هذا المنوال وأمر بحرقها؟"[1]

لقد كان العقاد إذن يلتمس العذر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أنه فعل ذلك، ولم يدنه كما ذكر المدلسون في أمر لم يفعله.

وتساءل البيومي مع القارئ، وأراد أن يحكمه فيما حدث من صنيع صاحبي كتاب موجز التاريخ العربي اللذين افتريا الكذب على العقاد، وقطعا من كلامه ما يوهم بإثبات هذه الشبهة بحيلة رخيصة دنيئة، حينما تعمدا حذف هذه العبارة" إننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية في هذه الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر".

وبين في وضوح أن المؤلفيْن فَعلا ذلك ليفهم القارئ أن العقاد يتهم الفاروق بحرق المكتبة، وكأن لهما هوى خاصا في أن يؤكدا هذا الاتهام، وتنكر لهذا الصنيع، واقترح عليهما في سخرية أنه إذا فرض عليهما الهوى هذا الأمر، فلماذا لم يستشهدا برأي مؤرخ يتجه وجهتهما في الرأي مثل جورجي زيدان، صاحب كتاب التمدن الإسلامي، الذي مال إلى إثبات هذا الموضوع، وهو الذي أشار إليه العقاد في عبقرية عمر، ونسف كل ما ترهاته، بما

[1] ـ المصدر السابق

لا يبقي له أي اعتبار، بين البيومي أن الغرض التبشيري واضح في هذه المحاولة، لأن الاستشهاد بقول كاتب مسيحي مثلهما لا قيمة له في إثبات التهمة الملفقة، فليكن الكاتب مسلما، وليكن كاتبا شهيرا كالعقاد، حتى يكون لقولهما اعتباره في نظر القراء، لم يترك البيومي الشبهة بعد فضح الكاتبيْن وإظهار غرضهما، وإنما تتبعها منذ نشأتها وأصلها ومردديها، وبين بالأدلة التاريخية القاطعة، فسادها وزيفها، إضافة إلى إيراده لكلام وشهادات الكتاب الغربيين أنفسهم، كما فعل في مواطن أخرى تعرضت لذات الشبهة.

إنها إذن حيل تهدف إلى تزييف التاريخ وخداع القراء وظلم الحقيقة كشفها وفضح أصحابها، لقد كان رحمه الله قارئًا يقظًا نبيهًا دقيقا لا يمر عليه شيء، ولا يغفله خاطر، خاصة إذا تعلق الأمر بالإسلام والمسلمين، فإذا كان هناك عوج أو خطأ تحسسه ببصيرته، ووقف عليه، وتبين أمر فاعله وكاتبه، إن كان عن عمد أو عن خطأ، إن كان سهوًا، أم أن لصاحبه مأرب وغرض.

فبين يدي كتاب (رحلة إلى الهند) قرأه البيومي وأعجب به ومدح لغته وأسلوبه وطرافته، وما تبدى فيه صاحبه من الخبرة وحسن الاستنتاج الذي يحقق التشويق والشغف للقارئ، ووصف ما ذكره الكاتب عن البوذيين الذين خالطهم وعرف اتجاهاتهم النفسية وشمائلهم الخلفية وكان حديثه عنهم بروح العطف الخالص، وأمام هذا الانبهار وهذه الإشادة بالكتاب وصاحبه، وقف البيومي طويلا أمام حديث الكاتب عن نفر من المسلمين، يجاورون البوذيين إقليميًا، ويشعرون نحوهم بالحب والتعاطف، وهذا أمر لا غرابة فيه من طباع المسلمين وأخلاق دينهم، الذي يحثهم على المودة والتراحم والبشر، لكن

المدهش الذي توقف له العلامة البيومي، هو ما ذكره الكاتب في قوله: "إن المسلمين تأثروا بتعاليم البوذية في الرحمة والرفعة، والبعد عن الإيذاء ومقابلة السيئة بالحسنة، والزهد في الملذات، حتى لتحسبهم لولا قيامهم بشعائرهم الخاصة صلاة وصياما بوذيين"[1]

استغرب شيخنا هذا الكلام، من هذا الكاتب الذي لا يمكن أن يغيب عنه أن هذه الفضائل التي أشار إليها محبذًا ومستجيدًا، أنها من صميم الأخلاق الإسلامية، ولم ينقلها المسلم من جيرانه، إذا اتصفوا بها، فكل هذه السمات والفضائل وأكثر منها، لها سندها وأصلها في الكتاب والسنة، وكذلك فيما عرف من تاريخ المسلمين، الذين ضربوا أروع الأمثلة في الوفاء والإيثار والبذل والزهد والورع.

وهذا كله يعرفه كل من قرأ أقل القليل من تعاليم الإسلام، وهو الأمر المحال على المسلمين في شأنه أن يستقوه من غيرهم، فكيف يكون تمسكهم بفضائل القرآن، أثرًا من أثار الاتصال الودي بالبوذيين، وفي مقارنة منطقية قوية طرحها فضيلته حينما تساءل: أيهما أقرب للإنسان أن يتأثر بنبيه وكتاب ربه، أم أن يتأثر بمصلح فاضل، لا ينتمي إليه من قريب أو بعيد.؟!

وألمح إلى شبهة التأثر هذه، والتي امتلأت بها كتب المستشرقين، وكثرت فيها أقوالهم، حتى وهم يتحدثون عن أحكام القرآن، يقرنونها بما سبقها من أحكام أهل الكتاب، ويذكرون قصة التأثر المزعوم، وذلك لأنهم لا يؤمنون بنبوءة رسول الله، ويعدونه ناقلًا عما سواه.

[1] - في ميزان الإسلام ج1- د. محمد رجب البيومي

وفي موطن آخر وقف بحزم أمام محاولات تشويه الرموز الإسلامية الكبيرة، ومحاولة الإساءة إلى سمعتها، وألمح بأنه من الأطر التي يعمل عليها أعداء الإسلام بكل الوسائل والطرق الممكنة، ليجردوا الإسلام من أبطاله، ومن ثم يبدو بوضوح أمام الناظرين أنه دين لا يقدر على تقديم النماذج البطولية الفذة والشخصيات السامية العظيمة، التي يزهو بها أو قل يكتظ بها تاريخه، بل تاريخ الغرب نفسه، حينما لامسوا هذه الشخصيات وكتبوا عن إنسانيتها وبسالتها، لكننا للأسف وعلى الصورة المقابلة، نرى ونشاهد من يحاول تشويه الرموز الإسلامية، ممن هم بين أظهرنا ومنا، فهذا كتاب مدرسي يشوه مسيرة صلاح الدين الأيوبي، ويسيء إلى سمعته الجهادية، وهذا الكتاب يوحي بلا ريب، أن كاتبه ذو هوى صارخ مع أعداء المسلمين، حيث تحدث في هذا الكتاب عن حملته إلى بلاد النوبة، واتجاه جيوشه إلى ردع أصحاب هذه البلاد معتدية على الكنائس والأديرة! ثم رجعت الحملة ظافرة منتصرة بعد أن أنهت مهمتها.

سجل الدكتور البيومي هذا الكلام في كتابه من منطلق إسلامي، وفضح هذا الكذب، وكشف عن محاولة التزييف والخداع الملتوية، التي حاولت تشويه البطل الكبير، فهكذا تم تدوين الحملة، بما يظهر اعتداء صلاح الدين على الآمنين وترويعهم والاستيلاء على أملاكهم، ثم تعجب من هذا الكلام أكثر العجب، لأنه يعرف سماحة صلاح الدين مع أعدائه وخصومه، التي سجلها كُتاب أوروبا أنفسهم، مما هو معلوم ومعروف، بل مما يجعل من صلاح الدين رجل أخلاق مثالي من الطراز الأول.

رجع سريعًا إلى تاريخ صلاح الدين في المراجع الواسعة، حتى يتبين الأمر، ولعل ذلك قبل أن يفرد الدكتور البيومي كتابًا خاصًا عن صلاح الدين، يعد من أبهى وأثمن المراجع التي جسدت بطولته ومسيرته النضالية من أجل دينه وأمته.

ولما عاين تلك المراجع وجد ما يلي:

إن عددًا كبيرًا من الجنود النوبيين في الجيش المصري قد خانوه وتحالفوا مع الصليبيين وانضموا إليهم في معركة دمياط، وأرسلوا من زملائهم جواسيس في جيش صلاح الدين، وجرت بينهم وبين جنوده معركة في شوارع القاهرة، ارتدوا بعدها منهزمين إلى بلاد النوبة، وكونوا جيشًا كبيرًا لحربه، فوجه هو إليهم جيشه لقتالهم.[1]

حدث هذا في الوقت العصيب الذي كان فيه صلاح الدين يتعذب ويتألم حين كان من قدره أن يواجه جيوش قارة بأكملها، خرجت بجحافلها وأساطيلها تهدد جيشه المحدود، وحينما وجد نفسه وحيدا في مواجهة القارة الزاحفة، اضطر أن يستنجد بمن يراهم أهل العون، كي يكونوا معه في خندق واحد، لأنه يدافع عن إسلامهم ولا يدافع عن نفسه وحدها.

كان يقف أمام أوروبا جميعها ممثلا للمسلمين، وفيهم من يتآمرون به، بدل أن ينضموا تحت لوائه، وفيهم من يتصل بالعدو، ليبدي له ما يجهل من أمور عدوه المناضل".[2]

[1] - راجع كتاب من منطلق إسلامي للدكتور محمد رجب البيومي
[2] - راجع كتاب صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي- د. محمد رجب البيومي بتصرف

وهكذا إذن كانت الحملة التي تحدث عنها الكتاب المدرسي وطبيعتها فاختلق عنها الأكاذيب المغرضة، ليظهر البطل المسلم بمظهر الظالم العسوف، وقد نسي واضع الكتاب أن الأقلام الأمينة ستكشف زوره وكذبه، وأولهم العلامة البيومي رحمه الله.

الرمزية بين الكذب والحقيقة

يعمد بعض الأدباء في أعمالهم؛ الرواية التاريخية إلى تزييف الوقائع الحقيقية، ويبررون ذلك الزيف بأن الإبداع يقتضيه، وكأن الإبداع صار رخصة للكذب والافتراء، ويمكن للخيال الأدبي أن ينسج من صور التاريخ ما تلائم حالة الأشخاص، لكن المحزن أن يتم تناول الشرفاء والأبطال والعظماء على صورة غير لائقة، ونرى من يخلط الأوراق ويفسد الحقائق، فيجعل من الخائن أمينا والفاجر تقيًا، والشجاع جبانًا، والبطل خائفًا ذليلا.

لقد كان منهج البيومي في هذا الميدان، أن الأديب يمكن له أن يفعل ما يحلو له، فيطلق لنفسه العنان، ليحكي ويصور ما يشاء دون مساس بجوهر التاريخ وسمت شخوصه، فالتاريخ يجب أن نحفظ له صوته وصورته.

كان هذا ما حدث حينما ألف الأستاذ توفيق الحكيم مسرحية السلطان الحائر، والذي عمد فيها إلى تشويه صورة الإمام العز بن عبد السلام، الشهير في كتب السير والتراجم بسلطان العلماء، وصاحب المواقف العظيمة الجريئة التي لا يقوم مقامها إلا بطل شجاع، كبيعه للأمراء المماليك، وخطابة القوي للسلاطين والملوك دون خشية أو هيبة، مما حدا بالظاهر بيبرس أن يقول يوم وفاة الشيخ: الآن استقر ملكي!

لقد كان رده على الحكيم ينطلق من وجهتين الوجهة الدبية كناقد كبير له ذكره، والثانية كونه من علماء الأزهر الكبار المعنيين بالتاريخ، فكان أول ما رصده للحكيم، طرحه المتناقض حينما صور الإمام في الفصل الأول بأنه شجاع يواجه المصاعب، ثم صوره في الفصل الثاني، بأنه

القاضي المحتال المتآمر مع سيدة سيئة السيرة، وفي سبيل إرضائها أمر المؤذن أن يؤذن للفجر قبل موعده بساعات، ويغضب السلطان على القاضي المحتال ويتهمه بالعبث بالشرع والدين.

وأمام هذه الفرية لم يقف البيومي صامتا، فسرعان ما قام بنقد الكتاب وكشف الحقيقة، ورد الافتراء، فقال فيما كتب: "إن هذا الموقف الشائن من اختراع المؤلف، ولا يوجد ذكر له في كتب التاريخ، ولا يوجد ذكر للغانية ولا للمؤذن ولا للوزير، ولا يمكن أن ينقص ذلك من عظيم شامخ كالعز بن عبد السلام".

ولم يكتفِ بكشف الحقيقة فيما فعله الحكيم، بل راح يرد على من دافعوا عنه بحجة: أن الأديب الروائي له أن يتناول الحدث التاريخي بما يعطي الدلالة الرمزية التي يريدها، فلا يهم تغيير وقائع التاريخ الخاصة بالعز، وإنما المهم أن ترسم صورة للاحتيال في الفتوى، ومحاولة ليّ القانون، وهذه الغانية سيئة السمعة، إنما تمثل الشعب وتعلن عن رأيه الصريح في بعض الحكام.

ولماذا حينما نريد أن نرمز للقاضي الفاسد المحتال أن نلجأ لمن عرفه التاريخ نزيها عظيما، مع أن التاريخ يمتلئ بكثير من القضاة الفاسدين؟ حتى يستطيع الكاتب أن يوفق بين الرمزية التي يريدها والحقيقة التي يجب أن تحترم قبل كل شيء، ولمَ لا يرمز للشعب برجل أو امرأة شريفة حتى يتحقق المراد في أجمل وأنزه صوره، ولماذا يقيم الحكيم ذلك السلطان الذي عرف في التاريخ بالقسوة والبطش والغدر بأنه الذي يحترم القانون الذي انتهك على يد قاض وشيخ عالم؟ ما عرفه التاريخ مفرطا في شيء وإنما عرفه من بطل شجاع

يواجه عتاة الحكام والطواغيت، ولو عكس الحكيم الوضع والتصور لكان ذلك لائقا مقبولا.

ثم يحدث الحكيم في صراحة نقدية كاشفة حينما يسائله عن مؤلف يأتي في الزمن القادم يشيد في الفصل الأول بأدبه وموهبته وفكره، ثم يصوره في الفصل الثاني بأنه مجرم ومحتال لص يسطو على مواهب غيره، محتجا بأنه جعله رمزا للنوع الإنساني البشري الذي يتوقع منه السقوط، أكان الحكيم يرضى بذلك ويقبله؟ أم أنه يقبل وقتها بحكم الرمزية.

إن الأديب والقاص يهب منتفضًا ليدافع عن نفسه وأدبه، بأن الخيال لا صلة له بالواقع، ولا يمكن للواقع أن يحاسبه أو يحول بينه وبين جموحه في اليمين والشمال، ويحتج بأن للأديب أن يستخدم في خياله ما يشاء من وسائل الرمزية التي تصب بثقلها على الواقع الحياتي، فإذا أردت أن تُحاسب أديبًا على رمزيته فهذا جهل وخطأ، وليس من حقك أن تعامل الأديب أو الشاعر كما يعامل النقاد كاتبا أو باحثا، في عمل كتبه يثبت فيه تجربة أو يلقي بحروفه على نظرية، أو يحلل حقبة تاريخية.

قرأ شيخنا يومًا قصة تحت عنوان (جزاء الاجتهاد) للكاتب الإنجليزي (رتشارد جارنت) تحدث فيها عن أناس يكرهون العلم، وينفرون من الاختراع، معتقدين أن من يأتي بالجديد إنما يظهر عجز آبائه وأجداده، لأنهم لم يوفقوا إلى مثل ما وفق، ولقد كان كلامه طبيعيا لا خطر فيه، ولكنه جعل من كل ذلك تمهيدًا للقيام برحلة إلى الإسكندرية، نهض بها إنسان تطلع إلى المجد في زمن عمر بن الخطاب، ويسمى (فورس) وحينما دخل إلى المدينة، وجد سحابة عظيمة من الدخان تعلو سماءها، فسأل عنها، فقاده الحرس إلى خليفة المسلمين وهو في الإسكندرية،

وجرى بينهما حوار أعلمه فيه فورس أنه قادم من الصين وسرد عليه من صفات أهلها، وذكر له أنهم قد اخترعوا فن الطباعة لنشر العلم والمعرفة، وهو فن لم يوفق إليه أهل اليونان والهند، وأخذ عمر يستوضحه عن حقيقة ما يقول مستشهدا بالمثال.

فقدم إليه (فورس) ما يحمله من قوالب وحروف الطباعة، وتخيل فورس أن الخليفة سيرحب به كل الترحيب ويزكي ما قاله، لكن القصة ذكرت أن عمر عبس في وجهه ونهره قائلا:

"يلوح لي أنك لا تعلم بالأمس أننا أمرنا بإحراق جميع الكتب التي ملأت مكتبة الإسكندرية، وقد بلغت آلاف المجلدات وشملت علوم الطب والهندسة والحكمة والفلسفة والمسائل الطبيعية، لأن ما تحويه لا يخرج عن أمرين، إما أن يخالف القرآن فيكون كفرا، وإنما أن يوافقه فلا حاجة لنا به، ولعلك تعرف أن هذه السحابة العظيمة التي سألت عنها إنما هي الدخان الذي تسببت فيه حرق الكتب".

أظهر العلامة البيومي خبيئة القصة المدلسة، وغرض كاتبها منها، حينما أراد أن يعطي مدلولا قويًا على أن خليفة المسلمين حرب على العلم والمعرفة، وأنه أحرق مكتبة الإسكندرية، ليحول بين الناس وبين العلم والمعرفة والحقيقة، مفضلا أن يعيشوا في غياهب الجهالات.

وذكر أن الكاتب لم يأت بجديد، فهذه التهمة أوردها كثير من المستشرقين الذين وجدوا مَن رد فريتهم وأبطل تهمتهم، ولكن الجديد الذي أتى به، أنه لم يذكر أكذوبته في

بحث علمي مُغرض، وإنما ذكرها في قصة أدبية، تمكنه من حرية التصرف الكبير دون مؤاخذة، فليس له أن يتقيد بالنص الشائع أو الحقيقة من عدمها، بل له أن يزيد بما يسمح له خياله المتفنن في التصوير والإيحاء!

وإذا كان جمهور القراء الإنجليز لا يعرفون شيئا عن حقيقة تاريخ عمر، وشغف الإسلام بالمعرفة، فإنهم سيقابلون الأسطورة بالتصديق، وكثير من ذوي الهوى والغرض سيعملون على ترويجها وترجمتها لتؤدي دورها التبشيري في سهولة تامة، فالكاتب عندهم قَصاص لا مبشر، وما شهد إلا بما علم.

كما أن عمر لم يذهب إلى الإسكندرية، ولكن الخيال سمح لصاحبنا أن يشتط فيقيمه في الإسكندرية، ليقوم على إحراق المكتبة بنفسه، وذكر البيومي قوله: "ولا أدري لماذا لم يشتط به الخيال مرة ثالثة لينسب الحريق المزعوم إلى رسول الله ليكون أوقع وأروع!!"[1] ودعا ذوي الغيرة من المسلمين بملاحقة هذا النمط الأدبي وترجمته والرد عليه، وكتابة ما يدل على افترائه في هوامشه، حتى يكون القارئ على دراية بكل شيء، فلا تضره هذه الأكاذيب التي تدثرت بالأدب والفن القصصي والرمزية.

ويتعجب من هؤلاء الذين يروجون مثل هذه الأكذوبة ولا يبكون على تراث المسلمين العظيم الذي أحرقه ودمره نصارى الأندلس، حيث أحرقت عشرات المكتبات في أغلب المدن الإسبانية، وماذا تكون مكتبة الإسكندرية التي يتباكون عليها أمام التراث العلمي في مكتبات الأندلس؟

[1] - في ميزان الإسلام ج2 د- محمد رجب البيومي

نعم فبعد سقوط الأندلس أمرت السلطات الإسبانية الجديدة -عبر التهديد والوعيد ومحاكم التفتيش- السكان المسلمين بتسليم ما لديهم من الكتب والمخطوطات، وأن عملية جمع الكتب استمرت 7 سنوات، وبعد ذلك أُحرقت الكتب والمخطوطات التي تم جمعها في غرناطة في منطقة باب الرملة، وقَدر كثير من الدارسين الغربيين ما تمّ إحراقه ذلك اليوم بمليون مخطوطة، ذكر ذلك المؤرخ الدكتور عبد الرحمن الحجي، ولكننا الآن وبعد كلام الحجي والبيومي، نسوق اعترافات الغربيين أنفسهم ممن جسدوا ووصفوا هول المهزلة الحضارية.

فالباحث والكاتب الغربي ريتشارد أوفندن - مدير مكتبات البودليان الشهيرة في أكسفورد والمسؤول الـ25 الذي يشغل المنصب التنفيذي الأول في مكتبة جامعة أكسفورد منذ عام 1987م- كان له مؤلف ثمين سجل فيه هذه الجرائم البشعة للنصارى الإسبان ضد العلم والمعرفة وسمى هذا الكتاب (إحراق الكتب: تاريخ الهجوم على المعرفة) - الصادر حديثا بنسخته العربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون- حيث يروي فيه أنه كان هناك أكثر من 70 مكتبة في إسبانيا الإسلامية، ولم يعرف العالم أمة أحرقت كتب غيرها من الأمم أكثر من إسبانيا.[1]

وأبدت المستعربة الإسبانية الدكتورة كارمن رويث برافو تحسرها على فقدان تلك المعرفة، وتقول: "إن ذلك أثّر في ذاكرتنا وتجربتنا الجماعية تأثيرَ المأساة والفقدان".

[1] - من مقالة للكاتب عبد الرحمن الهلوش تحت عنوان حرائق مخازن المعرفة على مر العصور.. بموقع الجزيرة نت

وتضيف "تمّ إحراق كتب عربية في غرناطة من قِبل الضباط في الجيش المنتصر على المملكة الأندلسية في 1492م، وما يزيد على خطورة العملية ومأساويتها أنها تمت بعد توقيع اتفاقية وعدت باحترام حقوق الغرناطيين الدينية والثقافية".

وتابعت "نعرف أنَّ كثير من الكتب النفيسة النادرة العربية الأندلسية أُرسلت إلى الخارج وبيعت، كما بقي بعضها في المكتبات المؤسساتية الرسمية، كمستشفى غرناطة الملكي، أو في مكتبات خاصة لأشخاص ذوي مكانة وقوة وثقافة نهضوية"[1]

وبينت كارمن برافو في -تصريحها للجزيرة نت- أنه "مع مرور الزمن تبنّى حكام إسبانيا نمطًا من الثقافة السلطوية ازداد استبدادًا ومبالغة في الوحدوية، إلى حد أنهم منعوا استعمال اللغة العربية، كما منعوا امتلاك الكتب أو المخطوطات المكتوبة بها.. وبقيت الثقافة الإسبانية على هذه الحالة إلى بداية القرن الـ18"

وبدوره، يؤكد المستعرب فيراندو فروتوس - للجزيرة نت- أنه من المعروف أن الكاردينال سيسنيروس الإسباني -وهو أمين سر الملكة إيزابيلا- أمر في عام 1500م بإحراق ما يزيد على 4 آلاف مخطوطة عربية ذات طبيعة دينية وتاريخية وشعرية محفوظة في غرناطة، ولم يستثنِ منها سوى ما يتعلق بعلوم الطب.

وأريد أن أسجل من هنا أن الغرب الذي يتهمنا اليوم بأننا أعداء الحضارة، إذا نظر إلى تاريخه وتجنيه على مصادر المعرفة، لعرف أنه العدو الحقيقي للحضارة الزاهية، وأن هذه

1 - المصدر السابق

الأمة التي يتجنى على تاريخها بالتشويه، كان تاريخًا لامعا مدهشًا قدم الكثير والكثير للإنسانية، ولكنهم قابلوه بالجرائم التي يتناسونها اليوم.

ممن يؤخذ العلم؟

من المدهش في الأقسام الإسلامية في الجامعات الغربية، أنها تعتمد بعض الكتب التي تغص بالشبهات، وتجعل منها مراجع أصيلة في فهم الإسلام، وتكوين الفكرة الثابتة عنه في أذهان دارسيه، ولعل هذا ما حدث مع كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، حيث ترجم إلى عدة لغات وكثرت حوله صيحات التأييد والإعجاب والإشادة من أناس لا يعرفون شيئًا عن الإسلام في مسائل الحكم، وإن عرف بعضهم لا يسمح بإعلان الصحيح ليظل ما يخالفه هو الوجهة المقصودة والمعتبرة.

فأحد الكتاب في الميدان الإسلامي، من رجال القانون فيقول: " ولعل مما يضحك كثيراً أن مستشاراً من رجال القانون في مصر، قد كتب مؤلفاً ينحو منحى الأستاذ علي عبد الرازق في دعاويه البعيدة، وتقدم به إلى جامعة أو جامعتين في أمريكا، فصادف القبول، ودعا صاحب الكتاب أستاذاً زائراً يلقي عدة محاضرات، فعد ذلك موضع المباهاة، وكتب في جريدة (الأخبار) يفتخر بتدريس كتابه هناك، وأنه لذلك حق لا شك فيه!! ناسياً أن مقرظي الكتاب من كبار خصوم الإسلام، ولو عقل قليلا، لعلم أن شهادتهم تحسب عليه لا له! ولكنه الخذلان والعياذ بالله"[1]

ويوجه البيومي سؤاله لهذا الغافل عن حقيقة المصدر والمرجع المعتبر الذي يستقي منه الإسلام فيقول له: "هل رجعت إلى فقهاء الإسلام الأثبات من أمثال: محمد الخضر

[1] - في ميزان الإسلام ج1 د. محمد رجب البيومي

حسين، ومحمود شلتوت، ومحمد أبي زهرة، وأبي الحسن الندوي، ومحمد الغزالي فشهدوا لك شهادة تكون موضع الإعزاز؟

ومن الطبيعي أن يصمت عن الرد، لأن جوابه الصادق هو أني رجعت إلى تلاميذ الفاتيكان!! رجعت إليهم في أصل من أصول الإسلام، فاغتبطوا إذ نطقت بما يودون أن يقولوه!"

ثم يلوح بهؤلاء الزمرة التي تقولت بمثل هذه الدعاوى، من أمثال محمود عزمي، وسلامة موسى، ومحمد صلاح الدين، ومحمد عبد الله عنان، ومصطفى مرعي، قالوا هذا الكلام الذي نطق به كتاب الإسلام وأصول الحكم، من ضرورة فصل الدين عن السياسة، دون أن يدرسوا وجه الرأي في قوانين الإسلام، والتي أصبحت سهلة ميسورة، بعدما كتب فيها الأعلام أمثال عبد الرازق السنهوري، وعبد الوهاب خلاف، ومحمد بخيت المطيعي، ومحمد الخضر حسين، وأبو زهرة، وضياء الدين الريس، مما يبدد هذه الشبهات التي تقوَّلها المرجفون، وتقود التائهين من الضلال إلى الهداية.

فهل رجع أصحاب هذا الزيف إلى هؤلاء الكبار، أو هل ردوا عليهم نقدهم الكاسح لآراء علي عبد الرازق، دون أن يلتفتوا إلى ما خالفها من آراء أبطلت حجته وأفنت كلامه؟!

وفي كلام مثير يكشف اللثام والحقيقة عن أكذوبة كتاب الإسلام وأصول الحكم الذي يحتفي به العلمانيون، ويصرون على إعادة طبعة وترويجه مرات ومرات، ثم يورد

المفاجأة المذهلة التي لم يكن يعلمها أحد، ولم يذكرها المعجبون بالكتاب، وإن علموا بها فإنهم يحاولون إخفاءها والتعمية عنها.

تحدث في كتابه قضايا إسلامية عن لقاء جمعه بالشيخ علي عبد الرازق نفى فيه ما ذكر في الكتاب المشار إليه، وأنه نشر تقريرا جديدا في مقال له في جريدة رسالة الإسلام العدد الثالث من السنة الثالثة يوليه 1951م نفى فيه أن يكون الإسلام ديناً روحانياً فقط لا علاقة له بالتشريع والدولة، وأنه رفض هذا الرأي رفضاً باتا، ويقر البيومي أن رأيه بمجلة رسالة الإسلام قد عصف بما كان في كتابه، لكنه سجل عليه أن اعترافه وتراجعه كان يجب أن يكون صريحا دون أن يلف تراجعه في أقنعة تكشف عما تستر، ثم يواجه البيومي من يتصايحون بالكتاب وصاحبه في هذه القضية فيقول: "ولعل الذين يتخذونه سيفا يضربون به أهل الحق يستمعون فيدركون".[1]

إنه ينكر متعجبا حال من يتجرؤون على الحديث عن الدين دون تعمق في أصوله وفهم أسراره، فتراهم يتظاهرون بالتقدم، ويهتفون بالتجديد ولا هَم لهم إلا أن يكتبوا عن الإسلام بما ليس فيه دون دراسة حقائق التشريع دراسة منهجية، ويلفقون بعض الآيات دون فهمها على وجهها الصحيح، وتنتف من الأحاديث نتفا طائرًا لا يقف وقفة المتأمل.

ويروي من خلال خبرته بهذه النماذج أن في نفوسهم كبرياء تدفعهم إلى الترفع والإعراض إذا وُوجهوا بالتصحيح فيعز عليهم أن تُكشف أخطاؤهم بلسان الحق، فيقومون بمغالبة لتصويب الكاشف باللغط المُسف، ويرى أن ذلك يرجع إلى شياطينهم

1 - قضايا إسلامية ج2 د- محمد رجب البيومي

المستترة التي تقودهم للباطل وتمدهم بمغريات الحياة المادية والمعنوية، وهو السراب لدى من يزن الناس وزنا صحيحا، فيعرف من يمشي مكبًا على وجهه، ومن يتتبع السنن القويم.

لقد دائم التصدي للمفتريات التي توجه إلى الإسلام، ولم يكن من هؤلاء الذين يكتفون باللوم والتأنيب فقط، وإنما سارع ليكتب ويرد على أصحاب هذه الأغاليط، فقدم فصولا هادفة، تعرض لكثير من هذه المفتريات، لكشف عوارها، وفضح من يتحدث عن الشريعة الإسلامية والحكم الإلهي والخلافة الراشدة دون علم ولا معرفة للصواب من الخطأ، كما بين أهواءهم من فهم النصوص القرآنية على غير وجهها، وإنكارهم لأثر الدين في تربية المسلم وصلاح المجتمع، ورد على من يضعون المرأة الإسلامية في غير موضعها التشريعي، ومن يقفون من البعث الأخروي موقف الشاك المرتاب، وغيرها من هذه الأمثلة ذات الشد والجذب بما يجلي الحقيقة ويمحص الصواب، لتسفر عن وجهها المثير.

ولعل من أبرز أسفاره التي تناول فيها هذه الملاحم كتب (قضايا إسلامية، وفي ميزان الإسلام، ومن منطلق إسلامي) وقد ضمت كثيرا من مقالاته في مواجهة هذه الفئات المخادعة، التي تحركها الأهواء والأغراض بعيدا عن الحق والصواب.

ورأى رحمه الله ضرورة أن تسجل هذه المقالات في كتاب يجمعها ليضمن لها البقاء والوجود، لأن المقالات قد تضيع وتفقد مغزاها بمرور مناسبتها، فسارع إلى حشدها لتظل صوتا صارخًا في آذان المرتابين الجاحدين، ترد أكاذيبهم وتدحض مفترياتهم.

وكان في قمة غضبه وهو ندد بالصحافة المغرضة، التي تبذل جهدها الجاهد في معارضة الاتجاه الجماهيري الذي يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية، ولم تستطع هذه الصحف أن تجهر بذلك صراحة، ولكنها لجأت إلى لنفاق الخادع، حينما أفسحت صفحاتها لأقلام لا تعرف شيئا عن الإسلام، لتتحدث عن الشريعة الإسلامية، فيوم ما نشرت صحيفة الأهرام حلقات متتابعة لأستاذ في الفلسفة يتحدث عن الشريعة الإسلامية، والرجل لم يحترم تخصصه ويقف عند حدوده، وزعم في نفسه أنه مفكر كبير، وقد صادف هذا الكلام هوى الجريدة والقائمين عليها وقتذاك.

أخذ هذا الكاتب يهرف بما لا يعرف، فقال فيما كتب: إن المناداة بتطبيق الشريعة الإسلامية أمر مستورد وفد أخيرا على الأمة المصرية دون أن تكون له جذور في أرضها. وأعقب البيومي هذا الكلام المخلول بقوله: فيا الله للأمة المصرية المسلمة، تظل منذ عهد عمرو بن العاص إلى عهد الخديوي إسماعيل، تظل أكثر من ألف ومائتي عام لا تعرف غير شرع الله، وتجاهد الاستعمار عقودا طويلة في محاولته إقصاء الشريعة، وتؤلف الجمعيات وتعقد الندوات وتقام المظاهرات مطالبة بتطبيق شرع الله، وفي خضم هذا كله يأتي هذا الكاتب ليقول: إن القرآن أمر مستورد لا تعرفه مصر المسلمة؟!

ووجه سؤاله للكاتب مستهجنا: فيقول: "أسأل الكاتب هل يكون القرآن بالنسبة إلى الأمة المصرية كتاباً مستورداً طرأ عليها منذ عشرة أعوام، وكانت من قبله لا تعرف المصحف ولا تدين بالإسلام! ويكون القانون الأوروبي هو الأصل الأصيل لأهوائها المؤمنة، وأشواقها الظامئة إلى الإصلاح! وإذا قال ذلك أستاذ أجنبي من ذوي الاستشراق،

أما يخجل من قومه في أوربا إذا افترى أمامهم الكذب الصريح! فكيف يجرؤ جامعي نشأ في مصر، وتعلم وعلم في مصر، أن يزعم أن التجاء الشعب المسلم إلى حكم الله أمر مستورد! أما قانون أوربا فهو الأصل الثابت على مدى الأحقاب! وإذا قال ذلك من فسحت له الأهرام صدرها ليوالي النشر المتتابع، فأين يكون مكانه من الحقيقة؟ وأين تكون منزلة الأهرام وقد رحبت بالإفك الصريح، وحرصت على نشره مهما خالف الحقيقة ومهما أغضب القراء!"[1]

شيء معيب أن يتصدر للعلم من ليس أهلا له، وليس من أرباب تخصصه، فلا شك أن ما يقوله ويبنيه، سيأتي بكثير من الخطأ والضلال، وليست المصيبة في كثير من الأحيان فيمن يفتي دون علم، فيهرف بما لا يعرف، ولكن المصاب الجلل، يكمن فيمن يصفقون له، ويباركون خطأه، فيتمادى في غيه، ويوغل في ضلاله.

وهذا تمامًا ما حدث مع الشيخ محمود أبو رية حينما ألف كتابه أضواء على السنة النبوية، والذي بُني على الفهم الخاطئ والروايات الدخيلة، ولقد تعرض البيومي للكتاب وشبهاته وما أحدثه من ضجة زائفة، لم يكن السبب فيها ما قدم من رؤى غريبة بقدر ما كان السبب فيها تهليل من يسرهم أن يروا كاتبًا يطعن في السنة الشريفة.

كان مبتدأ الكتاب مجرد مقالة واحدة كتبها كبذرة مبدئية لأخطائه، فتلقفها أناس تُثير الريب حول السنة المطهرة، فشجعوه وباركوا صنيعه، ويخدعونه بأنه مجتهد كبير والرجل مسكين بحسب تعبير الدكتور البيومي في كتابه رحلة في المكتبة العصرية، ولا

[1] - من منطلق إسلامي ج2 د- محمد رجب البيومي

يمت للعلم بنسب أصيل، فهو يقرأ كلمة من هنا وأخرى من هناك، ويبحث عما يخدم وجهة نظره الضالة، ليقيم عليها بناء يرضي رغبات مشجعيه، يحدث هذا في الوقت الذي لم يتلق فيه دراسة علمية متخصصة تساعده على البحث، خاصة علم الحديث الذي خاض فيه بجهل مريع، بسبب التشجيع المحرض من أصحاب الهوى، الذي ظنهم أبو رية من أصحاب الفكر والرأي، وهم أبعد ما يكونون عن فهم دقائق هذا العلم وفنونه، وكلهم لا تؤهلهم ثقافاتهم أن يحكموا على ما كتب الرجل أو يبدوا فيه رأيهم، فهم كذلك المهندس الذي يحكم على كتاب طبي والاقتصادي الذي يحكم على كتاب هندسي.

ولم يكن توجيه اللوم من الدكتور البيومي لأمثال هؤلاء الكتاب المنحرفين فكريًا من المتحاملين على السنة وحدهم، بقدر ما كان لومه الشديد للشيخ الباقوري ذاته، حينما أطرى ومدح الكتاب، وعد صاحبه باحثًا ممتازًا غيورًا.

ويشير إلى أن أبا رية خاض علمًا لا يعرف فيه شيئًا ولا يتقنه، وأذه منهجه يقوم على اصطياد ما يدعم وجهات نظر خائبة مما قاله المستشرقون، الذين أعلنوا منهجية الشك في السنة النبوية، واعتمدوا جهلا منهم على روايات مغلوطة وكاذبة، ومما يدهش أنه رمى الأحاديث الصحيحة واتهمها بالضعف، وراح يستدل عليها بأحاديث ضعيفة، لأنه توائم أهواءه الضالة.

لم يصمت البيومي كمفكر إسلامي كبير أمام هذا الهزل الذي يتقول به المشككون في السنة النبوية، وتصفيقهم لهذا الكتاب الذي يتملكه الإجحاف والهوى، فقد نقل صاحبه

أقوالا بترها بترًا، وترك منها ما لا يعضده وأثبت ما يؤيده، وأمام هذا الغثاء وقف المؤيدون له والمشيعون لبهتانه، وهم يرون الردود العلمية الرصينة التي قام بها زمرة من المفكرين والعلماء، ولكنهم لم يأبهوا بها، ولم يبحثوا عن الحقيقة، لأنهم يلحدون في القول النبوي.

وسخر من أبي رية حينما طار فرحًا بمقولة المستشرق جولد زيهر، من أن المحدثين عبر التاريخ اهتموا بدراسة السند، ولم يهتموا بدراسة المتن، وجعل هذه الكلمة مفتاح كتابه ورؤاه ومنهجه، فيقول البيومي: "ويا له من باحث يرى شروح البخاري ومسلم وغيرهما والتي تتجاوز المائة مؤلف وكلها تحقيق وشرح للمتن، وتدقيق لكل كلمة وحرف من حروف الحديث،[1] ثم يتحدث في صراحة بأن صاحب الأضواء يقتطع النصوص، ويتعمد إغفال أهم بحث في رواية الحديث، لتستقيم له دعوى التهجم على السنة، وقد انتقل الأمر من البحث العلمي إلى السلوك الخلقي النزيه، وانتقل التهجم من الرواة إلى الصحابة، وقد نال أبو هريرة رضي الله عنه من سباب صاحب الكتاب قسطًا كبيرًا وافتراء عظيما يعرف فيه موضع الغلو وغايته، لقد وصل النيل إلى حد الشتائم المنكرة.

ومن المضحك والمثبت بقوة لطبيعة هذا المؤلف من افتراء الكذب، ما فعله في مقدمة الدكتور طه حسين لكتابه، فقط طلب من الدكتور طه كتابة مقدمة، وبروح الناقد تكلم الدكتور طه عن الكتاب، وانتقده في أشياء، فإذا بالمؤلف يحذف النصف من المقدمة الذي فيه النقد والمآخذ، وينشر الجزء الأول الذي يتناول أمر الكتاب ببعض الحديث المتوازن، وهنا كانت لفتة البيومي القاصمة، حينما قال: ولذلك لا أستغرب على رجل حذف كلام

1 - رحلة في المكتبة العصرية- د. محمد رجب البيومي

طه حسين، أن يحذف كلام من نصوص القدماء، ليمضي في وجهته التي ارتسمها لنقد رواة الحديث، ولقد ذكر الدكتور طه نقائص كثيرة في الكتاب، فإذا كان مثله يتوصل إليه، فكيف بالمتخصصين من علماء الحديث الذين عرفوا من أخطاء الكاتب ما تجاوز الجهل إلى الاستخفاف والرعونة.

لقد كانت معركة البيومي في نقده لهذا الكتاب قبل أن تكون مع أبي رية، فإنها كانت مع الكتاب والصحفيين، ومن يسمون أنفسهم كتابًا ممن شجعوه وزينوا له طريق الباطل، فكانت أشبه بمعركة فكرية أدلى فيها البيومي بما أظهر دلائل الحقيقة.

الإنسانية الزائفة

تحت عنوان (أهذه إنسانية؟) كشف العلامة البيومي رحمه الله حال المنبهرين بالتطور الصناعي الأوروبي، حينما ظنوا أن هذا التقدم، هو أكبر دليل على السمو الإنساني! فالكتاب التغريبيون يتغنون دومًا بالحضارة الأوروبية، لأنها قبلتهم وطموحهم الذي يدعون له، ويتمنون نموذجها في أوطانهم، وكان سبب هذا الولع هو امتنانهم وانخداعهم بالتقدم الصناعي والعلمي الذي شهدته أوروبا، فظنوا أن المخترعات الآلية أكبر دليل على السمو الإنساني هناك، مما حدا بفريق من الكتاب العرب إلى تمجيد الغرب وحضارته، مع الإشارة إلى ما وصل إليه الشرق من تخلف وتراجع، فإذا ما قام من يذكرهم بوحشية الغرب ولصوصيته واستعماره واحتلاله للبلدان وقتله للأبرياء والآمنين، تجد لديهم من التبريرات والحجج التي يرفعون بها الإدانة عنه، بل يختلقون الحيل الزائفة لتبرئة الغرب والتماس العذر له.

وأمام هذا الإنكار عمد الدكتور رحمه الله، إلى الإشارة التي تُحرج المتغربين وتحبط دفاعاتهم العمياء عن طبيعة الغرب والغربيين التي تجردت من كل معالم الإنسانية.

كانت مواجهة البيومي قد انطلقت من مجرد التعليق على خبر يسير نشرته الصحف، وهو وإن كان يسيرًا، إلا أن له مدلوله الكبير والخطير في دحض هذه الدعاوى التي تسربلت بذيول الإنسانية وهي منها براء.

يقول رحمه الله: "قرأت اليوم خبرًا عجبًا لبثت أمدًا طويلا أفكر في مدلوله وأقلبه ذات اليمين والشمال، فلا أجد غير خزي فاضح، يوصم من يتحدث عنه، إذ نشرت الجرائد اليومية في يوم الغذاء العالمي، أن أوروبا تعدم مليون طن من الفواكه والخضروات، محافظة على السعر المرتفع، ليربح تجارها حين تقل السلعة ويشتد الطلب، وقد تكلفت عملية الإعدام في هذا العام (250) مليونا من المارك الألماني".

كان هذا هو الخبر الذي قرأه، يعكس حجم المأساة الإنسانية والانتكاسة البشرية التي يحيا فيها الغرب.

ويقول رحمه الله: "ماذا تقول في قوم يدعون لأنفسهم قيادة الشعوب إلى الحضارة الزاهرة، والمدنية الراقية، وهم يسمعون عن المجاعات تطحن بعض الدول في آسيا وإفريقيا، دون أن يفكروا مدى لحظة في غوث اللهيف، وشبع الجائع، بل ربما أفرحهم ما يسمعون عن انتشار المجاعات، لأنها ستجعل الطلب ملحًا، والإقبال على السلعة متزايدًا، والعجب أن هذا الخبر دون أول ما دون في الجرائد الألمانية، وقرأه وأقره شعب كان يزعم لنفسه السيادة على الشعوب، ويرى جنسه أشرف الأجناس، وقد ساقه هذا الزعم المتغطرس إلى حربين عالميتين، أهلكت الحرب الأولى ثمانية ملايين من الأرواح، وأبادت الثانية ثلاثة عشر مليونًا! غير ما هدمت من المنازل ودمرت المتاجر وشوهت الأجسام، ويتمت الأطفال، ورُملت الزوجات، وفجعت من الثواكل، حتى إذا تصرم أربعون عامًا

على هذه الأهوال، استطاع الألمان أن يستأنفوا كفاحهم الاقتصادي، وكان إعدامهم الفواكه والخضروات إحدى وسائلهم للربح الجشع والاستنزاف المبيد"[1]

كان هذا الكلام بمنزلة صفعة مزلزلة على أقفية التغريبيين الذين يتشدقون بالحضارة الغربية، والادعاء الكاذب بإنسانيتها وسموها البشري، وهي شواهد لا يبررها أو يدافع عنها إلا كل مغالط مخادع لنفسه، وليست هذه الشواهد والأخبار فيها شبهة يسيرة ضد الإنسانية، ولكنها شواهد ضخمة تبرر أن القوم مجردون من معاني الإنسانية حينما يعيشون في هذا الكون وهم لا يشعرون بمحن الإنسان وآلامه.

وعلة هذه المجتمعات في نظره، فإن نظرتها أنانية للحياة، بل ترى هذه الحياة أشبه بغابة ينتصر فيها القوي وحده، وأغفلت في ذات الوقت أن بشرًا آخرين يعيشون معهم على وجه البسيطة، وهذا لا شك يرجع لخلو حياتهم من دين يحث على الرحمة والرفق بين الناس، ويمنع هذه الجرائم التي اقترفوها في حق الإنسانية

وفي خضم هذه الأدلة المدينة للحضارة الغربية، سجل أمام المولعين بها روعة الإسلام وشريعته التي دفعت أبناءها للتراحم والتواد، فلم يقتصر التراحم فيها على المسلمين وحدهم، بل امتدت به الشريعة إلى الناس جميعا، لأنهم من أب واحد وأم واحدة، فلا يتعالى المسلم على غيره بجنس أو عنصرية.

[1] - قضايا إسلامية ج2 د. محمد رجب البيومي

ولم يكن هذا حال ألمانيا وحدها بحيث تكون دليلا فريدا أو حالة عابرة حاول البيومي أن يتشبث بها ليلجم مُحاججيه، فذكر عن أمريكا منذ زمن غير يسير أنها "غمرت خليج الخنازير بآلاف الأطنان من القمح كيلا يتأثر السعر نازلًا ويظل في ارتفاع يرهق الجيب"[1]

كما كانت هناك مساجلة وحوار بين كاتبيْن كبيرين حول هذه القضية الأول منهما هو الدكتور أحمد أمين الذي أدان الغرب، والثاني هو الدكتور زكي نجيب محمود الذي دافع عن الغرب.

ذكر أمين في بعض ما كتب: "إن المدنية الغربية خلقت قلق الناس واضطرابهم وسوء معيشتهم إذ كان تاجها الأول الأسلحة والمدافع والقنبلة الذرية، ولو قارنا بين مدنية إسلامية نتيجتها الأمن والاطمئنان، ومدنية غربية نتيجتها الفزع والرعب، لفضلنا الأولى، إن مزية المدنية الغربية بناء الحياة على العلم، ومن عيوبها خلوها من الإنسانية، ومن عيوبنا أننا لا نبني حياتنا على العلم وأن فينا مركب النقص الذي يجل المدنية الغربية عن الخطأ".

ولم يعجب هذا الكلام د- زكي نجيب محمود، فكتب يعارض أمين بقوله: "أحقا يا سيدى أن المدنية الغربية قد خلت من الإنسانية، تلك المدنية التي لا يستطيع الإنسان في ظلها أن يفرك زهرة بين أصابعه على مرأى من الناس! ولا أن ينزع البذور عن أمها لأنها بمنزلة الأجنة التي تضمن استمرار الحياة، تلك المدنية التي يستحيل على الإنسان في ظلها

1 - نفس المصدر

أن يوقع الأذى بكلب أو قِط! هل كان يا سيدى لهذا الغرب أن ما أنتج من الفنون لو كان خلوا من الشعور الإنساني! أنصف الغرب يا سيدى !"[1]

وعبر هذا الخلاف الحاد والدفاع العنيف عن الحضارة الغربية، وجد البيومي نفسه مضطرًا للرد على الدكتور زكي نجيب بما هو ملموس من الواقع المؤلم للمدنية الغربية، التي تحترم القط والكلب وباقي الحيوانات، وفي ذات الوقت تضرب أمة من الأمم بالقنابل النووية، فتقضي علي ملايين الأرواح في لحظة واحدة.

وذكّره البيومي بما فعلته المدنية الأوروبية حينما فجرت قنبلة نووية في المحيط الهادي، فقتلت نصف ما به من أسماك وحيوانات وقروش ودرافيل، حتى طفت الجثث على سطح الماء تشكو إلى الله ظلم المدنية المتوحشة.

بل قال: " وإذا كان العطف على الكلب والقط عنوان الإنسانية في نظر الدكتور! فمدنية الإسلام تدعو إلى هذا العطف بقوة، وتلاميذ المدارس الابتدائية يحفظون حديث المرأة التي دخلت النار في قطة حبستها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض! وحديث الرجل الذى رأى كلبا يلهث من العطش فحمل إليه الماء في خفه فغفر الله له! فهل كانت الشفقة بالحيوان غريبة عن مدنية الإسلام حتى يتباهى الدكتور باهتمام الأوروبي بالكلب والقط وبعله رمز الرحمة والإنسانية: لقد آن أن تُعرف الحقيقة دون نكران".[2]

---

[1] - قضايا إسلامية ج1 د- محمد رجب البيومي
[2] - راجع مقاله حوار بين كاتبين- كتاب قضايا إسلامية

وفي حديثه عن المعاني الإنسانية بين الشرق والغرب، ومحاولة بعض الكتاب الذين يهاجمون الإسلام ويفترون عليه لينالوا شهرة لدى السطحيين والمغرضين، تحت دعوى حرية الفكر التي ناصرها حتى ولو ضد دينه، كان حديثه ودفاعه عن الإسلام بالفكر والعلم والتاريخ ما بدد به أراجيف الكاذبين وبين معه ظلمهم للإسلام.

قارن أحدهم يومًا بين مظاهر القسوة والطغيان في التاريخ العالمي، وكان جل همه أن يكيل للإسلام ويبرئ أوروبا، لتكون في رأيه أقل قسوة من الإسلام وأكثر رحمة من دوله في شتى عصوره، وانطلق البيومي يدافع عن الحقيقة، ويرد عن الإسلام كيد المحتالين، فذكر أن أوروبا في تاريخها القديم لا تختلف كثيرًا عن تاريخها الحديث في مسألة القيم الإنسانية، فالثورة الفرنسية لم تطبق ما قامت عليه من مبادئ إلا في أوروبا، بينما انطلقت تستعمر الشعوب وتقهر الأمم، لأنهم في نظرها لا نصيب لهم من هذه الحرية التي ادعتها ونادت بها، وهذا ما جعل شوقي يقول:

دم الأحرار تعرفه فرنسا ** وحررت الشعوب على قناها

وتعرف أَنَّهُ نُورٌ وحَقٌّ ** فكيف على قناها تسترقُ؟

ووجه نقده الأدبي لشوقي في أبياته وذكر بأنه "واهم في قوله: وحررت الشعوب على قناها؛ لأن فرنسا بعد الثورة قد احتلت الشعوب ودكت المدن، وأشعلت النار في أوروبا نفسها بقيادة نابليون ابن الثورة المباهي بأمجادها".[1]

وأطلق سؤاله الذي أحرج المولعين بالغرب وحضارته: في أي عهد وجدت هذه المعاني الإنسانية لدى المتجبرين، أفي عهد الإغريق الذي كانوا يعذبون فيه الأرقاء ظلمًا بأفدح ألوان ووسائل التعذيب والقهر؟! أم تراها وجدت في عهد الرومان الذين كانوا يغيرون على الأمم والمدن الآمنة، فيقتلون الرجال ويبيعون النساء والأطفال، وكانت مشاهد القتل الآثم أعظم حفلات الترفيه لديهم!

وهو يدفعون فيها الوحوش الضارية لتفتك بالأسرى المساكين، فأين تلك المعاني الإنسانية المدعاة؟! حتى كبار الفلاسفة فيهم نادوا باختلاف الطبقات وفرقوا بين السادة والعبيد، متنكرة للمساواة الإنسانية، فأين هي قيم الإنسان؟! كما على أوروبا أن تتذكر بقوة ما حدث حينما ظهرت المسيحية، وما لقيه أتباعها من فظائع التعذيب، وحينما تمكنت المسيحية قام أتباعها بتعذيب المعارضين، وتركوا تعاليمها.

بل ذكر تلك الحروب الملعونة بين البروتستانتية والكاثوليكية، ومباركة البابوات لكل الجرام التي تمت فيها؛ وأبان في الوقت نفسه موقف الإسلام من أهل الكتاب وسماحته معهم، وما كانت شدته على الوثنية إلا لأن معانيها تعادي الإنسانية، وما كانت مواقفه الشديدة من اليهود وغيرهم إلا لعدوانهم وابتدائهم بهذا العدوان فتحرك الإسلام نحوهم

[1] - الشيخ الشعراوي جولة في فكره الموسوعي الفسيح – د. محمد رجب البيومي

من مبدأ الدفاع لا الهجوم، فهل للذين يعقدون مثل هذه الموازنات والمفارقات أن يفيئوا إلى الحق وإلى ضمير سليم؟!

حتى قام القديس أوغسطين بدعوى فاجرة قال فيها: إنه بهذا التعذيب يرحم الضحايا، وينقذهم من العذاب الأبدي يوم القيامة، وتحدث شيخنا عن سلطة البابا والكنيسة التي شرعت لهذا العدوان والافتراء، وذكَّر المفترين على الإسلام بمحاكم التفتيش التي شرحت جرائم الحكام المسيحيين في حق الأبرياء، من مسلمي الأندلس، وهي الفظائع التي لا يقف الحديث عنها إلى حد.

ومما يذكره الدكتور البيومي أن الشيخ الشعراوي[1] قابل البطل الرياضي الشهير محمد علي كلاي، واستمع الشعراوي إلى حديثه عن الاضطهاد العنصري الذي قاسى أهواله قبل أن يصعد إلى القمة، بل إنه زاد شراسة بعد أن أصبح بطل العالم في الملاكمة، لا لشيء إلا لأنه أسود مسلم؛ إذ روى البطل حقائق فاجعة لا يكاد يصدقها العقل؛ لأن أمريكا خدعت العالم الإسلامي بحديثها المتكرر عن الحرية والعدالة، وجعلت تمثال الحرية رمزًا ناطقا بما تزعمه من حيادٍ وتسامح؛ كما أصدرت كتباً كثيرة عن جورج واشنطن بوصفه زعيم الحرية الأول، وواشنطن زعيم الحرية للبيض فقط، أما السود من الزنوج؛ فقد أهدر حقوقهم بما شرع من قوانين ظالمة؛ إذ المعروف تاريخيا أن جورج واشنطن هو أول من حذر البيض من السود فحال دون تقدمهم المبدئي؛ إذ رفض أن ينالوا أي حق.

1 - راجع المصدر السابق

وفي مقال له بعنوان (الدكتور هيكل والأسلوب القرآني) وجه رسالة كاشفة للمتغربين وذيول الاستعمار ممن آمنوا بالحضارة الغربية، وهاموا في أمجادها ودعوا الناس إليها، فكانت حديثة عن شهادة شاهد من أهلها، ورجل هو من تلامذتها ودعاتها، الذي أعلن أوبته وتحوله وإنصافه لحضارته وهويته، بعدما تبين له زيف الدعاوى الغربية، وسقوط الحضارة الغربية، فكتب عن تلك الرجعة الفكرية المدهشة للدكتور هيكل، وبين كيف أدرك الرجل بصيص النور الذي فجر إيمانه بتراثه وحضارته.

كان (محمد حسين هيكل) أديبًا ومفكرًا من أعظم مفكريها المعتبرين، ولقد كان هيكل واحدًا من الأدباء والمفكرين الذين كانت لهم رجعة وأوبة إسلامية، وأعلن ذلك في كتاباته الإسلامية الرصينة التي إن دلت فإنما تدل على رجل ذاب هياما في تاريخ أمته وعظمة رموزها، فكانت مؤلفاته الإسلامية المعروفة.

لقد سافر هيكل إلى فرنسا وتلقى مبادئ الحضارة الأوربية ودرس القانون وطالع آثار أدبائها ومفكريها الكبار، فتشرب روح هذه الحضارة تشربا متغلغلا يصل كما قال البيومي: إلى حد النخاع الرقيق في تركيبه العضوي، وعاد إلى مصر ليعلن مع زمرة من زملائه إيمانهم المطلق بهذه الحضارة، وأنها سبيل الخلاص ومعجزة الإنقاذ.

وفجأة تقوم الحرب العالمية الثانية، وتنتكس الحضارة الأوروبية في عين عشاقها وربائبها، حين رأوها بين عشية وضحاها تتحول إلى غابة موحشة تعج بوحوش لا إنسانية لهم، تهلك الحرث والنسل وتصب لهيب مدافعها على الأبرياء والآمنين، فخربت الدور

ودمرت المدن، وخلفت وراءها صراخ الثكالى والأيتام والأرامل، ودماء وأشلاء أدمت الأرض في كل مكان.

أفاق هيكل على هذا الزلزال الذي بدد أكذوبة الحضارة الغربية، فماذا يفعل وما المبادئ التي يجب أن تحل في إيمانه بعدما انكشف له فساد إيمانه القديم؟!

"توجه هيكل باشا إلى الدعوة للحضارة الفرعونية وإيقاظ مجدها فكتب مقالات تشيد بالفرعونية، وتعدها صيحة البعث المرتقب، ثم نظر هيكل إلى منحاه الجديد، فوجد المصريين قد قطعوا أسبابهم بتراث الفراعنة وآمنوا بحضارة الإسلام، وبأن عظماء الإسلام ورموزه الكبار صاروا في أعينهم ويقينهم، من رميم مدفون في الأهرامات والكرنك ومقابر القدماء، فاء إلى رشده، ولبى في روعه صوت الحق الذي يناديه، فتوجه إلى الحضارة الإسلامية، موقنا أنها الوجهة الصحيحة التي يمكن لها أن تؤدي رسالتها في بعث الضمير والروح والعزة والمجد، وقال بعد أن اعتذر عن همه القديم: "لقد رأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو".[1]

[1] - كتاب قضايا إسلامية بتصرف

فرية التفكير الديني

وقف البيومي رحمه الله في وجه الخداع باسم العلم والبحث، وكان لا بد له أن يقف أمام هذا السيل الموار الذي أخذت تقذف به المطابع كل وقت، مما كتبه المغرضون مما يجافي الحق، وحاولوا خداع الناس بالظاهر فيستدلون بالآيات القرآنية على غير وجهها، ويعتمدون على الأحاديث الضعيفة الواهنة، وكذلك يعتمدون على الروايات المضللة من كتب التاريخ، وكأن كل ذلك آثار صحيحة لا شبهة فيها.

فرضت المسؤولية الدينية والعلمية على البيومي أن ينضم مع كتيبة العلماء والنخبة من المفكرين الأصلاء، ليردوا هذه المفتريات، ويصدوا هذا التزييف، فكان لصوته قوة، ولمنطقه صولة، فأخذ يكتب ويدافع ويرد بفقه العالم ووعي المفكر، ومنطق البصير، فكشف الجهالة ورد البهتان، وصد المغرضين، وكان جنديًا من جنود الله الذين نافحوا عن دينه، وزادوا عن حياضه، لقد كان يقول دائما: "إن من المعقول أن نطلب الإنصاف للإسلام من قوم لا يؤمنون به، فندعوهم إلى النظر الصحيح بعيدًا عن التعصب المغرض، أما أن نطلب الإنصاف للإسلام من قوم يدينون به، يتسمون بأسماء المسلمين، فهذا ما يقع موقع الدهشة والاستغراب".[1]

بل كان يستنكر على كثير من الكتاب الذين يتعاملون مع الآراء الواردة من أوروبا، وكأنها الحقائق المسلمة، فلا يرون أخطاءها التي تتعارض مع ما يتبين لهم من الحق، وما

1 - المصدر السابق

يخالفها من البرهان، وتراهم أمام الثقافة الأوروبية وآراء أربابها، كالجثة الهامدة التي لا تعي ولا تفكر وتلغي أي إعمال للعقل والفهم.

فالصوت الأوروبي يردد في روع المتلقين له أن التفكير والتفسير الديني لأي ظاهرة، إنما هو تفكير يُبنى على الوهم والخرافة، ليكون سبيلا ومحاولة لزعزعة الإيمان بالحقائق الدينية، ويأخذ كثير من المسلمين مثل هذا الكلام ويرددونه دون خشية ودون تفكر ودون حرمة، يعارضون دينهم وثقافتهم ومعتقدهم.

وأسف على بعض الكتب المدرسية التي تحمل هذه الأوبئة، والتي من المحزن أن تقدم مثل هذا الكلام للناشئة، فينظرون بريبة لدينهم وفق ما درسوه، واستنكر أن نقتدي بالأوروبيين في هذا الباطل الصريح، ثم تقدم مكتوباتهم إلى عقول غضة لا تملك النقض والتجريح.

ثم انطلق في قوة المفكر البصير، يفند تلك المزاعم التي تصم التفكير الديني بالخرافة، مبينًا براءة الإسلام مما توصل إليه أصحاب هذا الرأي، لأن أصحاب هذا التقسيم الثلاثي، يرون أن مراحل التفكير، بدأت منفصلة لم يتح لها أن تتداخل في تطورها الزمني، فنشأت مبتدئة بالتفكير الديني، ومنتهية بالتفكير الفلسفي، بعد أن مرت بالتفكير العلمي، لكن الإسلام كما ذكر البيومي في معرض هذا التقسيم قد اختلف أمره مع هذه المحطات الثلاث، فنجد دائرته تتسع لتشمل التفكير العلمي والفلسفي معًا دون فواصل زمنية، فالتفكير العلمي الذي لا يتأثر بالأخيلة والمخاوف والرغبات والأوهام، له نصيب

من القرآن يدعو إليه، يجعل المشاهدة دليل التبصر فيها نصدر ونعتقد من آراء وأحكام، فالله تعالى يقول:

(أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)[1]

وقال: (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)[2]

فهذه النصوص وغيرها ما هي إلا فتح لباب التفكير العلمي وتقرير المشاهدة المرئية دليل البحث والنظر، بل هي الحافز الكبير الذي وجه المسلمين إلى البحث العلمي متأثرين بهذه الدفعات القوية، نحو التأمل المدرك، فإذا كان الدين محظورا على من سلكوا دروب التفكير العلمي؛ فإن الإسلام يختلف حين دعا إلى استقلال النظر الفكري، وحذر من أوهام السابقين، فكان التقدم المبهر لعلماء الإسلام، الذين تفوقوا في كل الميادين، مما أشاد به علماء الغرب أنفسهم، وانبنت عليه الحضارة الغربية الحديثة.

بل هو السبق العلمي العظيم في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تنصب المحاكم والاتهامات والإعدامات لصاحب اكتشاف أو نظرية علمية.

---

[1] - سورة ق : 6-11
[2] - سورة الأعراف : 185

لقد انبعث المسلمون وراء ذلك كله في نطاق تفكيرهم الديني الحافز على البحث والنظر الهاتف بالتأمل في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله، فكانت هذه النهضة المباركة وليدة دين حي متوثب يدعو العقول إلى النظر البعيد، مندّدا بمن يغفلون طرق النظر والتدليل.

أما التفكير الفلسفي فقد رد رحمه الله على فرية أصحابه بأنه التفكير الذي يتجاوز البحث في الجزئيات إلى الأمور العامة، التي لا ينالها الإدراك العادي كالخير والشر والخلق والعدم، والروح والمادة والبداية والنهاية، وهي الأمور التي أوجب الإسلام مناقشتها، ودعا إلى التفكير فيها، وقد وجدت هذه القضايا في الإسلام ومصادره، روافدها الدقيقة، حتى يجد الباحث لهذا الدين فلسفة مستقلة، يمدها بالنظر الصائب، ويقيمها بالبرهان الصحيح، يقول تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)[1]

ولفظ الحكمة وإن فسره بعض المفسرين شرحا مغايرًا، إلا أن كل ما قصدوه فيما طرحوه من معايبها، هو اللباب المقصود من الفلسفة في الحديث والقديم، وانتقد البيومي أخطاء أفلاطون نفسه، الذي جعل الناس طبقات في مدينته الفاضلة، وكفر بمبدأ المساواة بين الناس، وهو العقل الفلسفي البارع فكيف بمن دونه وسواه؟

ولم ينكر شيخنا أثر الترجمات الأجنبية في العقل الإسلامي الذي قد وضح أثره في طرق النقد وآداب المناظرة والبحث وقضايا علم الكلام، لكنها مع ذلك كله لا تطمس

[1] - سورة آل عمران: 164

لآلاء الحقائق الإسلامية المنبعثة من أشعة السماء، والتفكير الفلسفي في إطار القرآن والإسلام قد جعله ملاصقا للتفكير الديني، بحيث جعل الدعوة إلى التباعد بينهما وهم مشهود، وإذا كانت بعض الأديان قد وجدت في ذلك إشكالية، فإن الإسلام أمره يختلف في التعامل معهما، لأنه دين العقل، ومن ثم يكون ترديد مثل هذا العبث في بيئة إسلامية خطرًا وجهلًا.

لقد كان دائما يضع يده وفكره وتركيزه على عين الداء الذي أصاب العقول والأفهام تجاه الإسلام، والنظرة العامة إلى الدين، وخاصة فيما يتلقاه المتعلمون والدارسون في جامعاتهم ودراساتهم من مفاهيمه، فكان يذكر: "أن الطالب الجامعي في الدراسات الإنسانية يتلقى الحديث عنها في مذكرات أساتذته، فيفهمها فهما جيدا، ويرى فيها الصواب كله الذي لا شك فيه، ولكنها مذكرات محدودة النظرة، تضم أخطاء ووجهات نظر مهملة لا تظهر الرؤية الشاملة".[1]

وهنا نجد جهره بالحق دون مهابة حين كتب وقرر: "أن أكثر الذين يكتبون في الدراسات الإنسانية، من تربية وعلم اجتماع وعلم نفس وتاريخ وحضارة وأخلاق، قد اقتصرت معلوماتهم الإسلامية على ما تلقوه في المرحلة الثانوية وحدها، فهم لا يعرفون عن حقائق الإسلام إلا ما ألم به طالب المدرسة الثانوية في البلاد العربية، وهو ما لا يسمح بإعطاء فكرة صادقة عن الإسلام، وحينما يذهب إلى الجامعة بهذا المستوى من القشور والسطحية عن دينه ليدرس العلوم الإنسانية كما حذقها أساتذته الذين جعلوا كتب أوروبا

[1] - المرجع السابق

مرجعهم الأوحد، فإذا تفوق وبعث إلى كلية أوروبية ليلتحق بالدراسات العليا ونيل الدكتوراه، فيأخذ ويلم بموضوعه في نطاق أجنبي لا يتصل بالإسلام في شيء، يرجع بعد ذلك ويعين أستاذا بالجامعة ليشرح مادته وفق ما تعلم ودرس دون الاستعانة برأي الإسلام فيما يلقيه، خاصة عن نشأة الدين وآراء رجال الاجتماع فيه بأنه خرافة وأساطير وأوهام ومجرد طقوس وعبادات وصحف وقوانين".[1]

ويؤكد شيخنا للقراء فيما كتب أنه لا يبالغ أو يتهكم، ولكنه يتحدث عن واقع ملموس علمه وعاينه وفق ما رأى من هذه الكتب والمذكرات والدراسات المطروحة في الكتب الجامعية.

1 - المرجع السابق

مخرفون لا مفكرون

كذب وافتراء يقوم به بعض المغرضين الذين إن شئت فقل واجزم بأن أحدهم من سلالة أبي جهل ووارث عناده وجهله ووقاحته وتحديه للحق والوحي.

ولقد تشجع هؤلاء وانجرفوا في تيار تحديهم وجرأتهم، وما دفعهم والله في جرأتهم إلا جهل الناس بدينهم، وقله حميتهم لملتهم، ولو أنهم أبصروا غيرة الناس وعنف انتمائهم لهويتهم، لفكروا ألف مرة ولعملوا لذلك ألف حساب، قبل أن يقترفوا ما هم مقترفون، فهؤلاء المجترئون كالذئاب الخائنة، التي تترقب القطيع، وما أن تلمح سهوة راعيه وغفلته عنه حتى تهجم بأنيابها الغائرة في لحوم شياهه.

ولو أنهم وجدوا الراعي متيقظًا منتصبًا متأهبًا للدفاع والتصدي، لما جالت بخواطرهم هواجس الغدر.

وإن تعجب فعجب مما ترى وتسمع، حين يكون الرجل ملحدًا كافرًا يجادل في آيات الله وينكرها، ويناصبها العداء ويبدي لها البغضاء، ثم بعد ذلك تظهره الفضائيات، وتكتب عنه الصحف، وتستضيفه المنتديات، وحين تريد التعريف به لتنعته بأنه المفكر الإسلامي، أو الباحث في الشؤون الإسلامية، المهم أن يقترن حاله ووضعه وكذبه بالإسلام، ينتسب إليه بأي شكل وبأية صورة، لأن هذا الالتصاق هو مناط الخداع، والتعريف الذي يمكن

من طريقه أن يدخل عقول الكثيرين ويتفكروا فيه ويعتبروا به، ويتبنوا آراءه ويلوكوا أقواله، ومن ثم تتمكن منهم الشبهة التي يريد إحياءها وإثارتها.

ولعله تقليد قديم درج عليه الخبثاء من عقود، فكانوا يجندون بعض الشيوعيين الفاجرين، ويأمرونهم أن يحرفوا تعاليم الإسلام، ويخوضوا في الحق بالباطل، فيتعرضون للقرآن والحديث بغير ما يرمي إليه الله ورسوله، ثم يقدمون هؤلاء المحتالين في منصات الإعلام باسمهم، ويوقعون عليهم باسم مفكر إسلامي أو باحث في الشؤون الإسلامية.

هل تتخيل أن ذلك حدث قديمًا مع الدكتور محمد أحمد خلف الله، وقد عجبت وأنا أراجع اسمه اليوم على جوجل وفي الويكيبيديا فوجدت هذا التعريف (مفكر وكاتب مصري في حركة الحداثية الإسلامية) فأي حداثة وأي فكر لا أعرف ولا أعلم، بل وما أعظم لغة العرب حينما قاربت بين لفظتي الفكر والكفر، فهل ما قدمه خلف الله كفر أم فكر حتى نحكم عليه؟

مما يحزنني أن الشيوعية سقطت منذ عقود، ولكننا للأسف مازلنا نحيا على تراثها وروحها وتوجهاتها وصبيانها الذي يصولون ويجولون إلى اليوم في الساحة الثقافية والأدبية والإعلامية، نفس التهجم ونفس التجني ونفس الجرأة، ونفس الألقاب الخادعة التي تزين بها الفجرة من رجالاتهم، فيخرج فينا ملاحدة نطلق عليهم اسم مفكر إسلامي.

إن بعض المواقع الساقطة تنعت ذلك فتى فجا لا علم له يجادل في آيات الله بالزيف، ويخرج علينا كل يوم بالباطل فيلقب بـ(الباحث والمفكر في الشؤون الإسلامية) ولو أنهم

أنصفوا لكتبوا المجادل والمكابر في الشؤون الإسلامية، ولكنه التزييف على عقول الناس في محاولة خداعهم وإقناعهم بتلك الحماقات التي يرددها هؤلاء، هو نفسه ما عرفناه عنهم من أيام خلف الله وما زالت الكذب يعيد نفسه ويكرر آفاته.

إن من العلمانيين من يحاول أن يظهر المفكرين الذين يستهوونه ويستهويه أفكارهم، أن يؤلف حولهم مسرحية خائبة، وقصة وهمية، يريد بها أن يصورهم أنهم مضطهدون، وأنهم مكبوتون، وأنهم محاصرون، لا يستطيعون التعبير عن آرائهم بحرية، وهو ما فعله فرج فودة في كتابه (قبل السقوط) والذي اختار فيه بعض الأسماء، زعم أن أصحابها أفضل من يتحدثون عن الشريعة الإسلامية، ويجرون الحوار مع المثقفين، ثم يزعم زعما لا أساس له، وهو أن هؤلاء لا يسمح لهم بإبداء الرأي على نطاق واسع، والعجب كل العجب مما قال، وهو يريد أن يؤصل لهذه المسرحية في ذهن القراء حتى يكسب مساحة من التعاطف، لأن كثيرا من الناس قد فهموا واستقر في أوعيتهم، أن العلماء الأحرار والمفكرين المستنورين، محاصرون مكبلون، لأنهم في حقيقتهم أهل الحق، وأصحاب الصواب، وهذا هو اللون والزي الذي أراد خلعه على أصحابه وعلى نفسه من قبل، وكأن الواحد منهم نبي أتى بالحق والبرهان، ووجد من قومه الجهلاء المعاندين كل الصلف والنكران، وهكذا دوما أصحاب الرسالات وأهل الإصلاح، وأصحاب العقول يجدون التكذيب والمعاناة من أقوامهم، وهنا أخذ البيومي يرد على هذه الأوهام التي حاول فودة أن يختلقها ويؤلفها، فقال عن أصحابه الذين زعم أن آراءهم لا تنشر، أنهم شغلوا فراغًا كبيرًا بالصحف والمجلات، وأن المؤلف ما عرفهم إلا لكثرة ما قرأ لهم، مما يوافق هواه الخاص، أما

المناصرون لشرع الله من العلماء والدعاة، فهم الذين وقع عليهم هذا المنع والحظر، الذي حاول الكاتب أن ينسبه لنفسه ولهم، وادعى بأنه قد حيل بينهم وبين ما يكتبون.

ويستشهد بواقعة حدثت فقد كان من هؤلاء المشار إليهم في اختيار فرج فودة، وهو مستشار قد ملأ صفحات جريدة الأخبار اليومية، ذات شهر بمعلومات خاطئة عن شرع الله، ولما حاول المخلصون أن يكتبوا ويردوا، وكان البيومي أحدهم، حجبت جريدة الأخبار مقالاتهم، ولم تنشر لهم، ولولا أن وزير الأوقاف وقتها بحكم منصبه ممن كتبوا ونقدوا هذه المقالات، لتمت مؤامرة منكرة، لإسكات أصوات مؤمنة، شاءت أن تواجه العدوان السافر، وقد ذهب العلامة البيومي والتقى شيخ الأزهر وقتها، الشيخ عبد الرحمن بيصار، ليذكر له موقف جريدة الأخبار، ومنعها لردود العلماء، فأعلن استنكاره لموقف جريدة تعلن الباطل، وتأبى أن تنشر الحق، فتأثر الإمام الأكبر لما سمع واتصل بالمسؤولين هناك، فأخذوا يختلقون الأعذار ويقولون: إنهم نشروا مقالات السيد الوزير في الرد.

يقول شيخنا: "فلو لم يكن صاحب الرد وزيرا لأهمل رأيه، كما أهملت ردود صحيحة لحاجة في نفوس القائمين على النشر، ثم بعد هذا يعلن صاحب (قبل السقوط) أن هؤلاء المختارين لا يجدون المكان الفسيح لنشر أفكارهم، وتعجب البيومي من هذا الزعم العجيب مؤكدا أن من الخطأ الفادح أن يرجع لغير الثقات في فهم شريعة الإسلام، لأن أمثاله يضيق بالمتخصصين من علماء الأزهر وزملائهم الذي ينحون منحاهم في شتى بلاد الإسلام، وأمثالهم من دارسي القانون المدني مقارنا بالقانون السماوي، الذين أثبتوا فضل التشريع الإسلامي على مؤلفات رئيسة شرحت بكليات الحقوق بالجامعات المدنية،

وقررت على الطلاب، وأقل واحد من هؤلاء يعلم من أسرار التشريع، ما لا يعلم معشاره أولئك الذين اختارهم المؤلف في الأفضلية للحديث عن الشريعة، بل لا يبلغون مبلغ تلاميذهم الصغار في هذا المضمار!".[1]

وفي تحديده للفظة المفكر الإسلامي، كان حديثه الكاشف الفاضح حينما أطلقت هذا التعبير في غير محله، وعرف به قوم هم أبعد ما يكونون عنه.

فهذه الصحف العربية صارت تصف بها قوما عرفوا باتجاههم المنحرف عن الجادة، وكأن هذا الانحراف دليلا لكونهم من كبار المفكرين، فترى أغلبهم ينادون بمنكرات وأخطاء لا يقرها الإسلام، ويستشهدون بنصوص زائفة، ولا يحفظون شيئا من كتاب الله، ولا يعرفون السنة النبوية، ولا يطيقون دراسة علوم الأصول والفقه والعقيدة، فيقفون عند نص مبتور أو حادثة تاريخية أو رواية غير صحيحة، لتكون صلب حكمهم، ومع هذا كله يمنحون لقب مفكر إسلامي.

وذكَّر القراء بولاء الذين طالما فرحوا بالأستاذ (خالد محمد خالد) حينما ألف كتابه من هنا نبدأ، وخلعوا عليه هذا اللقب، فلما تاب الرجل وأعلن رجعته، سحبوا منه وجردوه من كل ما منحوه له ونزعوا عنه اللقب الشهير! وسخر من أفكار هؤلاء الأدعياء الذين تمسحوا بهذا اللقب، فحينما يقرأ القارئ ما يكتبون فلا يجد غير ما يضحك من سوء الفهم وضيق الأفق وغرابة الاتجاه، فكم من أناس خدعتهم الصحف بالألقاب فارتاحوا إلى هذا الخداع حينا من الدهر، ثم انجلت الحقيقة عن وجهها الصريح، وأمعن البيومي في

[1] - في ميزان الإسلام ج1- د. محمد رجب البيومي

تحقير هذا النفر حينما ذكر: أن ذوي العلم قد تكون لهم آراء مخالفة، فيقال عنها رأي له وجهته ووجاهته، لكن هؤلاء لا علم لهم، وشاذون في آرائهم يعارضون النصوص الصريحة الواضحة.

لقد حاول الأزهر رد أحد هؤلاء المرجفين، فما كان من أنصاره وشيعته إلا اتهامهم للأزهر بالرجعية والكهنوتية، واتباع ما كانت تسلكه الكنيسة في العصور الوسطى من تكميم الأفواه، وسارع أصحاب الغرض المريض ليعدوه عالما متحررا من أئمة التجديد.

كان ذلك حينما أفتى مجترئ بأن الفطر في رمضان مباح للمسلم متى شعر بأدنى مشقة، وقام الدكتور طه حسين وقتها بالدفاع عنه في مقال يعلن فيه أنه مجتهد، وله الحق حتى أن يخطئ في اجتهاده، ولكن أي اجتهاد لرجل لا يعرف ولم يدرس مسائل التشريع غير ما يدرسه طالب المعهد الثانوي، حتى يكون من ذوي الاجتهاد في أمور لا يحيط بها علما؟!

بل قام أحد هؤلاء كذلك وحينما عاد إلى مصر، ووجد السيارات قد كتب عليها عبارة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فانزعج من المشهد، وأوحى له خياله المريض أن هذا الأمر قد يشعل فتنة طائفية، تكون معها مصر لبنان ثانية، حتى أنه ادعى أن بعض أصحابه أوصاه بأن يكتب عبارة التوحيد حتى تنجيه من استهداف المطرفين، وهو كلام متهافت، دار للأسف على صفحات مجلة المصور وجريدة الأخبار، التي وصفت صاحبها بأنه المفكر الإسلامي، وهو لم يدرس من علوم الإسلام شيئا.

بل كاشفه بحقيقته حينما قال: إن صور المسيح والعذراء توضع في بعض السيارات منذ أعوام طويلة، دون أن تثير شيئا لدى المفكر الإسلامي المزعوم، ولكن الدنيا اسودت في عينه، وعم الخراب الشامل حين نظر فوجد أمامه شعار التوحيد هنا فقط يجب أن تحذر مصر عاقبة لبنان، والفتنة الطائفية!

ويتساءل: عجبا من هو المفكر الإسلامي؟

أيكون ذلك الذي يتمرد على شرع الله، ويجحف نصوص الإسلام، ويمنع حقائق الدين، ويحارب الثوابت، ويكذب النصوص الواضحة؟ أم يكون ذلك الذي يحافظ على نقاء الدين ويبرز روحه الأصيلة، ويجدد المفاهيم والرؤى انطلاقا من هديه وتعاليمه ومصادره؟![1]

لكم تستر تحت مظلة هذه اللفظة كل أفاك أثيم.

وفي كتابه (من منطلق إسلامي) شن شيخنا هجومًا على هذا السعار الذي يتعرض له الدين كعلم من العلوم، حينما أصبح كلأ مباحا لكل من هب ودب للحديث فيه والتجرؤ على ميادينه في الفقه والتشريع، فحينما وجد غير المتخصصين من كتاب المقالة الاجتماعية وأصحاب التعليقات الإذاعية ومحرري الصحف اليومية يفتون في دين الله، ويحملون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على غير مرادها، وحينما يهب المسلم العالم الفقيه لينكر عليهم مؤكدا أن للدين أهله والمتخصصين فيه، اعترضوا على ذلك وقالوا:

[1] - كتاب من منطلق إسلامي ج2 .- د. محمد رجب البيومي

كلنا رجال دين، وهكذا يكون الفهم في الدين بمجرد الانتساب بالاسم، دون أن يكون هناك دراسة ومعرفة ووقوف على الأسس والأسرار والدقائق التي يعيها دارسو الشريعة.

تكرار الشبهات

لماذا تبقى هذه الأراجيف؟

سؤال يفرض نفسه كل وقت وكل حين، حينما نظن أن الحرب التي تقوم على الإسلام، والشبهات التي يُثيرها الملحدون والعلمانيون واليساريون مستجدة مستحدثة، وإن هؤلاء المتقولين أصحاب عقل ومبدعون في طرح هذه الشبهات، وأن عقولهم تفتقت عن إثارتها، وتكبيل الإسلام والمسلمين بها؟!

قد تدهش حينما تعلم أن كل هذه الأراجيف التي يثيرونها، قد قيلت وطرحت منذ أزمان عديدة، وعقود قديمة، وأن العلماء الثقات قد ردوا عليها ردودهم العلمية التي بددتها، وكشفت زيفها وعوارها وخواء أصحابها.

وهنا يبقى العجب، لماذا إذن تعاد مثل هذه الأكاذيب، ويتم ترديدها مرة أخرى؟ ولماذا لا يلتفت المُكررون لها إلى الردود العلمية التي أزهقتها؟ ولماذا لم يناقشوها أو يحاولوا بطلانها؟ يبدو أن المسألة ليست مسألة علمية، وإنما أخلاقية، فنحن هنا في حالة مريبة من مجافاة الحقائق وعدم احترامها.

ذكر شيخنا البيومي أن هذه الحالة هي التي لقيها الشيخ الشعراوي حينما زار كندا، وألقى محاضرته بين الأقلية المسلمة فيها، فأقبل عليه الجمهور إقبالا كبيرًا، "ودارت أحاديث حول ضرورة تمسك المغتربين بالإسلام، وأن يكون المسلم مثلًا مشرفًا للإسلام،

وكان في السامعين من امتلأ ذهنه بترهات المرجفين من أذناب المبشرين، فأخذ يسوق الأسئلة مع نفر من زملائه، وكان الشيخ واسع الصدر كعادته، يقابل كل سؤال بالابتسام، وكأنه يشجع كل معترض على السؤال، فلا يبقى في صدره هاجس، ودار السؤال والجواب عن الرق في الإسلام، وحقوق المرأة، وتعدد الزوجات، وهي أمور قابلت الشيخ في كل بلد غربي يذهب إليه، مما يدل على أن صحف التبشير قد وجدت النفاذ المنتشر بين الأوروبيين والأمريكان معا، وقد عجب الشعراوي لِمَا سمع من أراجيف ترددت منذ قرن، وقام كبار العلماء بالرد عليها ردا حاسما، ثم تساءل: لماذا تبقى هذه الأراجيف؟ وقد ثبتت بطلانها بأدلة لا تُدفع؟"[1]

وهؤلاء الناس في رؤيته لا يحترمون الحقائق العلمية، والذي لو كان موجودًا لتركوا الردود تنتشر، لكنهم يصرون على التعمية عليها، حتى تذاع الشبهات.

وفي موطن آخر من كتبه[2] كان يُدهش بولع بعض الكتاب بترديد شبهات باطلة، سبق أن ناقشها المخلصون من الكتاب والمفكرين وفندوا مزاعمها وأبطلوا أفكارها، ومع هذا تجد من يحييها مرة أخرى، وكان الأجدر لها أن تنتهي، بل الأغرب من هذا حينما ينتهي المطاف بصاحب الشبهة إلى إبطالها والبراءة منها، وقول ما يناقضها وينقضها، ثم تجد مع هذا من يعيد وجودها ويحييها دون أن يلتفت إلى نقد صاحبها لها وبراءته منها.

1 - الشيخ الشعراوي.. جولة في فكره الموسوعي الفسيح د- محمد رجب البيومي
2 - راجع قضايا إسلامية ج2 د- محمد رجب البيومي

ويقول كذلك في كتابه (من المثل الإسلامية): "تفاجأ بعد حقبة يسيرة باشتداد النزاع حول الموضوع نفسه على أيدي أناس آخرين، وكل فريق يعيد ما سبق من الأدلة والبراهين، وكأن المسألة طريفة لم تكن مجال النزاع ذات يوم، والعجيب أن المعركة الثانية لا تضيف جديدا في النظر العلمي إلى ما تمخضت عنه المعركة الأولى، بل أعادت ما كان مع اختلاف الأسماء التي تتحدث عنها فقط، وظهور أصحابها بمظهر ذوي الجدل الصائب، والاطلاع المتبحر"[1]

وعلى سبيل المثال في قضية ميراث المرأة ومساواتها بالرجل، والتي ترددت منذ عقود، ووجدت من العلماء الثقات من رد عليها وفند مزاعمها بالحق والعقل، يذكر البيومي أننا نجد من يعيد النقاش فيها ويكرر شبهتها، غير عابئ بما كان وفات، وغير معترف بتلك الحجج التي أطفأت وهج الشبهات، ولكن هؤلاء يحبون أن يكرروا أنفسهم ويعيدوا ما تم ذكره، يجدون في ذلك سعادة غريبة.

فمنذ أكثر من نصف قرن أثار سلامة موسى هذه الشبهة فنشر وتحدث وكتب، وظن أن الجمعيات النسائية ستناصره وعلى رأسهم هدى شعراوي، وتخيل أنها ستنادي به محررا للمرأة وخلفا أو في منزلة قاسم أمين، ولكن السيدة خيبت رجاءه وأمله، في ردها عليه وفيما نشرته في مذكراتها، حيث أثبتت عظمة الشريعة الإسلامية في هذا التقسيم، واختلاف المجتمعات بين الشرق والغرب، نُشر ذلك في مذكراتها بمجلة حواء عام 1982م، وسجل البيومي دعوى سلامة موسى الكاذبة، حينما ادعى أن قاسم أمين كان

[1] - من المثل الإسلامية- د. محمد رجب البيومي

ينوي المطالبة بمساواة المرأة بالرجل في الميراث، ولكنه أمهل ذلك حتى يستطلع الرأي العام، وهذا في رأي البيومي كذب، لأن قاسم أمين حينما كتب كتابه الذي أحدث الضجة عليه، لم يتمهل حينما يستطلع الرأي العام، كما أن سلامة موسى لم يكن من تلاميذ قاسم أمين أو من أصدقائه حتى يعلم ذلك.

وحكى عن حادثة أخرى في ميدان تكرار الشبهات، وقد جرت في ثلاثينات القرن الماضي حينما أثارها أستاذ جامعي في محاضرة ألقاها على طلبة كلية الآداب عن القرآن الكريم، نقل فيها ما قرأه عن ذوي الغرض من المستشرقين، وانتقلت زيوفه إلى الصحف وثارت حفيظة الرأي العام، فأوقف الأستاذ عن عمله، وقام من أصحاب الأقلام الغيورة من رد عليه وفند مزاعمه المُعادة، في كتاب خاص يكشف الكذب، وبعد أكثر من نصف قرن من وأد هذه النيران، جاء أحد المكررين وجمع هذا الهراء في كتاب مجموع دون دراسة، فنقل هذه الأراجيف، وحاول الرد عليها من كتاب الأستاذ محمد أحمد عرفة، ولكنه لم يستوعب هذه الردود وكان كسيحا في عرضها، ولم يستطع أن يدفع الباطل بالحق، يقول البيومي: "فليت شعري ماذا كسب من ترديد شبهة لم يستوف حقها من الرد في كتابه، إلا أن يكون قد أورث بلبلة هائجة؟! لقد وقفت مستاء من هذه الأراجيف التي ذاعت دون داع، والتي لم تجد الرد الحاسم لدى من أذاعها، وكبت به مواهبه المحدودة عن استيفاء نقضها".[1]

1 - المصدر السابق

ولم يُمرر رحمه الله هذا التكرار العاجز، وإنما رد عليه بحججه القوية التي كشفت الافتراء على القرآن الكريم، ولكن رغم ردوده، إلا أن الأسى من تكرار هذا الطعن، قد أساء للقرآن الكريم وبلبل عقول الناس.

ويقول في كتابه من منطلق إسلامي: "تقرأ إعجابا بنظريات علمية تدعو إلى الإلحاد، وقد قام المنصفون بتنفيذها، ولكن بريقها لا يزال يستهوي نفرا ممن يرددونها كل حين، فلا بد أن نكرر ما يقولون حتى نقدم الجديد!"

ويقول في موطن آخر: "ونقرأ تهجمًا على المقررات المدروسة، والحقائق الثابتة، فتشتعل نيران الحقيقة في صدرك، وتتعجب كيف يجوز لصاحب قلم أن ينكر الحقيقي الثابت مثل حجية السنة المطهرة، وقد جوبه سابقوه بالدليل، وكان قد دحض هرائهم بما يمنع المخالفين من تكرار النغمة المقيتة، ولكنهم أعادوا وكرروا حتى أملوا، فوجب أن ترد من جديد لينحسم الشر في أضيق مجال"[1]

إن البيومي يتحامل على ضمائر هؤلاء المكررين، الذين كان الأجدر بهم وقد علموا الحق في رد الشبهات أن يمتنعوا عن إذاعتها، لكن للأسف يقرؤون ويعرفون ثم يرددون ويجددون الشبهة، وكأنها كانت أمس، وإذا كان هناك من تسول لهم ضمائرهم قبول هذا الكذب والافتراء، فإنه يمكن قبوله في أمر علمي أو أدبي، أما أن يتعلق بالدين من قرآن وسنة فذلك كبيرة عظيمة.

[1] - من منطلق إسلامي ج1 . د- محمد رجب البيومي

إن كتاب فرج فودة كما أوضح سيدنا ما هو إلا مجموعة من الأفكار المسبوقة، التي لا فضل لصاحبها فيها، فكلنا نعرف أن قضية الإسلام وأصول الحكم، التي ظلت تتردد في الكتب والصحف منذ ألف الأستاذ (علي عبد الرازق) كتابه أي منذ ما يزيد عن ستين عاماً، وقضية تتردد منذ ستين عاماً، ويدور حولها النقاش، لا بد أن تكون من الظهور بحيث لا نجد الجديد في كتاب يحاول أن يتحدث عنها دون أن يكون مؤلفه من رجال الاختصاص بحكم ثقافته البعيدة عن هذا المجال.

ثم يسترسل في نقاشه لدعواه فيستدعي من الماضي موقفًا مشابها ليدلل على أنها عادة قديمة لدى أصحاب الأغراض وراغبي الشهرة والساعون إلى البطولات الزائفة فيقول: "على أني لم أقف على شجاعته المصطنعة أمام ما يتخيله من سيوف لا وجود لها، ومن مخاطر موهومة يزعمها زعما لتخلع عليه ثوب البطولة أقف لأستعيد أمثلة سابقة لنظراء أمثاله، جاؤوا بالرأي المخطئ، ثم اندفعوا يصرخون بأنهم محاربون، ومعرضون للخطر وأن أرواحهم توشك أن تذهب، ثم مرت عليهم عشرات الأعوام وهم وارفون في النعمة"

لقد ألف كاتب ما كتاباً سماه (هذه هي الأغلال) ومضى يُعلن في كل مكان أنه مضطهد، وأن حبل المشنقة يوشك أن يلتف على رقبته وأن على الأحرار أن ينقذوه، وانطلت خديعته على بعض العقلاء، فرحبوا به مخدوعين، لكن كاتبا عظيما من كتاب الإسلام، قد لمس خديعته، فتحدث عنه كاشفاً ما استتر من خداعه فقال في مجلة الرسالة عدد (٧٠٢): "قدّم إلى هذا الكتاب وأديرت على سمعي الأسطوانة التي أديرت على أسماع الكثيرين – أسطوانة حبل المشنقة ـ وتأثرت ساعتها وتحمست، فحياة كاتب ليست بالشيء

الهين، وإهدار الحياة بسبب رأى أو فكرة مسألة لا يتحملها القرن العشرون، فوق ما في الفكر الإسلامي من سماحة تبرئه من الجنوح إلى طريقة محاكم التفتيش.

ولكنني حين قرأت الكتاب بردت هذه الحماسة، لأني لم أجد إلا كاتباً مريباً، ولم أشعر أن الرجل في خطر، فأمثال هؤلاء، يعرفون طريقهم جيداً، ولا خوف عليهم من الشنق ولا غيره، ولو كانوا يعرفون أن الشنق ينتظرهم حقاً؛ لما أقدموا على فعلتهم، لأن الحياة على كل حال، أغلى من كل ثمن سواها قد يأتي به الكتاب.

ووجدت أنه من المهانة للفكر أن أنزلق، فأكتب عن كتاب تافه مسروق مريب كهذا الكتاب، يسلك صاحبه هذا السلوك في الاحتيال لبعث الاهتمام به، وإثارة الضجة حوله) وقد أوضح هذا الكاتب العملاق: كيف جاء الكتاب بأفكار مسبوقة لا فضل لصاحبه فيها.

وترديد الشبهات الذي نلمسه كل وقت وكل زمان، وكذلك الهجوم المستمر على كثير من المظاهر أو الثوابت الدينية، كان للبيومي فيه رؤية خاصة موجهة إلى هؤلاء الذين لا يبصرون فهم في نظره أناس يغطون في غفلة كبيرة عن واقع الصحوة الإسلامية المعاصرة، والوعي الديني المنتشر في ربوع مصر، والذي كان الأولى بهم أن يلتفتوا إليه، ويخضعوا موازين عقولهم ومداد أقلامهم في ركابه، ولا يصرون على معاملة الوعي الحاضر الجديد، بما كان من عقود سالفة، وجهالة مطبقة. لقد أفلح الاستعمار قديمًا أن يرسم صورة مخيفة للشريعة الإسلامية، لكن هذا الباطل قد انجاب عن النفوس وأخفق أعداء الإسلام

في ترويجه، بعد أن أسفر فوزه وضاء للجميع، لقد كانت القوانين الوضعية تسن قوانين وبنودا مخالفة لروح الإسلام، ويقابلها الرأي العام هاتفًا مرحبًا، فإذا اعترض مسلم اتهم بالجمود والرجعية، لكن اليوم تغيرت الصورة أمام يقظة الوعي الديني في الأمة المصرية مما يبشر بالخير، وصار رجال القانون يسمعون صيحات الدين فيذعنون لها وجلين، ولكن ومع هذا ما زال فريق من الناس النافرين يهاجمون القوانين الدينية هجوما فاشلا، ويرددون أنغام المستعمر البالية، وينذرون الوطن بالخراب والتأخر والفشل إذا احتكم إلى الشريعة والقرآن في شيء.[1]

لقد رد رحمه الله ادعاءات (محمد عبد الله عنان) وكان المدهش لنا هجومه وموقفه المعادي للقوانين الإسلامية، وكان من المدهش لنا هجومه الظالم وموقفه المتجني والمعادي للقوانين الإسلامية، في مسألة حقوق المرأة وغيرها، حينما كتب في مجلة الثقافة عدد (706) وذكر "أن الاتجاه نحو الشريعة الإسلامية خاطئ من أساسه وأن النظم والقوانين التي توافق روح العصر ومقتضيات الحياة الاجتماعية لا محل لأن تجعل الدين حكمًا في مسائل لا علاقة لها بالدين ولا تمس العقيدة، وأن محاولة النيل من النهضة المباركة، نهضة المطالبة بحقوق المرأة والرجوع بها إلى الوراء باسم الدين، أمر لا يقبله عقل مستنير أو منطق سليم، فالنظم الأساسية والقوانين الجنائية المصرية، كلها نظم وقوانين تطبعها الصفة غير دينية"[2]

لقد وجه نقده لعنان حينما أشار إلى أن الأليق به بعد أن تشبث بالقوانين الوضعية واعترف بأنها وحدها التي توافق روح العصر، ومقتضيات الحياة الاجتماعية، أن يدافع

1 - راجع المصدر السابق
2 - راجع من منطلق إسلامي ج2 د- محمد رجب البيومي

عنها دفاعا يحببها إلى الذهن المصري الحديث، بعد أن كفر بها كفرا لا مزيد عليه، لقد سيطرت على التشريع المصري حقبة طويلة، ففتحت الطريق للرشوة والظلم والفساد والاستبداد، ومحت معاني العزة والحرية والكرامة في النفوس، وهذه القضايا السياسية الفاضحة التي تمتلئ بها الجرائد كل يوم، لم تكن إلا نتيجة لهذه القوانين الآثمة، وقد فطن المجتمع المصري إلى ما جرته هذه الشرائع الغربية من نكبات أليمة على الشرق والإسلام، فحاربها وأعلن سخطه عليها، إن عنان وأمثاله يتحدون مشاعر الجماهير، ويتجاهلون ما طرأ على المجتمع من تطور سريع ووعي سديد، ويغمض عينه عن الجموع التي تنادي بالاحتكام للشريعة الإسلامية.

ألا يدرك عنان وغيره هذا التطور نحو الدين ويلحظونه، ألا ينظر إلى الصحف التي تُفرد الصفحات الواسعة لمناقشة المسائل الدينية، والحديث عن الأبحاث الإسلامية؟ وهم كما صرح البيومي لا يفعلون ذلك ترحيبا بتعاليم الإسلام، ولكنهم يتملقون الوعي الديني في الأمة، ويتقربون للقراء بالكتابة الإسلامية، التي تغذي العقول، وتشبع الرغبات، حتى المؤسسات الثقافية التي يسطر عليها من لا يرغبون في الروح الإسلامية، تراهم يطبعون كتب الدين وتفسير القرآن الكريم استجابة لسطوة الوعي الديني الحديث، أو رغبة في الربح والاتجار.

الخاتمة

لقد خرج إلى النور هذا السفر المدهش، الذي يحكي جهاد عالم وكفاح مناضل، خدم دينه بالقلم والفكر والبيان، وكان درعا محكمًا صد غارات الحاقدين، وتتكسر عليه نصول الهاجمين

جاهد الشيوعية.

وفضح العلمانية.

وعصف بالإلحاد.

وهزأ بالمستخفين.

وأقض مضاجع المعادين.

وبعثر شبهات المستشرقين.

وبدد جهود المستعمرين.

ووقف وحده جيشا عرمرمًا أمام التحديات التي يحيكها الحاقدون للإسلام.

كان لزامًا علي أن أحيي سيرة عالم مجاهد وهب حياته وقلمه لنصر الإسلام، وهو الجانب الذي كان البيومي فيه عظيما كأعظم الفرسان، ومقاتلا من أمهر المقاتلين، لكن علم الرجل وتنوعه المعرفي الموسوعي، وتخصصه الفني، كاد أن يطمس هذه الفروسية، ويغطي عليها، ويغض الطرف عن وجودها، يأتي ذلك بعد موته منذ أكثر من عشرة أعوام، وقد كادت الدنيا أن تنساه، وجحدت قدره ومكانته معاقل العلم التي تكرم من يتقاصرون أمامه، فلم ينل حقه اللائق به والمكانة السامية التي تعبر عن جوهره النفيس.

لكننا اليوم والحمد لله بما صنعنا، نضعه في موضعه الصحيح، ونزنه بالميزان اللائق به، ليكون الدكتور البيومي علمًا مناضلا مدافعًا عن الإسلام، قبل أن يكون العالم اللغوي أو الناقد الأدبي أو الشاعر المتدفق أو المؤرخ الحصيف.

انتهيت مع القارئ الكريم من هذه السياحة في بعض ما قدمه شيخنا العلامة الدكتور محمد رجب البيومي، من ردوده على خصوم الإسلام الذين تعددت ألوانهم وأشكالهم، وجاؤوا بمفترياتهم من الشرق والغرب، والحق أننا أردنا أن نعطي لمحة يسيرة عن حال هذا العملاق الكبير، الذي ملك العلم والحجة والبيان والنقد الجاد الهادف، فكان بما ملق من هذه الذخيرة جنديًا من جنود الحق وحارسًا أشما من حراس العقيدة، الذي كان الأزهر يفتخر بهم، بل تفتخر به مصر كلها.

والحق أن الدكتور البيومي لم يلق التكريم اللائق به، وانعكس تجاهله على كثير من الأجيال التي لا تعرفه اليوم، ولا تعرف جهوده ومعاركه وغيرته العظيمة على الإسلام،

ولقد كان هذا هو الدافع الأكبر، أن نكشف عن هذه الصفحة العظيمة من صفحاته المشرقة في تاريخ حياته، وهي دفاعه وغيرته عن دينه وإسلامه وأزهره، فكان أمة وحده، وحصنا بذاته، وصخرة عظيمة تكسرت على صلابتها زيوف المفترين، آملا أن أكون قد أعطيت لمحة يسيرة، تكون هداية وتمهيدا لمن أراد المزيد من التعرف على جهوده في هذا الميدان.

فرحم الله شيخنا الكبير محمد رجب البيومي، وجزاه عن دفاعه عن دينه خير الجزاء.

المراجع

1 – القرآن الكريم.

2 – السنة الشريفة.

3 – من منطلق إسلامي ج1 ط المطبعة العربية الحديثة.

4 – من منطلق إسلامي ج2 ط المطبعة العربية الحديثة.

5 – الإسلام وأصول الحكم في الميزان. د- محمد رجب البيومي هدية مجلة الأزهر بتاريخ صفر 1414هـ.

6 – في ميزان الإسلام ج1 ط المطبعة العربية الحديثة.

7 – في ميزان الإسلام ج2 ط المطبعة العربية الحديثة.

8 – الأزهر بين السياسة وحرية الفكر -د. محمد رجب البيومي - الصادر عن مجمع البحوث الإسلامية 1993م

9 – قضايا إسلامية ج1 ط دار الوفاء بالمنصورة.

10 – قضايا إسلامية ج2 ط دار الوفاء بالمنصورة.

11- محمد متولي الشعراوي.. جولة في فكره الموسوعي الحديث الصادر عن مجمع البحوث الإسلامية وهدية مجلة الأزهر عدد فبراير 2023م.

12- ظلال من حياتي.. خيوط متفرقة من نسيج الحياة- د. محمد رجب البيومي- ط دار سنا الفاروق النشر.

13- رحلة في المكتبة العصرية - د. محمد رجب البيومي- ط دار سنا الفاروق النشر.

14- جريدة صوت الأزهر.

15- صلاح الدين الأيوبي .. قاهر العدوان الصليبي – سلسلة أعلام المسلمين

16- مجلة الأديب عدد 12 عام 1971م.

17- محمد رجب البيومي: حياته وشعره - رسالة ماجستير للباحثة د- عزة البكري.

18- محمد فريد وجدي.. الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي- سلسلة أعلام المسلمين.

19- مصطفى صادق الرافعي.. فارس القلم تحت راية القرآن.. سلسلة أعلام المسلمين.

20- أزهريون على طريق الإصلاح- إعداد د- علي عبد العظيم.

21- هارون الرشيد الخليفة العالم والفارس المجاهد. د- محمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق 2000.

22- هارون الرشيد ولعبة الأمم- أندريه كلو ترجمة د. صادق الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005.

23- الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم د- مصطفى السباعي – ط دار الوراق للنشر والتوزيع.

24- مع الله – الشيخ محمد الغزالي –ط دار النهضة.

25- عبقرية عمر – عباس محمود العقاد ط مكتبة الأسرة.

26- إعادة قراءة القرآن.. الدكتور محمد رجب البيومي يرد على جان بيرك ط دار الهلال.

27- ديوان حصاد الدموع – ديوان خاص برثاء الحبيبة الراحلة .د- محمد رجب البيومي دار تثقيف بالطائف.

28- أصداء المعري في شعر البيومي – بحث للدكتور مصطفى السواحيلي- جامعة الأزهر.

29- مجلة المنهل عدد 626.

30- ديوان حنين الليالي شعر د- محمد رجب البيومي.

31- من المثل الإسلامية- د. محمد رجب البيومي- المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع

32- مجلة الأزهر عدد مارس 2011م

33- أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبي- د. محمد رجب البيومي.

34- من حديث الذكريات عن الجانب الإنساني في حياة فارس القلم د محمد رجب البيومي، للدكتور الوصيف هلال الوصيف

35- أعلام في الظل – د. حلمي محمد القاعود. دار البشير للقافة والعلوم

الفهرس

المحتويات

بطاقة تعريفية.. 6
قالوا عنه.. 10
مقدمة 23
مقدمة 28
مقدمة المؤلف 30
النشأة الدينية.. 35
الكتابة والرسالة 48
متاعب مبكرة.. 58
أخلاقه وصفاته 67
الأديب الإنسان 78
فارس القلم.. 85
الدفاع عن العربية والقرآن..100
دعاة التدهور والسقوط..108
دفاع عن الأزهر وشيوخه 116
تشويه التدين **ورموزه**..125
الإسلام أنصف المرأة..132
معركة البغاء 141
حرية الفكر والإبداع 150
إخراس الحق 157
غربيون ينصفون الإسلام..165
أكاذيب المستشرقين 174
زيوف مفضوحة..184
أوهام شيوعية 194
شبهات واهية 202
تحريف التاريخ..209
الرمزية بين الكذب والحقيقة 217
ممن يؤخذ العلم؟ 225
الإنسانية الزائفة 234
فرية التفكير الديني..244

مخرفون لا مفكرون 250
تكرار الشبهات 258
الخاتمة 267
المراجع 270
الفهرس 274